لماذا يخاف الأروبيون العرب

بحث في لقاء الحضارات وتطورها جدلياً

تأليف: د. بناتيا عبد الرحمن

ترجمة: نسيم واكيم يازجي

المدخل:

منذ ولادة الكائن البشري على الأرض، كائناً معزولاً أو حياً في مجتمع، صادف قضايا مختلفة الأهمية والنوع.
فبعثت الحياة أسئلة. ومن يقل أسئلة يقل أجوبة أو عناصر جواب، أي أن الكائن الحي، الإنسان بعامة، يتأمل وضعاً معيناً، في زمن معين: فيطرح أسئلة أو بالأصح تتكلف الطبيعة بطرح أسئلة عليه، مباشرة أو غير مباشرة، جلية أو مبهمة، وللإجابة عليها، يجب على الإنسان أن يفكر يعني أن يستخدم حواسه، غريزته، ذاكرته وتجربته، وعندما لا يكفي هذا، عليه أن يلجأ إلى فطنته وعقله، ما يعني بالعربية الاجتهاد وما يترجم بالتأمل المثمر.
لا يتطلع هذا الكتاب لأن يكون عملاً لغوياً، في فقه اللغة أو التاريخ، إنه يترجم ببساطة حالة من الواقعات، ويحاول الإشارة إلى وقائع ماثلة وربما غير مرئية، وأن يكشف سلسلة من الأفكار المتواضعة قد توجد لدى أي مواطن، عادي أو متوسط، يفكر وموجود. لأن المواطنين العاديين، الذين لا يحسب حسابهم لأنهم بسطاء ووضعاء، أولئك الذين لا يطلب رأيهم لأنهم غير محاطين بألقاب، بشهادات... وأموال، يمثلون الغالبية الصامتة التي تلاحظ، ولا تقول شيئاً، بينما هي ليست أقل كفاءة من غيرها. هذه العينة من الناس توصف عادة - من دون علمها - بالرأي العام الأممي. لكنها فضلاً عن هذا، تمثل وجدان الأمم.
وهذا الكتاب، الذي عنوانه سؤال، يضع كثيراً من "الشؤون" في سؤال. قد يبدو غريباً تجزئة بعض العقائد، نقض بعض "الحقائق" مع أنها راسخة منذ قرون. لكن من يستطع أن يتباهى بكتم الحقيقة الشاملة؟ التي مهما كانت كبيرة، أو صغيرة تعطينا دروساً في التواضع. تعلمنا الحياة والموت، احترام الآخر، الصبر، والبحث الأريب يملي علينا الموضوعية واستبعاد التصور المسبق للأفكار والحكم.
في هذه التوليفة الموسيقية، لن نضع بالحروف اللاتينية الكلمات العربيةَ المستخدمةَ بل فقط المعروفة في اللغة الفرنسية، وكذلك أسماء العلم. ستكتب هذه الكلمات "كما وردت في النص" وستلحق بهذا المؤلف لائحة بتطابق الحروف العربية واللاتينية. ستترجم الآيات أو ملخص الآيات من القرآن بطريقة تعطينا المعنى العام وهو علاقة مع القرينة، وذكر السورة (بالحروف الرومانية) وآيات (بالحروف العربية) وقد تتباين المطابقات

التاريخية بين كاتب وآخر (حسبما "يؤرخ" هذا الأخير بالتقويم القمري (الهجري) أو التقويم الشمسي (قبل أو بعد الميلاد) وسنقدمها مضبوطة.
سيضم الفهرس جزئين: واحد بالعربية لما كتب بها، والثاني لما كتب بالفرنسية، والتوراة، عندما يرد، باللغة الفرنسية (Bible Segond).

المؤلف

المقدمة

لقد علمتنا كل المعتقدات أن الإنسان، لكي يتواصل، استخدم الكلمةَ، الفعلَ واستعمل الموروثات الشفهية، وأفاد من ذاكرته ليلقن جيله، والأجيال التالية، وليسجل الواقعات، والأحداث المتولدة. وفيما بعد، لما ضعفت الذاكرة، وصار التخاطب الشفهي غير كافي، غير تام، تصور الإنسان، نهجاً من الرسومات، الشارات، الرموز ليرمز إلى أمر أو فكرة، هذا ما خلق الكتابة، قاطرة الفكرة والكلمة.

لكن قبل ظهور الكتابة، بالمعنى "الحديث" (أي الشارات أو الرموز، ثم حروف ساكنة مرتبة حسب نهج معين، لتركيب جمل مفهومة)، كان الإنسان( ) يعرف أن "يكتب" يرسل رسالة إنما بوسائل أخرى: بالشكل، بالصورة، على الفخار، بالحياكة النسجية، بإرسال موجات من الدخان أو أدوات رنانة وذات إيقاع.... فرأت حضارات بهيّة النور في أصقاع مختلفة من العالم، حضارات كانت أساساً شفوية.

لقد اعتاد مؤرخون وكتاب، أروبيون بخاصة، تقسيم التاريخ البشري إلى مرحلتين: قبل التاريخ (يقص واقعات وأحداثاً جرت قبل ظهور الكتابة) وبعد التاريخ (قديم وحديث) أي في الألفية الثانية (تقريباً) (قبل الميلاد). يجمع هؤلاء الكتاب إذن الحقبة التاريخية بحصر المعنى مع الحقبة الإغريقية (الحضارة الكريتية).

لا اعتراض لنا على هذا التقسيم فيما لو بُرّر. نقرأ في معجم لاروس فيما يخص ما قبل التاريخ: "هو إعادة تركيب علمي لشروط حياة وحضارة الإنسان منذ موطنة الأصلي حتى ظهور أولى الوثائق المكتوبة. يمتد تقريباً منذ العصر الرابع حتى عهد المعادن (ألفان سنة تقريباً ق.م. لكن وثائق مكتوبة سومرية اكتشفت فيما بين النهرين مؤرخة في الألف الخامسة ق.م، وأوراق بردي مصرية تعود لأربعة آلاف وخمسمائة سنة ق.م، ومخطوطات على الخشب صينية لثلاثة آلاف عام ق.م( ).

إذن، أثمة تعريفان لما قبل التاريخ، واحد لأوربا وآخر لآسيا وأفريقيا؟ دون الحديث عن أمريكا حيث أحرق التفتيش الأسباني كل كتب الأرصاد، الوثائق، الخ....

أم أن هذا احتجاب، كذبة لإغفال تاريخ هذه الشعوب؟ صحيح أن الأوربيين "كشفوا" منذ عدة عقود هذه الحضارات، دعموها (بخاصة الحضارة

الفرعونيـة الموجـودة علـى أبـواب أروبـا) ففـي عصـرنـا، يصـعب "إخفـاء الشمس إذا ما توفرت الدقة". إنما فيما يخص مصر، درس بعض الكتـاب المختصـين تـأثير فكـر وعلـم مصـر قبـل – الأسـكندري- علـى الحضـارة الإغريقية.

إنه لأمر لا يدحض، لدى العديد من الكتاب الآخرين، أن الحضارة الأوربية الحاليـة هـي ابنـة الحضـارة الإغريقيـة – اللاتينيـة، أي أنهـا وريثـة حضـارة قديمة، إنما أروبية! وثمة واقع آخر لا ينكر لـدى هؤلاء الكتـاب ذاتهم، هو أن الكنيسـة المسـيحية فـي أوربـا هـي ابنـة الكنيسـة الرومانيـة (كانـت رومـا عاصـمة الإمبراطوريـة الرومانيـة، وكـان القديس بطـرس، معلـم حـواريي يسوع، أول أسقف لروما)، لكننـا نـذكر أيضـاً أن يسـوع (الـذي أعطـي أسمـاً وثنيـاً، بعد أن أعطـي أسمـاً أغريقيـاً، والقديس بطـرس) ولـدا فـي فلسـطين، وكذلك باقي الحواريين.

وكل الأديان المعروفة تعلمنا أن أول إنسان خلقه الله، من الأرض، كـان آدم (وهذا يعني أرض بالعربية). وكل الناس سلالة آدم، والجميع، يمثلـون ذات الهيئة الجسدية والدماغية – العقلية، مع فوارق بسيطة باللون بدءاً الأبيض – الثلجـي حتـى الأسـود الأبنوسـي، والنـاس، المنتشـرون فـي أربـع زوايـا الأرض، يملكون عين الصفات الوراثيـة والذهنيـة، وحسـب كل الإحداثيات الجغرافيـة والمجتمـع الـذي يعيشـون فيـه، قـد تكـون التربيـة، والميـراث، والتطور الذهني مختلفة.

هذا يعنـي أن، بدايـة، الطوالـع عملياً متساوية مع قاعدة الـدورات الإقليميـة للحضـارات الصـاعدة – النازلـة، فـي الزمـان والمكـان (فالحضـارات قابلـة للفناء).

ولـيس لأي شـعب أو أي عـرق أن يـدعي صـون الحقيقـة الشـاملة، والعلـم الخلقي. كما في علم الآثار، حيث تكشف كل لقية عن طبقات تطابق مختلف العهود (الأقدم هي الأقل سطحية)، فالفكر البشري، عبر تاريخه، تشكل من طبقـات أو شـرائح. وكـل عصـر، وكـل مصـر، يقدم مسـاهمته – الواهنـة أو الهامـة – للتـراث البشـري. وكـل مسـاهمة، وإن كانـت زهيـدة وضـيعة، هـي موضـع ترحيب ومطرح مؤازرة ووسيلة لمسـاهمة تاليـة أو ببسـاطة لا يقدم نفعاً إهمال هذه المساهمة أو تلك من هذا القطر أو ذاك مـن هذا الشـعب أو ذاك وهذا قرينة على الأنانية أو على عمى ذهني وثقافي.

لم ينطلق الإنسان من العدم أبداً. بل عـرف أن يفيد مـن المعـارف والتجـارب والخبـرات السـابقة: اسـتفهم الماضــي ليسـوّي أخطــاءه، اسـتوعب أنبــاء

ومدارس( ) الجيران ليشيد مدرسته ويبني مستقبله. وهكذا صار هو ذاته نموذجاً يقتدى، ودراسة للإيحاء والتأمل. لم يترك سقراط، الفيلسوف اليوناني الأشهر أي عمل مكتوب لكن علمه الشفهي خوّل الفلسفة الإغريقية أن تتوطد وتزدهر بنشاط تلامذته أفلاطون وكسنوفون (وغيرهما). وابن خلدون، أب علم الإجتماع، "علّم" وأثّر بعلماء إجتماع مثل أوكست كانط وإميل دركهايم. وقانون الطب، لابن سينا درّس في الجامعات الأروبية حتى بداية القرن العشرين ب. م. (الرابع عشر الهجري).
والأمثلة في هذا الباب جمّة. يعلن أرنست رينان. المستشرق المعروف، بهذا الصدد: "ألبير الكبير مدين بكل شيء لابن سينا، والقديس توما كفيلسوف مدين بكل شيء لابن رشد.
ولم الخجل من جهله؟ فقط من لا يقدر أن يتعلم يمكن أن يوصم بالجهل.
حديث للنبي يعلن: "اذهبوا في طلب العلم حتى الصين (اطلبوا العلم ولو في الصين) (إن توجب هذا) إن أروبا قارة شابة، من حيث الحضارة. "وتاريخها أولاً بأول متوسطي وأغريقي. فالمدن اليونانية وبحر إيجه، مع كريت، كانت مربض حضارة باهرة، نابعة من أسيا الصغرى"( ). كما أن الشمس تنهض من الشرق، كذلك وصل النور إلى أروبا من آسيا وأفريقيا.
التاريخ ترتيب حديث نسبياً، ومطابق لدرجة معينة للحضارة. ويمكن القول إن ابن خلدون مؤسس علم التاريخ فأعتبر منذئذ علماً. وفي عمله المذكور في الفهرست، يحدد التاريخَ كطاقة تهدف دراسة المجتمع البشري، أي الحضارة كل الحضارة. يدرس ما يخص طبيعة هذه الحضارة، أي الحياة في حالة التوحش وفي المجتمع، ملكات روح القبيلة والشروط التي تمكن مجموعة بشرية أن تسيطر على أخرى. تفضي هذه النقطة الأخيرة إلى تقصي ولادة السلطة، الأُسر المالكة والشرائح الإجتماعية.
وبالتالي، يهتم التاريخ بالمهام الرابحة وسبل كسب الحياة، التي تشكل شطراً من أنشطة وجهود الإنسان، ويهتم أيضاً بالعلوم والفنون. أخيراً، تعرض لكل ما يميز الحضارة". ويضيف الكاتب نفسه: "يتسلل التزوير طبعاً إلى الأنباء التاريخية. وثمة عدة أسباب تفضي إلى هذا الهدف. أولها الروح المناصر لبعض الآراء وبعض التوجهات. إن الفكرة المعلومة من دون تحيز تعطيه المستوى المطلوب لدراسة دقيقة لطرح صحته أو طبيعته المنتحلة. بينما ستقبل الفكرة من دون تردد الصورةَ المؤيدة لتوجهاتها. يحجب هذا النوع من النظرة المسبقة الفكر الدقيق النقدي وروح التقصي. وهكذا تقبل الرسالة. إن الثقة (العمياء) التي نالتها مصادر المعلومات هي

السبب الثاني للخطأ... والعلة الثالثة: جهل مغزى الحدث... والسبب الرابع: الاقتناع بامتلاك الحقيقة بل احتكارها. ها هنا الوهم الكبير الذي يسجل غالباً لمصلحة المبلِّغين. والسبب الخامس: عدم مطابقة الظروف للواقع، وهذا يتعلق فعلاً بالتبدلات المبهمة والتحريفات... والسبب السادس: تناول كبار المؤرخين هذه القضية بالإطراء والمديح، وجمل جاهزة للنشر.... والسبب السابع، والأهم بالتأكيد: جهل السمات العادية للحضارة.... فالدارس الذي يعرف طبيعة الأحداث، ظروف وضرورات الوجود، يجب أن يتسلح جيداً كي يمارس استقصاء دقيقاً لفرز الكذب عن الحقيقة".

يذكر التاريخ واقعات، أحداثاً جرت في أصقاع عديدة من العالم في عهود متباينة. تحت هذا العنوان، كتبت كل حضارة تاريخها بطريقة متسلسلة زمنياً.

ففي العام ٥٣٢ ب. م. قررت الكنيسة المسيحية بدء تقويمها في اليوم الأول من كانون الثاني الذي تلا ولادة يسوع، أي أن عام ٧٥٤ حسب روما يطابق الأول من كانون الثاني من أول عام من العهد المسيحي. ويقرر البابا غرغوار الثالث عشر في العام ١٥٨٢ (٩٨٩هـ) تغيير تقويم جوليان لعدم دقته (عشرة أيام تأخير منذ قبوله)، ومنذئذ قبل التقويم الغريغوري. وتدريجياً قُبِلَ في البلدان الكاثوليكية من أوروبا، ثم البلدان البروتستانتية (المانيا، البلدان المنخفضة، سويسرا) والبلدان الأخرى في العالم (عدا اليابان، الصين والبلدان المسلمة، وكذلك المسيحيون الأرثوذكس (الكنيسة الشرقية). الذين رفضوه، لأسباب فهم، يعتقدون أن ترتيب أيام الأسبوع، خلقهُ الله.

كان تقويم جوليان قد أُقر في العام ٤٦ ق. م. سنة (٧٠٨ حسب روما) من قبل يوليس قيصر وبدأ في أول كانون الثاني بينما، حتى آنئذ، كان العام يبدأ في الأول من آذار. وتكريماً ليوليس قيصر، سمي الشهر الخامس يوليس، وسمي الشهر السادس Augustus (آب) لتمجيد الإمبراطور Auguste.

أمّا التقويم المسلم تقويم قمري، يبدأ في العام ٦٢٢ م (أول يوم في العام الهجري يطابق هجرة النبي محمد (ص)، من مكة إلى المدينة). ويقع العام الهجري في ٣٥٤ يوماً، وهذا ما يعلل تقديم، الأعياد المسلمة ورمضان ثلاثة عشر يوماً.

والتقـويم الإسـرائيلي تقـويم قمـري يبـدأ فـي العـام ٣٧٦١ ق. م، تاريخـاً مفترضاً لخلق العـالم( ). والعـام ٢٠٠٠ مـن التقويم الغريغوري، هو العـام ١٤٢١ من التقويم الهجري والعام ٥٧٦١ هو التقويم الإسرائيلي.
استخدمت كـل حضـارة تقويمـاً: شمسـياً أو قمريـاً، محسـوباً حسـب وقـوع أحداث مميـزة: كسـوف الشـمس، تطـابق الكواكـب السيارة، سـقوط نيـازك ضـخمة علـى الأرض، هزات طبيعيـة (تفجيرات بركانيـة ضـخمة، زلازل أرضـية، طوافانـات...)، أزمـات جـوع، جائحـات مرضـية، ولادة أو مـوت أنبياء، مؤسسي عقائد فلسفية دينية (بوذا، مثلاً).
التاريخ الذي قدم هكذا استخدم، بالتأكيد لغةً ومعجماً. بدايـة، أرادوا للتـاريخ الموضوعية. ثم، عندما لا يتفق مولـد الأمير (الملـك، الإمبراطـور أو القائد الحربـي) مـع تـاريخ بلده أو أسـلافه. يسـارع المحـرف إلـى شـطب الفصـول التـي لا ترضـيه لتأكيد تفوق سياسـته أو نظريتـه الدينيـة: ممـا يعطـي بعـض فراعنة( ) مصـر أسماء فراعنة آخرين من لوائح وفياتهم، أو أوابد عامـة أو وثائق مخطوطـة، أو أمجادهم وآثارهم، انطلاقاً من هذا الحدث، حتـى إنكـار أسلافهم.
واخترعت شعوب أخرى شخصيات شهيرة، لإخفـاء تـاريخ لا حيـاة فيـه، أو مجهول أو متخلف في جوقة الحضارات.
فـابن بطوطـا الـذي عـاش فـي القرن الرابـع عشـر م. (الثـامن الهجـري، من ١٣٠٤ ـ ١٣٧٧ (٧٠٠ ـ ٧٧٧هـ) هـو نمـوذج المـؤرخ الصـادق الـذي اعتمـد الأسـفار إلـى إفريقيـا الشـرقية، الهنـد والصـين. وصـف عـاداتهم، ألبستهم، طباعهم، أعمـال وتصـرفات ملـوكهم، حـروبهم، ثقافـاتهم، أديـانهم، دون أن يغفل تفاصيل مجتمعاتهم ولا زيارة أمكنتهم الجديدة بالاهتمام. وقد وصفهُ المستشرق دوزي "بالرحالة القمين بالثقة". هذا هـو المـؤرخ العلمـي الـذي يـذكر أحـداث وواقعـات عصـره ولا يسـهو عـن أو يشـوه أي نقطـة أو وجهة نظر تاريخية أو جغرافية. ومؤلفه، الذي قبس منه عدد من المؤرخين الأروبيين، مرجع هام، لكن للأسف، لم يتبع بعض الكتاب الأوربيين خطاه.
سـنرى عبـر هـذا العمـل، كيـف اسـتخدم الأروبيـون المعاصـرون تاريخـه لإخفـاء تـاريخ غيـره، ومعجمـه لتشـويه علـم أبنائـه، وقدرتـه الماديـة لـدعم سطوته الثقافية.
حتماً، نحن لا نقدر ولا نبغي تحرير كتاب مستفيض، يتطلـب طاقـات لفيـف من الكتاب، الموسوعيين والـ "مستقيمين"، كل في مضماره، وإعادة كتابـة

أو مراجعة مؤلفات أروبية قديمة، (تعود كتابتها إلى عدة قرون)، وحديثة (حتى أيامنا).
إنما نخول أنفسنا ببساطة رسم بعض الخطوط الضخمة التي تبدو لنا واضحة وفاضحة، في عهد المعلوماتية والرحلات عابرة البلدان.

القسم الأول

الفعل

الفصل الأول

أصوات ولهجات

(اقرأ باسم ربك الذي خلق) صدق الله العظيم قرآن (xcvi-1-)

الصوت هو الظاهرة المسموعة في الحياة ومن كل كائن حي (إنسان، حيوان أو نبات). وهو صلة بين فردين أو عدة أفراد من نفس الصنف، وأصناف مختلفة أو أنواع متباينة. يعبر عن فكرة، رغبة، فعل.

من وجهة النظر الفيزيائية، الصوت مجموعة اهتزازات يحددها طول الموجة. يختلف طول الموجة حسب الوسط (هوائي، مائع، صلب).

والصوت اهتزازة منتشرة بسرعة ٣٤٣م بالثانية، بحرارة ٢٠٠ سنتغراد في الهواء، والماء، وهذه السرعة هي ١٤٤٧ م/ثا بدرجة ٠١٥ سنتغراد.

اللازمة الطبيعية للصوت هي السمع. لكي يصل الصوت إلى الآخر، يجب ويكفي أن يتمتع الآخر بجهاز سمعي سليم، يفهم هذا الصوت ويعطيه ترجمة معقولة أو غير معقولة. والتجارب المتعلقة بتنمية نبتة ما، وزيادة حليب البقرة بعد "سماعها" موسيقى أمر معروف. ولدى الإنسان، يترافق الصمم بالخرس. ليس لأن الأصم لا يستطيع أن يتكلم، بل لأن الأصوات لا تترجم عنده إلى فكرة، مفهومة لدى رجل يسمع.

إن الأذن البشرية تعي الأصوات التي تقع اهتزازاتها بين ١٦ و ٢٠٠٠ هورتز. تتمتع الاهتزازات الرنانة بخاصة فريدة: تولّد اهتزازات ثانوية، تسمى هرمونية. لكن آذاننا لا تلتقط إلا بعضها: ذاك ما يسمى رنين هرموني. ثمة رنين آخر، الرنين اللطيف أو المرهف الذي يجعلنا نقول: تقع هذه الصفحة الموسيقية وقعاً طيباً على أذننا أولاً. والسيمفونية عند الإغريق هي مجموعة من الرنات الساكنة ويتم رنينها بشكل كامل. هذا ما يولّد تعدد النغمات.

كل الناس موافقون أن أصل الموسيقى هو الكلمة "الرخيمة" أو التعويذة.

نشر سان – أوغستان( ) "موسيقاهُ" في العام ٣٨٩، قبل وجود المنصب البابوي بمائتي سنة تقريباً. وأعلن: أكدت الأذن أن اللهجة كانت خاضعة لمحاولة الصعود إلى المرتبة السعيدة حيث يمكن تأمل الخلق المقدس، الإلهي. ويؤكد العقل أن الأذن لا تقدر أن تقوّم إلا الصوت أو الرنة بذاتها، بأشكالها الثلاثة: غناء الكائن الحي، صوت الأدوات الموسيقية النفخية، رنين الأدوات الوترية.

إن تمريراً كهذا يدعو للاستهانة إذا عجزنا عن ترتيب الأصوات بقياسها في الزمان، بمختلف تعاقبات بطئها أو سرعتها. وهذا هو ما يرقم الإيقاعات أي الإعداد باللاتينية.... وسرعان ما يؤكد العقل أن الأرقام تحكم كل الموسيقى وتوجه الحركة والهرمونيا. ويدرس طبيعتها بكل عناية، معترفاً أن ثمة أعداداً إلهية، أبدية، ساعدت حتى الآن على ترتيب كل شيء. إذاً، كما أن كل ما يتأمله روحنا وفكرنا ماثل أبداً وخالد، كذلك هي الأعداد، بينما الصوت، لأنه حسي، يعبر ولا يوجد إلا في ذاكرتنا، وقد أعطي اسم الموسيقى لهذا الفن الذي يكلم الحواس والروح". ويشير إلى تماثل الموسيقى والقصيدة.

يمتاز كل صوت بثلاثة معالم – بارامتر-: شدة، ارتفاع وطابع أو جرْس. يخولنا الجرس التعرف إلى نوع الأدوات والأصوات. ويتعلق الارتفاع بكثرة الاهتزازات (أصوات رزينة أو حادة) أما الشدة، تتعلق بالمدى (أصوات قوية أو ضعيفة). لا تلتقط الأذن البشرية بعض الأصوات (فوق – الصوت) ويلتقطها الحيوان (كلب، دلفين، وطواط، وغيرها...) واهتزازات فوق – الصوت هي الأعلى من ٢٠٠٠٠ هورتز. وأصوات أخرى لا تلتقطها الأذن البشرية: هي تحت الصوت أي أدنى من ١٦ هورتز.

إن كان المصدر الرنان والمراقب في حركة مناسبة، يختلف علو الصوت الملتقط عن ارتفاع الصوت المرسل. وعند اقتراب المصدر من المراقب، يبدو الصوت أشد وعند الابتعاد عنه، يبدو الصوت أرزن: هذا ما يسمى فعل Doppler ( ).

أصلاً، أدرك الإنسانُ اللهَ بالفعل (لوغوس Logos)( ).

أول آية في القرآن، أنزلها الله ولقنها للنبي محمد (ص) بواسطة سيدنا جبريل تبدأ بأقرأ (قرآن – xcvi-01)، أي، تكلم، إفهم. لأن من يقرأ يربط الفعل بالكلمة، يدرس، يتأمل هذه الكلمات لتعليمها للآخرين، يقول ج.ل. برنارد في "تاريخ مصر السري" إن البيان الدقيق لآيات القرآن يفسح مجالاً للعلم. وقوة موحية تنقل إلى المؤمنين، بواسطة الصوت".

اللغة، حسب الكتاب، تغطي ثلاث وظائف: وظيفة التواصل، التي تمكّن اثنين من نفس المشرب من الكلام: هذا هو موضوع عالم اللغة. وظيفة التعبير الفردي التي تخول كلا منّا أن يشد الآخر إليه: هذا هو علم النفس. والوظيفة الثالثة، التي هي وظيفة التعبير التعاوني، التي تشير إلى أي شريحة ينتسب فلان: وهذا هو موضوع علم الأعراق أو الأثنيات.

ليست اللغة فقط ضرورية للإنسان، بل الضروري أيضاً لغة بعينها لوجود وخدمة جمع من الناس بعينهم.
"إذا قبلت وحدة الأعراق المسماة بيضاء، كيف يُفهم أن اللغات الهندو- أروبية، السامية والقوقازية يمكن لها أن تصدر من لغة – ام واحدة؟"( )
يعلن أرنست رينان في كتابه "أصل اللغة" بهذا الصدد: "إن تصور عرق بدائي يتكلم لغة سامية هو وهم متناقض يدعو أي إنسان أن يرفض الاهتمام بقوانين الفلسفة المقارنة والنظرية العامة للفكر البشري". استخدمت الشعوب، لكتابة لغاتها، الحروف الأبجدية أي أنهم تعلموا أبداً عادة تقديم ذات الصوت بذات الحرف. حينما يسمع فرد ما رنين كلمات في لغة غريبة، يماثلها برنين لغته الأم، أو لن يعرف كيف يجسدها أو يسجلها.
الأعضاء المتحركة المستخدمة في إرسال أصوات عبر الجهاز البشري هي الشفاه، اللّسان، سقف الحلق، الأسنان والحنجرة. كل فرق بين صوتين يفضي إلى تبديل حركة هذه الأعضاء. اللسان عضو عضلي واعتبر لحقبة طويلة كعضو أساسي للكلام. ويقدر سقف الحلق، في الفتح والإغلاق، أن يمنع أو يسمح الزفير من الخروج من الأنف. والحنجرة، التي تضم حبالاً صوتية، بالشد أو الرخي، ترسل اهتزازات صائنة، رنانة (ارتفاع الصوت). تسهم هذه الحبال بداية في اللغات ذات النبرة (كاللغة الصينية) أو تتميز الكلمات بتبدل علو الاهتزازات التي تبعثها الحنجرة.
يعلن موسى بن ميمون، تلميذ ابن رشد في "إرشاد التائهين": "الشعور الأكثر ألفةً عندنا تكوّنُهُ الحواس، بخاصة السمع والنظر. ولن نعرف معنى شيء ما ولن نقدر أن نفكر بنقل فكر فرد ما إلى فكر شخص آخر، إلا بوساطة اللغة، أي الصوت الذي تستخدمهُ الشفاه واللسان، وأعضاء الكلام الأخرى".
يستخف أغلب الكتّاب بأهمية التنفس في الكلام. فالتنفس يسمح بتغذية الدماغ بالأوكسجين والغازات الأخرى الموجودة في الهواء لتحسين وظيفة هذا الدماغ وإبقائه في نشاط مستمر. يعبر هذا الأوكسجين أيضاً إلى الدم وينقيه، ويتبدل الهواء الفاسد في الرئتين بالهواء النقي. عند الكلام، بوضع ملائم، أي بشكل واضح، ومرتاح ودون عثرات اللسان يسهل الإنسان التنفس ويستخدمه بصورة أمثل. ويستغل الـPrana والهواء أيضاً (البرانا طاقة فوق الفيزياء أساسية لصون الحياة وتحريض التفكير).
لدى الإنسان الغاضب، الذي لا يراقب نفسهُ ويتفوهُ بأي شيء تتضخم الاهتزازات وتزداد توترات الصوت. يقصر اللّهاث، تضطرب الدورة

الدموية ويحمر الوجه. تفقد الوظائف الوعائية، والتنفسية توازنها، ويغتم الدماغ.
اللغة المنطوقة هي إرسال مجموعة من الأصوات المرتبة حسب نهج معين، تخضع لبعض القواعد القابلة للاستعمال، ويدرك الحس بنفس الصورة من قبل ممارسي هذه اللغة( ).
لأن الفهم الدقيق والمتفق عليه لكلمات من ذات اللغة يسهل تجانس الجماعة الاجتماعية الواحدة (العشائرية ثم الإقليمية) وفي ولادة أثنية معينة. ليس ثمة شعب أكثر التصاقاً بالأدب أو تأثراً باللغة المشذبة من العرب. هؤلاء المدهوشون أبداً بسماع إلقاء الشعر، والكلم بالنسبة لهم موسيقى ساحرة. وكما يقول المثل العربي: "جمال الإنسان في فصاحة وبلاغة لغته". على الإنسان العربي الكامل أن يعرف كيف يلقي قصيدة أو قطعة منثورة، وأن يمارس القوس والنشاب وركوب الخيل.
يأتينا المثل الأقدم على فهم اللغة من التوراة، عند بناء برج بابل، حينما لم يعد عمال هذا الصرح يقدرون على التفاهم لأن كلاًّ منهم كان يستخدم كلاماً لا يفهمه الآخر. والآن، استعمال ذات الكلام من ذات اللغة في علاقات دولية لا يسهّل وجود ثقة متبادلة لأن كل واحد يفهم الكلام تبعاً للمعنى الذي يريد أخذه منها، انطلاقاً من تحليل الوضع والمصالح الخاصة. سنرى هذه النقطة في الفصل القادم.
طبعاً، نفس اللغة، المتحدة أصلاً تقدر أن تنوع، أن تبدل قليلاً أو كثيراً، في قاموسها، صرفها، حسب الظروف الجغرافية، التجارية، التاريخية، الدينية وتجاورها مع الشعوب الأخرى، لكن الأساس، أن تدوم الجذور الأصلية وتبقى. لا أحد يقدر أن ينكر أثر الجغرافيا أو البيئة على اللغة. وانبثاق لهجات إقليمية من اللغة – الأم أمر معروف (مثلاً اللهجات الجرمانية في ألمانيا)، وتتبدل هذه اللهجات تبعاً للتضاريس والبيئة (سهول، جبال، مناطق بدائية، مناطق محصورة...) صياد يعيش في غابة جبلية لا يتكلم مثل فلاح يعيش في سهول وليس له ذات المفردات المعبرة (يستعمل الصياد كلمات نوعية من مهنته، يجهلها الفلاح، والعكس صحيح( ).
وغالباً، لا تختلف هذه اللهجات فيما بينها إلا بلفظ بعض الأصوات والنبرات، المتداولة في إقليم معين (مثل اللغة الإسبانية المتداولة في كوبا، وأمريكا الجنوبية، أمر معروف جداً: ولا يمكن الحديث هنا عن الأثر اللغوي الخارجي لأن كل الأمريكيين – بداية السيبوني les siboneys أبيدوا منذ بدء الغزو الإسباني).

إنمـا وغالبـاً، تقـدر لهجـة أصـيلة، لأسـباب تاريخيـة، دينيـة و/أو سياسـية، التفوق على لهجات أخرى مجاورة وتصير هي نفسها اللغة – الأم (هذه هي حال اللغة العربية في الحجاز التي، بمجيء الإسلام، صارت اللغة الوحيدة للعرب وأزاحت كل اللهجات الأخرى من شبه الجزيرة وإرجائها إلى صف اللغات المحلية الضيقة، التي مع ذلك لم تختفِ) "بلسان عربي مبين" صدق الله العظيم. ١٩٥ – xxvi قرآن كريم.

يقول العالم اللغوي ب. بالاز( ):

"لقد رسخ علم الألسنية أن الحركة البليغة المعبّرة هي أصل اللغة، إذن الإنسان الذي يبدأ الكلام (تماماً كما الطفل) يحرك لسانهُ وشفتيهِ وعضلات وجههِ الأخرى ويديهِ. من وعاء الكلمة، نستقي أعماقاً أخرى ونوضح أموراً أكثر مما توضح الحركات. فالفعل والكتابة هما صلة مجتمع اليوم، وإن استبعدتْ هذه الصلة لاستحال أي تخطيط أو "تنظيم".

حتى لو استطاعت اللغة التنوع من قطر إلى آخر، كما رأينا، تبقى كل أحرف وشارات هذه اللغة، المترجمة إلى أصوات، كما هي. تسمى اللغة العربية غالباً لغة الضاد، تفخيم يخرج من قعر الحلق وليس له مشابه في أي لغة معروفة. وحرف R في اللغة الدانمركية (لغة اسكاندنافية) لا يشبه حرف R في اللغة الفرنسية أو ذات الحرف في اللغة الإيطالية (وكلها لغات لاتينية).

بمقارنة اللغات اللاتينية فيما بينها، يمكن التحقق أن توزيع بعض السمات الصائتة تختلف تبعاً للبلدان أو الأقاليم الجغرافية. هكذا مثلاً الحرف U (يلفظ U بالفرنسية، مثل U الألمانية، وهو غير موجود في البلدان اللاتينية الأخرى).

والحرف j غير موجود في إيطاليا والموجود في فرنسا، ويلفظ kh بالأسبانية – la jota – مثل ch بالألمانية: و Jules يلفظ باللاتينية Iuluis، وباللاتينية Giolio (مثل J بالإنكليزية)، وKhulio، وبالإسبانية (Julio).

ولقد خلقت دراسة اللغات علم اللغات. يبدأ هذا العلم في أوروبا مع ما يسمى اكتشاف الفرنسيين، والانكليز اللغة السنسكريتية. وطرح وجود لغة قريبة من الإغريقية واللاتينية في هذا البلد البعيد إشكالاً عويصاً على علماء نهاية القرن الثامن عشر م (الثاني عشر هـ). صدمت الالتزامات الأثنية أي (قرابة بين الأوربيين والهنود) بعضَ الشخصيات، الذين بالغوا حتى أنكروا اللغة السنسكريتية. ظن هؤلاء أن بعض نصوص هذه اللغة

ركبها الجهابزه البراهميون على النمط اليوناني واللاتيني. تبدو هذه القرابة أكثر قبولاً إذا اعتقدنا أنها ترجع إلى سحيق الدهور، فانطلاقاً منها كان يعم انحطاط مطبق.
إن اللغة، اللهجة، الحروف تترجم إلى خاطرة، حدس، فعل. والخاطرة، الحدس، الفعل التي لم تظهر بعد، ولم تولد بعد تكون في حالة آراء، مفاهيم شكلية. يسمح الكلام "بتنشئتها"، إحيائها و، بهذا، تحيا مع الزفير الخارج من الحلق. مثل الوليد الذي تتفق أول صرخة له مع بدء الحياة: يسمح هذا الصوت أو هذه الصرخة بالانتقال من الحياة الجنينية إلى الحياة المستقلة بإعطائها وظائف دورانية وتنفسية.
لقن الأنبياء الكتابات المقدسة بالكلمة (سميت الأديان الثلاثة الموحدة المعروفة بعلاقتها بالكلمة: التوراة (بالمعنى التعليمي، الشريعة)، الإنجيل (الكلمة الطيبة أو الحدث الجديد) والقرآن (بمعنى القراءة، الإلقاء)، والأوامر (بالمفهوم الديني أو الدنيوي) تنقل بالكلمة. والبركات، واللعنات والوصايا (وهي وفيرة في الكتب المقدسة)، منقولة بالكلمة.
الحياة حركة، وكل حركة ظاهرة اهتزازية. والحركة في العلاقات الاجتماعية (الفردية أو الجمعية)، كلها من شأن الاهتزازات. الاهتزازات التي نرسلها باللغة، بالكلم قد تكون "متعاطفة" مع اهتزازات متقابلة أو متباينة: أي في الحالة الأولى، الاهتزازات المرسلة والمفهومة لها نفس "طول الموجات"، والكلام المولد لهذه الاهتزازات الجيدة مفهومة ومقبولة (كرنّة موسيقية في الأذن): هذا هو التفاهم والوئام. وفي الحالة الثانية، ليست الاهتزازات في نفس "طول الموجات"، ثمة اهتزازات سيئة مرسلة أو مفهومة والكلام فهم أو رفض، يفهم بشكل سيء أو لم يستوعب (كرنة موسيقية ترن في الأذن بشكل مغلوط): هذا هو الخلاف أو النشاز.
كل الأصوات وكل الكلام يمكن أن يؤثر على المادة الحية أو غير الحية: تعرف التجربة من الصوت الذي ببعض التردد، يقدر أن يحطم وعاء كرستالياً.
يعطي علم الترقيم للأصواتِ والحروف، قيمة رقمية أو عددية وهكذا يمكن أن نعرف ما هي الأصوات الطيبة والسيئة. ابن خلدون في "خطاب في التاريخ العام" يتكلم عن "الصوفيين المتطرفين الذين يظنون أن الكلام يحيي الطبيعة وسر الحروف و، بدوره، يحيي في المخلوقات". ويذكر ابن خلدون الكاتب البني al- buni (من القرن السابع الهجري)، الذي يكتب: "أعرف أن أسرار الله وأغراض علمه، الوقائع السامية والوقائع الكثيفة،

الأشياء السماوية والأشياء الأرضية، هي من عينتين: ثمة الأعداد، وثمة الحروف. أسرار الحروف هي في الأعداد وتجليات الأعداد هي الحروف. الأعداد هي الحقائق السماوية، تنسب إلى الكينونات الروحية وتعزى الحروف إلى دائرة الواقعات المادية والصيرورة".

ويدعي كتاب آخرون أن سر فعل الحروف يكمن في علاقتها العددية، ويقسمون الحروف إلى أربع مجموعات، تطابق أربعة عناصر: نار، هواء، تراب وماء. ويعطينا ابن خلدون مطابقة الحروف – الأعداد

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠
أ	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل
٤٠	٥٠		٦٠	٧٠		٨٠		٩٠	١٠٠		٢٠٠
م	ن		س	ع		ف		ص	ق		ر
								٣٠٠	٤٠٠		٥٠٠
								ش	ت		ث

إن اللغة، كما يشير بعض الكتاب، يمكن أن تكون أحلى من العسل أو ضربة ساطور.

الفصل الثاني

سلطة الكلمات

(إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) صدق الله العظيم

قرآن كريم 40 – XVI

الكلمة، المؤلفة من صوت أو مجموعة أصوات، هي جملة اهتزازات. تنقل بواسطة عضو السمع إلى الدماغ، تسمع، تسجل، تصنف وتترجم، ولكي تترجم. هذه الكلمة بالضبط إلى خاطرة أو فكرة، يجب بداية أن تكون كل أعضاء السمع والنقل (الأذن والدماغ) سليمة، ثم الاستيعاب أو الذكاء (أو السمع، لكي يكون معنى هذه الكلمة محدد جيداً، ومكرساً للتداول. "وقد برهن علم النفس وفقه اللغة أن أحاسيسنا وأفكارنا محددة منذ انطلاق إمكانية التعبير عنها. ونحن نعرف أيضاً أن المفاهيم والمشاعر تخلق كلمات، وبالمقابل أيضاً، تولد الكلمات مفاهيم وتوقظ مشاعر"( ).

بعامة، يوائم تداول كلمة معناها المقبول عادة من الجميع، إنما يحدث أن تغير هذه الكلمة معناها بعد أن يستعملها لفترة طويلة كتّاب مشهورين وسياسيون لامعون وتصير مفهومة بمعنى مغاير لمعناها السابق بداية.

"يغيرون حقيقتك إلى أكاذيب ويتداولون ويستخدمون المخلوق وليس الخالق"( ). وقد وسم بعضُ الكتّاب، بعضَ الصحافيين العرب أحياناً بمعادين للسامية!

"أنا لا أتهم الكلمات، كأوعية ثمينة ومختارة، بل الخمرة الخطأ التي صبها فيها أساتذة سكارى"( ).

هنا تأتي أهمية اللغة (مكتوبة أو منظومة) في تربية الطفل، في وعي الإنسان للقضايا والإشكالات اليومية، في النضوج واللباقة الذهنيين. لما تمسك كلمة (أو جملة) فكرة ما، تقدم سلسلة من التركيبات المعقدة "الآلية" التي تستنفر خلايا الدماغ العصبية: هذه كلمة مسموعة، محللة، مقننّة ثم مترجمة وتعمل الفكرة في الحال. لتحرير الجواب (إذا كان ثمة جواب) أو تخزين الإعلام (إما كتابة، أو كتابة واستظهاراً). هكذا توظف اللهجات، وتنتقل اللغات.

في الجغرافيا، كل العالم موافق على وجود أربع جهات أساسية: شمال، شرق، جنوب، غرب. ويعرف كل منا أن الأرض مقسومة إلى قطبين: النصف الشمالي شمال القطب والنصف الجنوبي جنوب القطب. نسمع كثيراً عن حوار الشمال – الجنوب، في الاقتصاد وفي السياسة. هل هذا الحوار صحيح بالمعنى الجغرافي، وإذن أثمة حوار دول النصف الشمالي،

وبلدان النصف الجنوبي، وبالمعنى الاقتصادي والسياسي؟ في هذا الحال، ليس للأمر أي معنى، لأن بعض البلدان من الجنوب تقع أكثر شمالاً من بعض البلدان الشمالية وهكذا دواليك.
ماذا يعني هذا التصنيف؟ فيما يخص الشمال والجنوب، المعلم محدد بخط قطبي. وفيما يخص الشرق والغرب؟ طالب ابتدائي يعرف أن الشمس تسطع من الشرق وتغيب في الغرب. لكن هذا الفتى يعرف أيضاً أن الشمس لا تغيب أبداً وأنها تضيء الأرض باستمرار. إذن ليس ثمة شرق ولا غرب، عدا من يظن أنه في مركز الأرض وأن هذه الأرض ثابتة.... وبالنسبة لليابان والصين، الشرق هو أمريكا. وبالنسبة لأفريقيا وأوروبا، الغرب هو أمريكا. "صحيح من جانب جبال البرينيه خطأ على فيما يخص ما وراء البرينيه".
فالشرق والغرب ليسا إذن سوى مفاهيم جغرافية نسبية، إلا إذا لم نقصد أروبا الوسطى وأن أروبا (شرقية غربية!) هي مركز عالم جامد وبلا حياة. في الاقتصاد وفي السياسة، يحكي البعض (غير المعنيين) وآخرون (معنيون) عن عالم ثالث. ولا أحد يذكر عالم رابع. ماذا يعني هذا؟ هل مفهوم العالم الثالث مطابق لمفهوم الدول – الثالثة، (منذ نهاية القرن الثامن عشر ميلادي - الثاني عشري هجري) في فرنسا؟ يعني هذا أن البلدان المسماة عالماً ثالثاً غير شريفة ولا متدينة، وأن البلدان المسماة عالماً أولاً وثانياً (ما هو العالم – الثاني، بالمناسبة؟) شريفة و/أو نعرف دينها، هذا ما يجب البرهان عليه في الحالة الأولى والثانية أيضاً. هل مفهوم العالم الثالث يأخذ بالحسبان غنى كل بلد في العالم، أو تصنيع هذه البلدان؟ نحن نرى أن هذا خطأ بالنسبة لبعض البلدان الأغنى، والأكثر تصنيعاً من بلدان أخرى، وغير مصنفة (من قبل من؟) في البلدان المسماة عالماً – ثالثاً. إنما لم يقل لنا أيُّ غنى مقصود هنا: ثمة غنى بالناس، بالثقافة، بالتاريخ، والغنى الديني.... وبهذا المعنى، البلدان المسماة العالم الثالث ليست أكثر ضيقاً وبؤساً. نذكر ببساطة، كمثل شهير، أن الأدب الأروبي لم يظهر إلا بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري)، بينما وصل الأدب العربي إلى الأوج في القرن العاشر/ الحادي عشر الميلادي (الرابع / الخامس الهجري) في عدة أجناس (النثر، الشعر، الفلسفة، العلوم الدينية، التاريخ، الجغرافيا، العلوم الدنيوية كالكيمياء، الجبر، الطب، الخ...) إذن قبل أن يرى الأدب الأروبي النور (إذا استثنينا الأغاني الجوالة والقصائد الملحمية الإقليمية).

فقط الأدبان اليوناني واللاتيني (من اللغتين المهجورتين الآن والمسماة لغات ميتة) كانا معروفين في أوربا، قبل الميلاد بقرون معدودة، بينما ترجع نصوص سومرية (بالكتابة المسمارية) إلى خمسة آلاف عام ق. م.
وعرف ورق البردى المصري بأربعة آلاف أوخمسمائة سنة ق. م. ومخطوطات على الخشب الصيني بثلاثة آلاف عام ق. م. وتلقى معلقات الشعر العربي على الناس في مسابقات الشعر في كل عام، قبل العصر المسيحي بقرون، سميت هكذا لأن بعضها كان متفوقاً فيعلق في الكعبة ومكة، إكراماً لأفحل الشعراء.
في كل حال، من الزيغان والانحراف محاولة تصنيف البلدان بحسب الحجم (أياً كان)، لأن كل بلد، كل شعب ساهم في الأسس المشتركة للجنس البشري، والتراث العام. فلسنا في ألعاب أولمبية، حيث يصعد الأسرع، الأقوى إلى المنصة. ومع هذا، في كل عام ثمة ظاهرة التناوب (وهنا أيضاً، يمكن الثرثرة حتى الشبع، كحال برلين في الألعاب الأولمبية ١٩٣٥/١٩٣٦ هـ. مع جيمّي أوينس وهتلر!).
ما دمنا نتكلم عن ج. أوينس، كيف يُنعت مواطنوه؟ هم يصفون أنفسهم أمريكان. إنما يسمون بلدهم أمريكا شادّين في إثرهم عدداًً من الأجانب بهذه التسمية؟ التلميذ،
يتعلم في الابتدائي أن أمريكا قارة وليست بلداً. أمريكا توجد في كندا، في تشيلي، في البيرو... لقد اختفى وراء هذه التسمية، منذ مونرو (أمريكا للأمريكان)( )، فكرة الهيمنة العسكرية، السياسية، الاقتصادية والثقافية على بلدان أخرى من القارة. يعني هذا أن يقال أن ما تبقى من القارة هو منطقة محمية للولايات المتحدة الأمريكية وأن الأروبيين في أمريكا كانوا ضمانة للنظام الجديد "الأمريكي". مع إنكار على كل أمريكي من أصل أفريقي أي فكرة مساواة أو اشتراك بالسلطة.
بالفعل، بدأ هذا منذ خمسة قرون، مع محاولة حرمان الأمريكان الحقيقيين أي فكرة انتساب للتراب الوطني.
شُبهوا بالهنود، لكن هذه التسمية الخاطئة بداية، لم تصحح أبداً. وفي القرن العشرين الميلادي (الخامس عشر الهجري)، أُلبسوا أيضاً هذا الاسم الذي يشرفهم، آخذين بالحسبان الحضارة الهندية الرائعة، وهذا غلط. أو بالأصح، سمّوا هنوداً، ليدلوا، بعد قتل الأمريكان وإذابتهم أن الهنود الفعليين (سكان الهند) ليسوا ورثة إحدى أهم حضارات العالم وأقدمها،

بقصد التعمية. وكما يقول المثل العربي "اصطياد عصفورين بحجر واحد".
إن للأمريكان ورثة حضارة تعود لألوف السنين، أبادهم المستعمرون الانكلو- سكسون، ثم من تبقى، زربوا في حظائر وشتت تراثهم الثقافي واللغوي. وسرق المستعمرون الأسبان المسيحيون ثروات الأمريكان، قتلوا أعداداً هائلة منهم وحاولوا محو هويتهم الثقافية واللغوية لكن عبثاً( ).
واليوم، رسخت مطرقة الصحافيين الكتّاب (حتى الجامعيين)، والساسة، وسواهم هذه التسميات في أذهان الناس و، لا أحد (تقريباً) يعارضها. هكذا، يحكى عن الأمرانديان Amerindiens، والأنرو – أمريكان، إنما لا يحكى عن أورو – أمريكان! وتداول الكلمات التي حرف معناها، وشوّه مغزاها، أمر خطير في زماننا، ليكون دور وسائل الإعلام، أن يتلقى كل منا الخبر وعليه أن يفهمه. إنما إن كان ثمة مستويان أو مستويات من القراء، كل يتلقى ويفهم المعلومة حسب البلد الذي عاش فيه، حسب مستواه الثقافي، مستواه الاجتماعية – الاقتصادي، الخ... وهنا يبدأ التنافر، التحريف، عدم التفاهم بين الناس، والمجتمعات، والدول. لم تعد قواعد اللعبة محترمة، وكل منا، وقد فهم هذه القواعد حسب رغبته، وكواحد من المجموع، يحاول تحقيق النصر.
وما يعني النصر لواحد، يعني الهزيمة لآخر. يتم الأمر كما لو أريد دوماً وأبداً تمهيد مجال من المجابهة (المادية وحتى الفلسفية) بين المجتمعات، وأن ثمة دوماً وأبداً رابحاً وخاسراً. وقد نسينا ببساطة أن الإنسان ولو تعدد (أصابع يده الواحدة غير متشابهة، كما يقول المثل)، أخلاقه واحدة.
دعونا في أمريكا: نسمع كثيراً تعبير أمريكا اللاتينية، أي البلدان الواقعة جنوب ريوغراند Rio grande. تتكلم هذه البلدان التي استعمرتها اسبانيا الكاثوليكية اللغة الإسبانية كلغة رسمية (البرتغالية في البرازيل فقط) وتبنى عدد ضخم من الناس الديانة المسيحية (المذهب الكاثوليكي). هل يكفي هذا لتسميتهم لاتين؟
إن تكلم جمهور عريض من هؤلاء الأمريكان الأسبانية (أم البرتغالية)، ثمة قلة ذات شأن لا تتكلمها أولا تفهمها. ولا يكفي التكلم بالإسبانية "ليدمغ" المتكلم باللاتيني. نحن نعرف أن اللاتين هم قبل كل شيء من أثنية أخذت أصولها من إيطاليا، مسرح اللغة اللاتينية. كانت هجرة الأسباني إلى أمريكا، بالتأكيد، هامة. لكن عددهم، القليل بالنسبة للعمق البشري الأمريكي، جعلهم يختلطون ويذوبون في السكان الأصليين وقد بقيت

عائلات منهم على أسبانيتهم، من حيث العادات والأعراف. وهنا أيضاً، ثمة طريقة للنقاش. فما هي آنئذ العادات والفكر الأسباني في نهاية القرن الخامس عشر ب. م. (التاسع الهجري) وبداية القرن السادس عشر (العاشر الهجري)، واللاتينية في شبه الجزيرة الايبرية في ذلك العهد، بعد ثمانية قرون من وجود الحضارة العربية المسلمة في أوسع أمصار شبه الجزيرة هذه؟

إذا نشر عدد كبير من هؤلاء الأمريكان الدين المسيحي، بقي الكثير لم يتبنوا هذا الدين. وليس كافياً أن تكون كاثوليكياً "التدمغ باللاتينية".

القديس أوغستين من أرومة جزائرية، لم يكن لاتينياً لكنه ساهم (وأي مساهمة!) بالدين المسيحي. هل الدين المسيحي لاتيني، أصلاً؟ نعرف أن لا، أخذ هذا الدين مصدره من فلسطين ثم تطور إلى كنيستين منفصلتين، بل متزاحمتين: الكنيسة البيزنطية والكنيسة الرومانية. فضلاً عن الكنيسة القبطية في مصر( ) التي سبقت الكنيستين المذكورتين أعلاه.

من كل ما تقدم، يمكننا القول إن مصطلح أمريكا اللاتينية خاطىء ولا يعبر عن الواقعات الاجتماعية، اللغوية، الدينية والأثنية لتلك الأقطار. لا أحد، أراد بهذه التسمية، إن يوحي أن القارة الأمريكية كانت أصلاً أرضاً عذراء، بلا شعوب، وأن سكانها كانوا قوماً رحّلاً، من دون أرومة، من دون دين ولا حضارة. بل هذا هو خطاب كل مستعمر عندما يبغي امتلاك أرض، إقليم أو يسرق خيراته الطبيعية، أو يجيب على "تبرير" توسع أرضي أو عرقي (كاستعمار تشكوسلوفيكية من قبل هتلر، في خريف ١٩٣٨/١٣٥٧ هـ)( ).

في هذا المجال المحدد للحرب العالمية الثانية، يمكن الإشارة إلى مقالة للعالم الدبلوماسي (S.H.) في تموز ١٩٩٧ (١٤١٨هـ)، بعنوان "تزوير في التلفزيون" يبدأ هكذا: "بين برلين وموسكو، الأوضاع قابلة للتبدل. من الطرفين، تخترع الدعاية، المتنقلة والدائمة". ثم يستخدم الكاتب لوصف صفحة التاريخ هذه "طريق التعمية، مثلثة الاختبار. ويتدخل التلفاز الفرنسي ليقول: طيلة ثلاثة أسابيع، قدمت مراجعة تاريخية شاملة. أفاد منها المشاهدون. ويضيف: "إلى حد عدم معرفة أين يبدأ الدحض" وينتقل إلى "عبثية هذا البرنامج... ويلح فيما بعد على "الصعوبة المضاعفة التي تعترض الجهابذة عند تمرير أطروحتهم..." و "قد عولجت العقبة الثانية بكذب موصوف". ويخلص: "هل قصد التوثيق الفرنسي سوى الدعاية؟".

إن هذا التوثيق الفرنسي نقطة ماء في محيط تزوير التاريخ. يلتصق

التوصيف الوارد في المقالة كدعاية، خلط، إختبار، بلاهات، تمرير "طرحهم"، الكذب، الخ... يلتصق بحق بالفعل، فيما يخص كتب التاريخ (التاريخ بمداه الأوسع) والمجلات المتخصصة، والجرائد التي كتبها أروبيون منذ قرون في التاريخ لغير - الأروبيين. سنعالج هذه الموضوعة في القسم الثاني من هذا الكتاب.

محمد السهلي، كاتب جزائري معاصر، تحدث عن ضرورة إبعاد الاستعمار عن التاريخ. أما نحن، نتحدث ليس فقط عن استبعاد المستعمرين، بل عن إبعاد الأسطورة.

تتحدث كتب التاريخ الأروبية أو الناطقة بلسان الأروبيين عن اكتشاف أمريكا على يد كرستوف كولومبس في العام ١٤٩٢ (٨٩٦ هـ)، كما لو أن المكتشف جزيرة، انبعثت فجأة في المحيط على إثر نازلة طبيعية، وليس عن قارة تمتد من القطب الشمالي حتى العاصفة الهادرة الخمسين. تماماً كما لو أن صحافة حالية تخلق حدثاً، أرادت كتب التاريخ هذه خلق (أي توليد) بلدان، قارات، شاطبين كل ما فيها: من شعوب، أديان، فلسفات، مجتمعات، فنون، وحرفيين. لكن بعض المستعمرين، الأكثر استنارة، واطلاعاً قد أفادوا من التراث ودرسوا واستوعبوا الخبرات والنصوص القديمة (المكتوبة أو المروية)، ونسبوا بالتالي لأنفسهم أو زوروا المصادر. لكن هؤلاء المستعمرين أهملوا وخبأوا كثيراً من النصوص، التي لم تكن في مجال عملهم أو تتجاوز إدراكهم. هل عرف التفتيش التعسفي الاسباني أو أراد أن يعرف مضمون الكتب التي أحرقها؟ بالفعل، أن ادعاء اكتشاف أمريكا على يد أروبا كما قدم يومئذ، (وحتى فيما بعد) جهل مبين.

إن ادعاء أروبا المركزية الحديثة اكتشاف الهند، الصين، أمريكا يعني عندهم أن اكتشاف بلد، أو قارة، أشبه ببعث هذا البلد أو القارة من الهالات، من العدم!

فعلاً، الطفل الذي لم يدخل مدرسة، يكتشف، عند الرشد، أن جيرانه اكتشفها الترتيب الأبجدي العظيم، والأوابد الثقافية والاجتماعية....

أن تدرس، تحلل، تحاول أن تفهم الحضارات الرائعة التي غيبتها ظلمات الأيام، خير من أن تعتم عليها، تشوهها، تدنيها. نعم لحرية التعبير، لا للكذب.

هل حاولنا دراسة الحضارة الاسترالية، عاداتها، لغاتها؟ الباحثون في هذا المضمار( ) (وهم قليلون جداً) يتحدثون عن طب طبيعي، قوى تحريك عن بعد (بواسطة الروح، ممارسة التخاطر، وغيرها... لدى الاستراليين. هل

أهملنا، تجاهلنا هذه الشعوب، ربما لأنهم لا يضعون ربطات عنق، ولأن شعرهم أجعد، وأنوفهم فطساء أو لأن بلادهم تخفي في باطنها ثروات طائلة؟ وهنا، نصل إلى ملتقى الفكر البشري: أنريد فكراً بشرياً "مادياً" متجهاً إلى المادة. يقوده الدرهم أم نريد فكراً إنسانياً روحياً، متجهاً نحو مساواة الفكر البشري في الحقوق والواجبات، والعدالة الاجتماعية، واحترام الغير ويرشدها الشرف الثقافي والأخلاقي؟

بعد أن حلقنا في فضاء أمريكا واستراليا، نعبر إلى آسيا. في هذه القارة، رأينا الأقاليم التي استعمرتها فرنسا سابقاً، بعد أن ضمتها سموها أسماً التعبير الملتبس "الهند – الصينية". في هذا التعبير، نجمل إقليمين، الهند والصين، لكن ما هي علاقاتها الثقافية، الاثنية، اللغوية مع كمبوديا، لاوس، فيتنام؟ وما هي العناصر الثقافية، الأثنية واللغوية التي تربط هذه البلدان الثلاثة؟ المستعمر الفرنسي وحدهُ العنصر المشترك. في جنوب آسيا، كل الأرخبيل – الفلبين – غزته واستعمرته أسبانيا، في القرن السادس عشر (العاشر الهجري)، ونال استقلاله في ١٩٤٦ (١٣٦٥هـ) لكنه حافظ على الاسم المشتق من اسم أحد ملوك اسبانيا المسيحية للقرن السادس عشر( ) (العاشر الهجري).

من جهة، قسمت نفس الأثنية المشتركة بلغتها، تاريخها ودينها، ومن جهة ثانية دمجت اثنيات وشعوب مختلفة. يفضل أي سلب الأرض، نهب الموارد البشرية، الثقافية والمواد الأولية، والتأقلم العام مع النسيج الثقافي المحيط.

في أوروبا الوسطى، يأتينا المثل الأحدث للتلاعب بالكلمات من بوسني – هرزغوفين، حيث لا يذكر الشعب البوسني باسمه بل ينعت بدينه.

حدث هذا بعد تقطيع جمهورية يوغسلافيا الفدرالية، في إثناء الحرب الصربية – الكرواتية – البوسنية. لن نعالج هنا ما وراء هذه الحرب( ).

نريد أن نتكلم فقط عن التسمية: من جهة، الصربيون، الكروات، من جهة أخرى، المسلمون. يلقن الطفل في المدرسة تعذر خلط النعاج بالثيران، البندورة بالبرتقال لأن الأنواع ذاتها فقط يمكن أن تكون موضوع العملية الحسابية( ).

يستخدم التركيب الفرنسي مصطلح: "عاملوا الناس حسب مقامهم" أولا تستخدم الممسحة عوض البشكير. في الحديث عن الصرب، الكروات، نرجع إلى بلدهم أو أرضهم وعن المسلمين الرجوع إلى دينهم. ولتصحيح الأمر، يجب الحديث عن مسيحيين ارثوذكس، شيوعيين، ملحدين...

ومسلمين أو عن صرب، كروات وبوسنيين. ففي الحديث عن مسلمين وليس عن بوسنيين، نكون كمن يغرز نجماً أصفر على صدار شعب معين، بتمييز الشعوب المتجاورة باللون، وإرساء في لا وعي الرأي العام، ليس الدولي إنما الأروبي، وجود دين "غير مناسب" أو غير مرغوب فيه. أهذا انتقام بعد زوال الإمبراطورية العثمانية التي أرعبت أروبا؟ أهذا إحياء لـ سان – بارتلمي؟ إشارة على مواكبة العصر أم على الجهل؟

على هذا، في البلدان الأروبية المسماة لا – دينية، لا يؤخذ بالحسبان عند الانتساب الديني.

لنقفل هذه الدورة السريعة على العالم اسمحوا لنا أن نفتح هلالين حول أفريقيا الجنوبية العنصرية، التي تشكل الشطر الآخر البارز من الجبل الجليدي. من جهة، الشطر البارز من الجبل الجليدي (الذي يشكل تسع اعشار هذا الجبل الجليدي) المتمثل بالأوضاع الاستدلالية التي آخذنا منها بعض الأمثلة. يأخذ هذا الشطر الغاطس، غير المرئي إذن، منظراً جانبياً منخفضاً، منعزلاً، مائعاً. مثل مسرحية من المسرح الياباني – المسرح NO – يلعب فيه البطل عدة أدوار، إنما يتقنع في كل دور بقناع يلائمه. المشاهدون سلبيون ويتبعون الحدث الذي يدور حول مشهد بعيداً عنهم، وهم يحتسون الشاي وتسترد القوى (بالغذاء).

ومن جهة أخرى، الشطر المرئي من الجبل الجليدي، المتمثل بوضع نموذجي "فلسفة" التمييز العنصري الموحى بها من قبل الأروبيين – في جنوب أفريقيا. يقول هؤلاء باختصار: "نحن سادة وأصحاب هذا البلد، وسكانه الذين لا يتمتعون بالأصل (الأروبي) أو البشرة (البيضاء) مثلنا، هم عبيدنا، خدمنا، هم خاضعون للضرائب وللسخرية من دون رحمة. لنا عليهم حق الحياة والموت، عليهم أن يعيشوا في عزلة، أن يسكنوا في عزلة، ويكبروا معزولين، الخ...".

وبكلمة، اعتبرت العرقية النهج الاجتماعي والسياسي، وأعلنت رسمياً بصراحة ومباشرة. وبلا تزويق ولا حذر. كان هذا النهج بارداً وغليظاً كجبال الجليد التي تصل، في الشتاء، من آفاق رأس الرجاء الصالح البعيدة.

هل كان الأروبيون – الأفريقيون غير واعين ذهنياً، أو عميان سياسياً لممارسة هذا النهج؟ أو كانوا واعين قوتهم العسكرية والأمنية ضد شعوب عزلاء، ومتأكدين من قوتهم الاقتصادية (النابعة من الغنى الضخم بالمواد الأولية في تربة وباطن هذا البلد) لأن لا يتحملوا ضغط البلدان الأخرى في

أوروبا، الذين يتنصلون من رؤوس شفاههم، ليس من النهج نفسه، بل من الطريقة التي اضطلعوا بها.
في هذا النهج، لا تلبس الكفوف، ثقة منهم بالحصانة الجسدية والمادية. منذ أن تم الغزو واستقر، كان كل ما يبهج ويريح، لم الاضطراب والقلق إذن؟ ليس من قبيل الصدفة أن ينضج غاندي مشروع تحرير الهند من الاستعمار البريطاني، في أفريقيا الجنوبية حيث كان يعيش ويمارس مهنة المحاماة، لقد وعى هذا الألمعي وجهي الاستعمار (الأروبي – الإفريقي والبريطاني) وبهذا أربك الأجهزة الحكومية. ثم فرض حلّهُ العقلي وغير العنفي، الجدير بتراث الفلسفة والحكمة الذي نهله من جدوده السالفين.
في الاقتصاد، دوماً في استخدام بعض التعابير القابلة للنقاش، يسمع كثير من الكلام في ١٩٩٧ (١٤١٨ هـ)، عن العولمة. إنه تعبير العصر الذي لا يعني شيئاً. إلا إذا أريد له أن يقول، كما يحدده الكتّاب أو الممارسون اعتباره تعميم النمط الليبرالي أي ليس ثمة نظرية اقتصادية يجب دراستها من وجهة النظر العامة، كالنظريات الاقتصادية الأخرى، بل نظرية واحدة يجب ممارستها في كل البلدان، شاءت أم أبت، لديها سبل غيرها أم لا. يشبه هذا التعبير كثيراً تعبير التوحيد، أي على كل الاقتصاديين، في كل البلدان تبني اقتصاد وحيد النموذج إن إتجهت هذه البلدان نحو الزراعة، نحو الصناعة السياحية أو نحو الصيد، وماذا أعرف أيضاً؟
كوني لست اقتصادياً، أكتفي بطرح بعض الأسئلة ذات المعنى الفلاحي: بداية، ما هو الاقتصاد الليبرالي؟ أليس كل اقتصاد ليبرالي؟ ربحاً مالياً أو مادياً (أو غير خاسر) كلها واعية وتفكر بحرية، وهي للدولة موجهة، أو خاصة أو مختلطة. يدفعنا هذا إلى التفكير بالمهن الليبرالية، وغير الليبرالية إلا بالاسم.
السؤال الثاني: ما هو اقتصاد السوق؟ بتحليل هذا المصطلح، بقدح الذهن، لن نصل إلى تعريفه، انطلاقاً من الكلمتين اللتين تشكلانه. وهنا تبرز كياسة عناصر الكلمات التي تقوّل كلمة أو مصطلحاً ما تبغي أن يقول. وبالعادة أو التعوّد، نصل إلى استخدام هذه الكلمات أو هذه المصطلحات آلياً، دون قياس الأهمية أو الشدة. لم يثق بعض الساسة الأروبيون المتخصصون بالعولمة أو بشمولية الاقتصاد العالمي، وتحدث هؤلاء بهذا الخصوص عن اقتصاد "لا – إنساني".
وفي الإطار الديني، يدور لغط كثير عن الأسلمة ويخلط بعض الكتاب بينها وبين الإسلام. ما يعني تعبير الأسلمة؟

أستخدمت بعض الصحف بكثرة هذه اللاحقة isme بمعنى مذهب فلسفي – ديني يشمل كل شرح، كل ظاهرة، كل انضواء تحت خيمة الإسلام... بينما يعطيه معجم لاروس معنى مختصراً وجلياً: "مذهب الإسلام". يبدو الأمر كما لو أريد أن نلصق بالإسلام، الدين التوحيدي، كل تجاوز، كل ضلال، اجترحهُ مسلمون، أو اعتبروا مسلمين.
وتتهم بالأسلمة كل ملاحظة أو ممارسة للشريعة القرآنية لا تنطبق على آراء ومفهومات الناس غير المسلمين، متدينين كانوا أو علمانيين.
نحن إذن أمام أنزلاق دلالي ليس فجائياً وليس لا – إرادي. يريدون أن يحاكموا الدين في شموليته بأن ينسبوا له واقعات تافهة، كحمل الحجاب "الإسلامي"مثلاً. والصحافيون، والساسة، يفيضون بالكلام حول التأثير التبشيري لقطعة من النسيج على أروبا! لم نسمع أحداً يتحدث عن أي قانون في روسيا الملحدة منع الفلاحين من حمل الحجاب، ولا في أسبانيا الكاثوليكية...
يراد إدانة دين في شموليته بذكر أوضاع أو مواقف اجتماعية، تعدد الزوجات مثلاً. هل الأروبيون متعددو الزوجات وهم لا يعرفون؟ يسمح القرآن للرجل أن يتزوج أربع زيجات، في نفس الوقت ورسمياً بشرط قدرة الزوج على معاملتهن بالتساوي ويساعدهن بحشمة في تأمين حاجاتهن. لكن القرآن يقول إن هذا صعب (كتفضيل واحدة على الأخريات) وزوجة واحدة، في هذه الحال، مفضلة (قرآن III). في أروبا الزواج لمرة واحدة هو القاعدة (والطلاق ممنوع بأمر الكنيسة) لكن أهذا واقع؟ يتخذ الزوج، هنا، خليلة أو عدة خليلات، بمعرفة زوجته أو عدم معرفتها (وهذا هو الأغلب، والزوجة، تقلب الأشياء تماماً هي حرة أن تعشق على حواها، مع كل التبعات الاجتماعية، الفعلية والمرضية الناتجة عن هذا، ما هي قراءة هذه القاعدة؟ رسمياً، للرجل زوجة واحدة، وللمرأة زوج واحد، لا تعدد أزواج ولا تعدد زوجات. بالفعل، هذا هو إفلاس الزواج والأسرة، مع ما ينجم عنه من كذب، نفاق وانحلال المجتمع. في أرض الإسلام، تعدد الزوجات مسموح، الزنى ممنوع. في أروبا، (المتدينة أو العلمانية، تعدد الزوجات ممنوع والزنى مسموح( ) يصرح ايتيان دينيت، الرسام والكاتب بهذا الخصوص في مؤتمر عقد في باريس في ١٩٢٤ (١٣٤٣ هـ): "كل ما جنته المسيحية، هو عودة النفاق وقطف الثمرة المحرمة. أما وحدانية الزواج الوهمية، لها نتيجة إيجابية هي تطوير ثلاثة عيوب رهيبة: عزوبة أو عنوسة البنات، البغاء والخط العاثر الرهيب الناجم عن أبناء السفاح

للرجل المتزوج". ويمكن مضاعفة الأمثلة بانحراف دلالي لا ينتهي: نشر جديد لتفتيش تعسفي في أروبا العلمانية؟.
اختيار الكلام أساسي في حياة الإنسان الاجتماعية. في الدين الإسلامي، تأخذ الثقافة وسلطة الكلام كل مداها: الزواج مكرس فقط بقراءة الفاتحة (قرآن I) لا حاجة للمثول أمام السيد المختار وتوقيع الوثائق الخاصة به. تلاوة الآيات القرآنية (السورة الأولى) من القاضي تربط إلى الأبد كائنين برباط زواج مقدس، دون تدوين أي شيء، كذلك، الطلاق (أو الترك) يتم لدى ذكر الكلمات المعبرة عن إرادته بتفريقه عن زوجته حتى الماضي القريب، والمساومات التجارية والعقارية، في هذه المجتمعات، تتم شفوياً ولا يفكر أحد بعدم إرساء الكلمة المعطاة أو التزاماتها الشفاهية.
الكلام كما رأينا، هو حزمة الاهتزازات. والحروف والأصوات، هي اهتزازات. الكلام، بحد ذاته ملفوظ بشكل صحيح، له قوة قادرة. لفظ كلمة صحيحة يهيج سلسلة من الاهتزازات ويسمح بإيقاظ بعض المراكز الحيوية. كالصلاة في الأديان التوحيدية (لاسيما) في الإسلام): "تسمح الصلاة بتجنب الخطايا والأفعال السيئة" – "قرآن ٢٩-٤٤" أو في الدين البوذي، في تلاوة desmantsas: "من يردد Manesa بوعي وورع يبلغ طهارة الفكر".
يذكر القرآن ١٤-٢٤ امثولة "الكلمة الطيبة" المقارنة بـ "شجرة مقدسة" جذورها مغروسة جيداً وتصل أغصانها إلى السماء( ).

الفصل الثالث

علم البيئة، سينما وأخلاق

(أعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد... وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) صدق الله العظيم (قرآن: ٥٧ – ٢٠)

علم البيئة هو دراسة علاقات الكائنات الحية مع الوسط الطبيعي. منذ عدة سنوات تضاعفت منظمات غير حكومية بيئية (O.N.G) لاسيما في أوربا. دورها الدفاع عن المحيط، صيانة الأجناس الحيوانية (البرية والمائية)، الصراع ضد التلوث والصناعة الجامحة. بكلمة، تهدف هذه التنظيمات إقامة علاقات متوازنة ومنسجمة بين الإنسان والطبيعة. اشتهرت هذه الرابطات بمعركتها الضارية ضد أوضاع حكومية ضارة بالمحيط، بصحة الممالك (البشرية والحيوانية) وحتى بمصير الإنسان على الأرض.

اتخذوا لهم في الغالب بيوتاً مستقرة، أسسوا مكاتب ووظفوا ملاكات في أرجاء الأرض الأربعة، وامتلكوا مراكب بحث ورقابة، مختبرات تحليل... وملحقين صحافيين.

منذ بعض الوقت، مُثّلوا في البرلمان الأوروبي وهم قوة سياسية لا حدود لها (إلى درجة معينة) – في بلدان أوروبا – وصوتهم مسموع. وربما مقبول والصحافة، ببعض الاهتمام، وأحياناً بحماس، والحكومات بلا ثقة، أحياناً، تتابع أعمالهم، تصرفاتهم وتصريحاتهم. وأبناء بلداتهم ومدنهم، ومواطنوهم، والمتعاطفون معهم في العالم، يشجعونهم ويؤكدون دعمهم الدائم، حتى هنا، الأمر طبيعي.

نبهت هذه المنظمات البيئية العالم قاطبة إلى النتائج المأساوية على البشرية، التي تبثها التجارب الذرية، كاختفاء أنواع حيوانية ونباتية وفتحة الأوزون( )، وظاهرات تآكل التربة والتصحرّ، والتخزين المتوحش للبقايا المشعة، والتلوث النهري والبحري نتيجة التصنيع الفوضوي، وغير ذلك.

يعاركون لإثارة حماس كل الناس، بداية لأنهم أمام معركة غير متكافئة تبرز شخصيات أو رابطات في وجه الحكومات، والدول: إناء من فخار ضد إناء من حديد. ثم، لأن هذه المعركة تدل إلى مدى الأخطار المحيقة بالجنس البشري، بالفصائل الحيوانية والنباتية، بالطبيعة، وبمستقبل الكل. إنها معركة لصون الحياة، الصحة، المستقبل على الأرض، إنها معركة الحضارة المتصارعة مع الفوضى بكل سعتها.

لكن حسب رأينا المتواضع، أدوار وأهداف هذه التنظيمات غير كافية وغير تامة. من جانب يهتمون بالدفاع عن المحيط الفيزيائي، ومن جهة ثانية، بالدفاع عن المحيط المعنوي الخلقي.
تعرّف الحضارة أو المدنية كمجموعة من الصفات الخاصة بالحياة الذهنية، الفنية، الخلقية والمادية في بلد أو مجتمع، ولا يجوز إهمال أحد عناصر هذا المجمل حتى لو مثلث العناصر الأخرى أو تطورت. هكذا، حسب فهمنا وتقديرنا، العنصر المعنوي الخُلقي في أي حضارة هو الأهم: يفضل على العنصر المادي، الفني أو حتى الذهني. فكل الأديان المعروفة وغير المعروفة، والمعتقدات أوصت بل طالبت الإنسان أن يتحلى بفضائل خلقية معنوية( ) احترام حياة الغير، الإيثار، الصبر، الحشمة، الشرف... وتبجل الكتب المقدسة هذه القيم، وتناهض الخروقات.
في حديث له، يصرح النبي محمد (ص): "أفعل كل ما يحلو لك، إذا كنت غير محتشم".
آدم وحواء، المطرودان من جنة الخلد، يكتشفان عريهما ويستتران بأوراق الكرمة. لعن قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل( ) مدينتا صادوم وعموره أبيدتا، الطوفان حدث بعد انتهاك الناس هذه الفضائل الخلقية. مُدح يوسف لتصديه لامتحان الجسد. زرادشت يعلم تلاميذه الخير، وبوذا يوصي باحترام الفضائل الخلقية، الخ...
يدور الحديث عن حضارة صناعية في دوائر معينة بقصد الإشارة إلى تطور بعض الصناعات. لكن هذا المصطلح يتضمن المعنى الحضاري ذاته لأنه يلاصق الصفة الصناعية. هذا يعني أن من يستخدم هذا المصطلح يعي عدم كفاية هذا التصنيع الذي انطلق على حساب المعايير الأخرى: المعنوية، الثقافية، والإنسانية.
يعكس فيلم شارلي شابلن "الزمن الحديث" جيداً هذا الشكل "الآلي" للإنسان، الذي فقد الفكر والروح. والمجتمعات الأوروبية تعيش هذا أيضاً، وهي تمارس الهرب إلى الأمام، وتعاني قضايا سوء الحياة (يدور الحديث عن "أمراض السعادة") مرتبطة بآلية قوية، وعن انخفاض نوعي في التدين، وعن فقدان التوازن النفسي – العاطفي الشامل.
والقديس أوغستان، بخصوص السعادة يعلن( ): "السعادة، أليست هي ما يتطلع إليها الجميع ولا يستهين بها أحد؟ أين إذن عرفوها ليتمنوها إلى هذا الحد؟ أين رأوها ليحبوها؟ بالتأكيد، هي فينا: كيف؟ لا أعرف. ثمة سبيل لتكون حراً يكمن في استحواذ فعلي للسعادة. والبعض ليس سعيداً إلا

بالأمل". و "يضيف: أن السعادة تكمن في الغبطة النابعة من الحقيقة. وهذه الغبطة، هي الغبطة التي تولد منكم، التي هي الحقيقة ذاتها. آه ربي، نوّرني، أنقذني....

إنما لمَ "تخلق الحقيقة الكره؟"( ) لمَ ينظر الناس كعدوّ إلى ذلك الذي يكرز بها باسمك، بينما تُحب الحقيقة التي ليست شيئاً آخر سوى الحقيقة؟.... يكرهون بحبهم أن يخدعوا ما يعتبرونهُ حقيقة. يحبون النور عندما يضيء، يكرهونه عندما يربكهم، لا يقبلون أن يخدعوا، بينما يخدعون أنفسهم، من حيث لا يدرون، يحبون النور عندما يبزغ، يكرهونه عندما يتوارى".

تكشف رقابة المجتمعات الصناعية عن سقوط القيم الخلقية، مع تضخيم ظاهراتها السلبية على هذه المجتمعات (زيادة الإجرام، ترك بعض الأبناء في ملاجيء العجزة، استخدام الأفيون، عهر الجسد والقلم، الأنانية، الخ...) وحالياً، في المجتمعات الصناعية، التي تزداد مادية، عدم احترام هذه القيم الخلقية لم يعد يزعج – أو تقريباً. وبفعل عدوى مرض الببغاوية( )، يصل هذا اللا-احترام أكثر فأكثر إلى مجتمعات أخرى، أكثر زراعية، أقل صناعية: أسباب هذا عديدة. منها، مضاعفة وسائل الاتصال (الأرضية، الفضائية، الصحافة، السينما، التلفزيون، التلكس....)، ورفض التراث ناجم من اللا – ثقة بالذات أو عدم معرفة حضارة الأمة، وتفجر الأسرة الأبوية، وحياة واختلاط التجمعات المحصورة في المدن، والتقليد الأعمى واللا – مشروط لكل ما يأتي من أوروبا (لاسيما السلبيات)، نتيجة عقدة الدونية المقبولة ظاهرياً.

لقد لعبت صحافة أوروبا المكتوبة دوراً ملحوظاً في إرساء هذه العقدة، مع الأخذ بعين الحساب الأمية في هذه المجتمعات، وإبقاء صداميتها محدودة. بالمقابل، وكان ارتباط تطور "صناعة السينما" بضخامة رأس المال، تم تطفل التلفاز إلى البيوت العوامل الرئيسية.

والسينما هذا الشكل الجديد للتعبير السمعي البصري، لم تصر اللغة الاجتماعية، الفلسفية، السياسية الصادقة إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، في ١٩٤٥ (١٣٦٤هـ هجرية). بعد بدء الأفلام الشهيرة "وسترن" (قبل وبعد هذا التاريخ)، التي كان دورها تبرير استعمار الانكلو – ساكسونية للشعوب، وتقديم الأمريكان كوحوش، بدائيين، وثنيين من دون إيمان ولا شريعة( )، سجلت السينما طموحات أخرى. وفتح النصر في أوروبا للأمريكان آفاقاً أخرى. يكتب المنظر السينمائي الشهير، الأستاذ ب. بالاز إن "الفاشية هدفت إلى تأسيس الطبيعة البشرية على المشاعر غير

الواعية وليس على المفاهيم الواضحة"( ). وكانت الصناعة السينمائية السهم الأقوى من الجيوش في مكافحة الشيوعية، ثم أداة دعاية سياسية، إيديولوجية وثقافية بتقنية تزداد دقة، بإيحاءات أريبة:
"التأويل والتفسير مهمة أولية في الوعي الإنساني. ولا شيء أصعب من التعرف السلبي على ظهورات احتمالية، عابثة، بذاتها، دون الاهتمام بحاجتنا لتلاؤم الأفكار مع التصور( ) ويعلن الكاتب ذاته، في العمل ذاته: "عند الحديث عن أفلام طويلة، كل منا يعرف أن عرض سلسلة منها، يخبئ أو يشوّهُ الواقع. لأن كلاً منا يعرف أن "الحقيقة" لا تكمن في وقائع وأحداث معزولة، إنما في تسلسلها المنطقي، وفحواها، وباختصار، في أخلاقيتها"( ).
لقد أنجز الأخوة لوميير آلتهم لالتقاط الصور في ١٨٩٥ (١٣١٢هـ). إنما رأت تقنيات الفن السابع النور في الولايات المتحدة الأمريكية. واقتداء بهذا البلد، بدأت أروبا أيضاً الفن السينمائي لأهداف سياسية، بخاصة لتناول "الأوضاع الراهنة". يصرح ب. بالاز بهذه المناسبة: "لقد اعتدنا رؤية هذه التقنيات في السينما قبل الفيلم الطويل. وتركت لدينا إحساساً غير ضار – مع أخذ الأنباء بعين الاعتبار ومع ذلك شكلت السينما أحدى الأدوات الأكثر فاعلية في مجال الدعاية. لم تجمع بذاتية فنان، كصور الواقع التي ترصدها "عين الكاميرا"، إنما بتوجيه إهتمامات وضغط الذين يمولونها، كذبت خيراً من الأنباء التي تشوهها الصحف لأنها أخذت هيئة صور موضوعية قمينة بالثقة مأخوذة من صحفي معروف. لم تكن تعليمية إلا عند التمكن من مقارنة المشاهد لنفس الحدث التي يلتقطها معسكران خصمان، لتوضع أن صح القول في المزاحمة، وغير لم تكن متشابهة. مع ذلك، قصدت تحويل التجميل لتبديل الوجه( )".
يتابع الأستاذ بالاز: "فردياً، ليست الصور سوى الواقع. فقط المونتاج يقدر أن يظهر الحقيقة من الكذب. هنا تكمن المسؤولية الضخمة لأشرطة الراهنية. سرُّ قوتها بالإقناع، هو أن المشاهد يشعر أنه شاهد عياني فأخذ المشهد ذاته، مقصد، طريقة إثبات. لأن الكاميرا، أخيراً، لم تزرع صدفة أمام هذا الهدف أو ذاك. فالمنفذ يعرف ما يُرغب في أن يُرى، أن يُفهم حتى قبل أن يبدأ عمله".
أن التعليقات التي كتبت في ١٩٤٨ (١٣٦٧هـ)، حول استخدام السينما لأهداف فوق – الفنية هي راهنية قبل أي شيء. واصلت تقنيات السينما، طرقها العديدة كوسيلة إلى خلق "حضارات" كاذبة، حضارات "بُعثت

روحها" (بمعنى تشبيه الامبريالية بنمر من ورق، على لسان ماو – تسي – تونغ)( )، أي إن المشاهد يظن أن ما يراه، عبر الكاميرا، صحيح أو واقعي. بعض الأوضاع في الفيلم، التي تدل إلى حياة مثالية، فردوسية، سهلة هي هدف يجب بلوغه، وكثير من الفتيان في الولايات المتحدة الأمريكية، وأوروبا، أو في بلدان أخرى من العالم خدعوا بهذه الأفلام لدى مواجهتها بالحياة المعاشة، وبضرورات الوجود القاسية... وفي كثير من الأحيان، تنسجم السينما مع الوهم (خطأ الحواس يجعلنا نعتبر الظاهر حقيقة).

كالسينما، الحياة المادية وهْم. أن يعد الإنسان نفسه في أطيب الشروط، أن يحاول جمع وتكديس الثروات، ليس لمؤازرة القريب بل للهيمنة عليه وإذلاله، أن يسعى إلى مرافقة الشباب وحسناوات النساء... لكن، أخيراً، ماذا يبقى من كل هذا إلى نهاية الحياة؟ لم تعد المعدة تتذكر أنها التهمت أطعمة طيبة وريانة، ولن يحمل الإنسان معه ثروته – ولا فلس – وسيأول الشباب والنساء الجميلات إلى الشيخوخة والفناء. تبقى فقط الأعمال الطيبة، الأفكار والقول المأثور، خلق جدير بهذه الصفة، التي سترافق الإنسان "الذي سينهي رحلته" إلى موطنه الأخير وستشهد له".

كما في السينما، على الإنسان أن يلعب دوره ويمثل الجنس البشري على الأرض، ويكون مسؤولاً عن الحوار، والممثلون الآخرون يذكرون في مقدمة الفيلم كمخرجين. "ليست الحياة في هذا العالم سوى لعبة وعبث" (قرآن ٦٤ – ٣٩).

نحن لا نشك بدور السينما التربوي بالتوثيق والأفلام العلمية، بعلاقات السفر، بالاجتماعات الهامة، الخ.... إنما إذا اعتبرت السينما قبل أي شيء صناعة، ستوظف وسائل مالية ضخمة، "طبعاً"، ستجني الفوائد والأرباح الأساسية و، لهذا، توجه إلى الانتاجات المجزية – قولاً واحداً – أياً كان الموضوع أو النتائج سلبية على المجتمع.

الرقابة، كما يقال، متعارضة مع حرية التعبير والفكر، والخُلق، أيضاً، متعارض مع الحرية الزائدة.

ماذا تفعل المنظمات لإيقاف هذا التآكل الخلقي، ولمنع بعض البرامج السمعية – البصرية؟ لاشيء.

منذ ظهور الإنسان على الأرض، بقيت الشخصية البشرية كما هي، بأشكالها الإيجابية والسلبية. والمجتمع، لكي يفرق الإنسان من الحيوان، أقام حواجز أخلاقية، موانع تقي المجتمع من السقوط في الفوضى وعدم –

التـوازن النفسـي – العـاطفي. ومـع التطـور الصـناعي، توصـلوا إلـى خلـق شركات استهلاك (مادي وليس روحياً): هذه تستهلك (لا بل تغنـي تبيد) أي شيء، والحبل على الجرار. السيدة الدُّرجة هنا( )، لإقنـاعهم وتقديم السلعة بـأجود تغليـف، ودومـاً محاطـة بفتـاة حلـوة، أكثـر فـأكثر عريـاً (أيـذكرنا هذا بالخطيئة الأصلية؟).

هنا أيضاً حركة تحرير المرأة ( ) ورابطات نسائية أخرى يصمتون صـمت المشجع على استخدام المرأة في هذه المهام والأمكنة العامة، مع ذلك، يمثل عـدد كبيـر مـن النسـاء مراكـز مسـؤولة، وأخريـات، لرئاسـة الـوزارة.... يرضـين بسـهولة لتقـديم شـائن لمثـيلاتهن، أو هـل يكـنَّ مطـرح ضـغط مـن الجماعـات المستفيدة ماليـاً وغيـر ذلـك؟ أيـوافقن أن لا يـرى فـي المـرأة إلا شكلها، وتنكر عليها أية طاقة ذهنية؟ وفي هذه النظرة الشهوانية إلى المرأة، يتعلم الابن الذي لا يهرب من "العاب الكبار"، عند البلوغ، أن يرى المرأة، أمهُ، أختهُ، زوجته شيئاً، لعبة، منتوجاً مضافاً إلى المبيعات!.

يذكرنا الفيلم أننا رأينا صوراً لنساء أروبيات مسيحيات من العصـر الوسيط (تروي الأفلام العصر وتقدمهُ أيضاً). بثـوب طويـل ونقـاب لا يسـمح برؤيـة سـوى الوجـه – إجمـالاً مـا يسـمى Letchador. هـل كـان هـذا "التبـذل" غنيمة حرب أتت مع الحروب الصليبية أو هو سمة حشمة شرعية؟.

سيجيب مؤرخو العصر خيراً منّا على هذا السؤال. كان الثوب الكهنـوتي أو القمبـاز الـذي كـان يلبسـه حتـى أعـوام قريبـة الآبـاء الكاثوليك نسـخة طبـق الأصـل عـن الثـوب الطويـل، الـذي ارتـداه يسـوع وكـل الحـواريين وكـذلك المطلعـون بالأعمـال الهامـة فـي فلسـطين، ولبسـهُ كـل العـرب، منـذ آلاف السنين، حتى أيامنا. وأيضاً، كان ثوب "الأخوات" – الراهبات) المسيحيات المحتشم مماثلاً لبزة النساء العرب في ذلك العصـر (قبل العهد المسيحي) وحافظت عليه المسلمات.

حتى بداية الحرب العالمية الثانية، كانت النساء تلبس بطريقـة "لائقـة"، مـع أنها أقل فضفضة وطولاً من جداتهن في العصر الوسيط. كنّ تستحممن، بثوب – مايّو – واسع من قطعة واحدة تنزل حتى الركبة ولا تلبس الجسد. بعد ١٩٤٥ (١٣٦٤ هـ)، يبدأ الطـرز الحـديث، الـذي يبتعد شيئاً فشـيئاً عـن اللياقة والأناقة، حتى تخلى عن أي معنـى. أهذا حصـيلة حـرب شـاملة، مـع موكب الآلام الذي يكوينا في كل حرب و /أو تبدل فلسفي وذهنـي مـع نسـف الحـواجز الخلقية السالفة التي تمليهـا الحيـاة الماديـة الأسـهل والتصـنيع الحـر الطليق؟.

ثمة واقع واضح، هو أن الطبيعة تخشى الفراغ. فالتخلي عن القيم الأخلاقية يفرغ المكان لتجميم هذا الفراغ بقيم أخرى، لا أخلاقية أو عدوة الأخلاق. عهد حضارة باهرة متبوع أبداً بعهد انحطاط ثم الخمول (الشواهد التاريخية أمامنا علينا أن نتذكرها).

خلال قرون، وقرون، بقيت الأخلاق العامة كما هي، تسهر عليها أو تراقبها إلى هذا الحد أو ذاك الكنيسة، التقاليد، المجتمع. وخلال أقل من نصف قرن، انقلب الأمر، التاريخ يتسارع.

يتم الأمر كما لو أنه أيقظ أساطين الأبالسة، لتلعب مع من يتعلم السحر، وكما لو أن أحداً لا يستطيع مراقبة الآلة، وإبطاء أو إيقاف النتائج المتسلسلة. النتائج المتسلسلة للأورانيوم ٢٣٥ عُرفت وسيطروا عليها. لكن هل نعلم العواقب المتسلسلة للخلية العصبية، التي قصفت بنترونات "الحضارة الصناعية"؟.

ماذا تقول الرابطات البيئية باختفاء (ممرض) شعوب كاملة من أفريقيا(Pygmees)( )، من أمريكا (الاينوي( ) في الشمال، الأمازونيون في الجنوب)، من أروبا (اللابون Lapons) ( ) الخ...، من نظرية الاختلاج، التلوث النفسي والذهني، الناتجة عن التشوهات الاجتماعية – الاقتصادية لدى نفس الفئات الشعبية، وتناول المخدرات، الخ...

بهذا المعنى، لا تتبنى المنظمات الحكومية خطاباً مكافحاً هادفاً إنما الحوار فقط. عملها مفيد، ضروري إنما غير كافي، من حيث الأهمية، هي ممثلة في البرلمانات، ويدنو عملها من إستكمال عناصره لاسيما البشرية. ومن تلاطم الأفكار المخترعة بل العفوية، وطوفان النظريات والتقنيات التصنيعية، ينتصب سور أخلاقي كسور الصين الدفاعي والمرحب به.

القسم الثاني

أساطير و واقعات

الفصل الأول

العرب

(إنا أنزلناه قرءاناً عربياً لعلكم تعقلون) صدق الله العظيم
(قرآن ١١- ٢٠)

١ – العالم العربي المعاصر:

يمثل العرب عرقاً قديماً فرداً.

نذكر أن مصطلح العرق يعني شريحة من الأفراد منحدرين من جدود مشتركين (وإذن يتكلمون نفس اللغة)، يميز جمعاً وراثياً لخواص تشريحية، وظيفية ونفسية مشتركة. وأن العرب ينتمون للنوع الأبيض مع بشرة نضرة أو مسمّرة، شعر أجعد إلى هذا الحد أو ذاك، أنف ناعم، فهو نوع قريب جداً من عرق البحر الأبيض المتوسط أو ينسجم معه.

١ – خواص جغرافية واجتماعية:

يشكل العالم العربي كتلة بشرية وحضارية، ممتدة دونما توقف، من الأطلسي إلى المحيط الهندي، من نهر السنغال حتى الفرات، يلامس خط الاستواء (في الصومال) ويصل حتى أعمدة هرقل، عند التخم الجنوبي لأروبا. إحداثياته القصوى في الغرب: بطول ٠٥ Wفي طنجة (مراكش) وفي موريتانيا بطول 170 W – ارتفاع ١٧٠ شمال) في جنوب مدار السرطان. في الشمال، الارتفاع ٣٨٠ شمال الساحل الإفريقي، نفس ارتفاع سوريا والعراق تقريباً. وفي الشرق، الطول ٦٠٠ وارتفاع ٢٣٠ (مدار السرطان) في عُمان، على المحيط الهندي. في الجنوب، يصل إلى خط الاستواء (ارتفاع ٥٠) في الصومال.

من حيث امتداده وتنوعه الجغرافي والمناخي، يقدم العالم العربي نماذج بشرية متنوعة كالتي نراها في أروبا، لكن السيماء، الهيئة العامة لهذه النماذج هي ذاتها.

فالرحالة المجرّب، اليقظ، الذي يزور هذه البلدان، يستطيع أن ينعت ولا بد بالإنسان العربي، الجزائري أو السوري، الأشقر أزرق العينين، أو المصري الأسمر أسود العينيين. وفي كل من هذه الدول، أعضاء الجامعة العربية، يمكن أن نصادف تنوعاً بالبشرة، ألوان العيون والشعر، يبدأ من اللون تام النضارة، إلى عينيين ملونتين وشعراً أشقر حتى السمرة، من العينين السود إلى الشعر اللماع الفاحم.

ويمكن أن نلقى أيضاً النموذج الأسود أو الزنجي، الناجم عن التداخل، في تلك الأيام، العبيد كما في le hoggar des touareg (في الجزائر) أو

فـي الصـحراء العربيـة. علـى هذا، لا يشبه هذا النمـوذج الأسـود النمـوذج البشـري الأفريقـي فـي الصـحراء الجنوبيـة أو النمـوذج الأسـود فـي أمريكـا. عنـده السـمات الجسـدية والخلقيــة العربيـــة، رغـم شـعره الأجعـد، وأنفـه الافطس، بتأثير المحيط، التزاوج والتوارث المكتسب عبر عدة قرون، بل عدة ألوف من السنين. اللغة الرسمية والشعبية فـي هذه الـدول هـي العربيـة. مع بعض الفوارق في المفردة، في النبرة، لكنها بالتأكيد أقل من التنوعـات في اللغات اللاتينية (الإيطالية والفرنسية مثلاً). يقدر الفلاح المراكشـي أن يفهم بسهولة فلاح النيل، أو العراق.
قبالـة اللغـة العربيـة، ثمـة لغـات أو لهجـات إقليميـة (الأمازيغيـة فـي أفريقيـا الشمالية، القبطية في مصر، واللهجات المحلية فيما بـين النهـرين أو الـيمن) لكـن كـل هـذه اللهجـات تشـتق مـن اللغـة العربيـة القديمـة. إن كـل لغـة، وكـل لهجة اتبعت طبعاً تطورها الخاص، مع اعتبـار بعـدها المكـاني عـن اللغـة ـ الأرومة، واستخدامها في مجالات جغرافية متباينة. كان الإقتباس من لغـات البلــدان المجــاورة و/ أو الإقطاعــات فــي حقبــة معينـــة (مختلــف أنــواع الاسـتعمار فـي أفريقيـا الشـمالية، والاحـتلال اليونـاني لمصـر، الـخ...) ومـع تنوعها الديني أو الحضاري (بقيت لغة الأقباط حية لدى المصريين الذين لم يقبلوا غزو اليونان لبلدهم، ثم لدى المسيحيين القائلين بطبيعة واحدة للمسيح الذين لم يتفقوا مع الكنائس البيزنطية والرومانية).
يعد سكان العالم العربي أكثر مـن مـائتين وخمسين مليـون إنسـان موزعـون في عشرين دولة، أعضاء في جامعة الدول العربية مركزها القاهرة.
أيّـاً كـان الفـرق بـين النمـاذج البشـرية، تتنـوع هـذه البلـدان فـي مؤسسـاتها السياسية: ملكيات، إمارات، سلطنات، جمهوريـات (إسـلامية أولاً- دينيـة ـ علمانية ـ ديمقراطية شعبية).
الدين الغالب في كل هذه الدول بل الرسمي هو الإسلام. إنما إلى جانـب هـذا الدين. ثمة أديان أخرى كالمسيحية واليهودية. وتعيش أقليـات قويـة مسـيحية فـي مصـر (الكنيسـة القبطيـة)، وفـي سـوريا، العـراق وفلسـطين (الكنـائس الكاثوليكية، اليونانية، اليعقوبية، والأرمنية...). ولبنان، نصف سكانه تقريباً مسـيحيون (أغلـبهم مـن الكنيسـة المارونيـة)( ). علـى هـذا، تؤكـد كـل هـذه الأقليات العربية عروبتها، لدى الساسة، الشعراء( )، والفنـانين. كمـواطنيهم المسلمين يتسلم المسيحيون وغيرهم مراكز هامـة فـي الحكومـة، الجـيش، ويقتسمون الثروة. لا شيء يفرقهم عن أبنـاء بلـدهم المسـلمين، سـوى الاسـم الأول المسـيحي أحيانـاً. أو التـردد علـى دور العبـادة غيـر الجـامع. أقليـات

إسرائيلية تعيش في شمال أفريقيا (ثمة وزير إسرائيلي في حكومة جلالة ملك مراكش) وفي الشرق الأدنى. العدد الأكبر من الإسرائيليين الذين كانوا يعيشون في البلدان العربية قبل ١٩٤٨ (١٣٦٧)هـ هاجروا نحو أروبا، أمريكا أو فلسطين، بعد الحروب الإسرائيلية – العربية.
حجم فضائي من هذه الأهمية، يمتد على أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة كم يفضي بالضرورة إلى تنوع المناخ. في الغرب، يستحم العالم العربي بمياه المحيط الأطلسي، في الشمال، في البحر الأبيض المتوسط، في الشرق، في البحر الأحمر ثم الخليج العربي (أو الفارسي) وبحر عُمان، وفي الجنوب، في المحيط الهندي. النيل، النهر الثاني في العالم، يعبر السودان ومصر، ودجلة والفرات يعبران سوريا والعراق (وينبعان في تركيا)، بعض الأنهار الأقل أهمية موجودة في مراكش (سيبور، سوس)، السنغال (نهر – حدودي) في موريتانيا وأنهار قليلة الأهمية في سوريا ولبنان (العاصي).
تشمل جغرافيا العالم العربي تشكيلة واسعة جداً: سواحل، سهول، تلال عالية، صحراء وجبال (أو سلاسل جبلية). ترتفع بعض الجبال حتى ٣٠٠٠ م: جبل توبكال (٤١٦٥ م) في مراكش، جبل النبي شهابي (٣٧٦٠ م) في اليمن، الهزرروست (٣٦٠٧ م) في العراق، جبل كيت (٣١٨٧ م) في السودان، القرنة السوداء (٣٠٩٠ م) في لبنان، جبل أهقاز (٣٠٠٣ م) في الجزائر، الجبل الأخضر (٣٠٠٠ م) في عُمان، جبال الحجاز (٣٠٠٠ م) في العربية السعودية، وأخرى تجاور هذا الرقم (جبل حرمون – الشيخ (٢٨١٤ م) في سوريا ورابية القديسة كاترين في سيناء (٢٦٤١ م) في مصر.
النيل، ثاني أطول نهر في العالم، بعد الأمازون، طوله ٦٧٠٠ كم. ينبع النيل الأزرق في أثيوبيا، يعبر السودان ويتصل بالنيل الأبيض (الذي ينبع في أوغندا) في الخرطوم، ثم يجتاز كل مصر من الجنوب إلى الشمال ويصب في البحر الأبيض المتوسط.
طول الفرات ٢٨٠٠ كم، دجله ١٩٠٠ كم، ويصب الاثنان في الخليج العربي.
أكبر صحراء في العالم، الصحرا le sahara تشمل حدود العالم العربي. من الغرب إلى الشرق. تغمر الشواطئ الرملية للمحيط الأطلسي (في موريتانيا) تصل إلى أقل من ٢٥٠ كم من البحر الأبيض المتوسط (في الجزائر، "تجتاز" قناة السويس بعد زيارة ضواحي القاهرة، تعبر سيناء ثم تصل إلى الطرف الشرقي من شبه الجزيرة العربية (عُمان). بغى بعض

الجغرافيين تجزئة وحدة هذه الصحراء بخلق صحارى أفريقيا الشمالية، سيناء، العربية السعودية، الربع الخالي، النفوذ...) أي وحدات متميزة، ويحصرها البعض في أفريقيا فقط (حتى البحر الأحمر).
ولكن الدراسة العلمية لمختلف التشكيلات الجيولوجية، وتحليل الصخور الأصيلة وتكوينها، وخاصية الصخور البركانية، البلوتونية، الرسوبية، الحتاتية والتكوينات الحيوية تثبت أن الـ Sahara تشكلت بذات الطريقة، وفي نفس الدور الجيولوجي، في أفريقيا الشمالية، وفي سيناء وشبه الجزيرة العربية. فوجود الواحات وبقاع الماء المبعثرة عبر هذه الصحراء، نفس القبائل الراحلة وذات العادات والتقاليد وندرة الأمطار (أقل من ٢٥٠ م) تشهد أيضاً على دعوانا.
لم يكن النيل ولا البحر الأحمر حاجزاً في وجه le sahara. فالنيل واحدة من أعاجيب الطبيعة، يغمر صحراء ويخلق الحضارة المصرية الآبدة.
كما رأينا التضاريس والنهج المناخي شديدا التنوع. تنوع المناخ في هذه الأصقاع تعبير- كما في مناطق أخرى في العالم – يعبّر عن تنوع الارتفاع عن سطح البحر، وعدم تساوي توزيع الأرض، والبحار ومجاري المياه، والتضاريس من حيث طبيعتها، توجهها وعلوها، وأثر العناصر الجوية.
نجد هنا من حين إلى آخر مناخ متوسطي، بحري، شبه – مداري، مداري ومناخات إقليمية (أي تجاور الغابات، الجبال، كتل ضخمة وعدا المناخ القطبي، كل المناخات الأرضية).
وذات العناصر التي تحدد المناخ، توجه مصير النبات والزراعة.
فالتغذية في البلدان العربية مبنية أساساً على الحبوب (قمح، شعير، ذرة، رز)، تستهلك أقاليم شمال أفريقيا أولاً القمح (كوسكوس)، وبلدان شرق النيل، الرز، وفي البقاع الصحراوية، البلح هو العنصر الغذائي المفضل: يقدم للضيف العابر، لتكريمه، والحليب. ويستهلك حوض المتوسط الزيتون والزيت بكثرة.
ويعمر المطبخ العربي كثير من البقول، التي دخلت إلى أروبا عن طريق العرب. ولوضع اليد على هذه المنتوجات حاول الرومان غزو العرب، عدة مرار، لكن عبثاً. وتتنوع الألبسة أيضاً حسب الأقاليم: الجلباب (وخاصة مع غطاء للرأس) الواسع والملائم، البرنس (معطف أو قبعة منسوجة بالصوف أو وبر الجمل)، السروال "العربي" في أفريقيا الشمالية، القميص (الثوب الطويل الذي يغطي الأكتاف وينزل حتى الكواحل) في مصر أو العربية السعودية، القفطان الذي يصل حتى الركب في اليمن، الخ...

وغطـاء الـرأس عديـد الشـكل أيضـاً: العمامـة: مـن عُمـان حتـى مـراكش، الطاقيـة فـي شـمال أفريقيـا، الكوفيـة فـي العربيـة السـعودية، والشاشـية أو الطربـوش (قلنسـوة ذات سـاق هرمـي) دخـل عن طريـق الأتـراك. ويختـار العـرب، سـيما الـذين اسـتعمرهم الأوروبييـون اللبـاس الأوروبـي (البنطلـون والسترة) ويتركون هيئتهم التقليدية غير متسقة. يقولـون، هذا مناسـب لعمل حديث (في المعامل والورشات).

أين يبدأ التلاؤم وأين تنتهي المحاكاة؟

بخصوص الثوب النسوي، بقي دون تبديل طيلـة قرون، مـع تنـوع الإقليم. كانت المرأة أبداً، كمـا فـي كل الحضـارات، حاميـة العـادات والتقاليد، التـي تنتقل ولا بد من الأم إلى البنت.

وبخصوص الفنون العربية، لن نتكلم هنا إلا عن واحد، هو فن الموسيقى، لأن هذا الفن، أكثر من غيره، ظاهرة اجتماعية، وخطاب "الموسيقى نقطـة التقـاء أقـوى حركـات النشـاط والسـلوك الاجتمـاعي الأكثـر عمقـاً وتأسيسـاً. وهي كاللغة مؤهل أيضاً، ووسيلة التواصل( ). هذا الفن قريـب مـن الشـعر، الأثير على العربي منذ آلاف السنين. ويستدعي هذان الفنان الذهنيان السمع والإيقـاع. هـل سـبقت الموسيقى الشـعر أم تلتـه؟ إن أسـاتذة الموسيقى الـذين "يكتبون" مقطوعتهم على الأشعار العربية ليسوا بحاجـة لوضـع إيقـاع لأن اللغة العربية، المؤلفـة مـن مقـاطع طويلـة وقصـيرة، تملـي إيقاعهـا الخـاص. يكفي هؤلاء المؤلفون ببساطة أن يتصوروا النغمة أو الرخامة.

كانت الموسيقى بداية، إيقاعيـة (موسيقى بدويـة) مـع استخدام آلـة القـرع أو النقـر (الأمـر الـذي نلقـاه حتـى اليـوم) الـذي يرافـق الغنـاء. ثـم مـع تطورهـا التـاريخي والتقنـي، دخلت أدوات أخرى (نفخية، كمزمار القصـب، ثم وتريـة تعمل بالأصابع أو الريشـة). تطـور هذا الفن الغنـي والمنـوع، بأشكال عدة حسب صروف وآمال كل إقليم، وكل دولة.

أ ـ موسـيقى معدلـة، مقننـة كمـا الموسـيقى الاسـبانية (التعبيـر الـذي نفضـل استخدامه على تعبير الموسيقى الأندلسـي) الموشـحات الـذي هـاجر أسـاتذته إلـى أفريقيـا الشـمالية وبلـدان حـوض البحـر المتوسـط. بلغـت هـذه الموسـيقى التـي تشكلت إنطلاقاً مـن القـرن الثـامن ب. م. (الثـاني الهجـري) فـي أسـبانيا مجـدها والطـابع الـذي حافظـت عليـه حتـى الآن، فـي ذروة الحضـارة الإسلامية في الأرض الاسبانية. تشكل الموسيقى الاسبانية كلاً منسجماً مع النغمـة الآليـة (التـي قلـدت الزخرفـات المعماريـة فـي قصـر الحمـراء Al

hambra ( ) والخطوط الأنيقة لجرالدا Giralda)( )، وقصيدة مغناة تتبع نصوصها بأمانة عظمة وانحطاط هذه الحضارة المتألقة.
النوبة الكلاسيكية La nouba هي تتالي من الغناء المنفرد، مبني فقط على صيغة واحدة، مع تعاقب الأشطار الآلية وترتيب ملائم ومعين. يتسق مع قانون (من سبق الآخر؟) السيمفونية والكونشرتو.
تتضمن النوبه La nouba:
١ – التوشية: فتحة آلية.
٢ – الميسادر: حركة غنائية، مع جوقة.
٣ – البيتايهي: حركة غنائية، مفصولة عن سابقتها بكرسي (أو مدخل).
٤ – الدردج: حركة غنائية، مفصولة عن سابقتها بكرسي.
٥ – إنسراف: حركة غنائية، مفصولة عن سابقتها بكرسي.
٦ – الخلاصة: حركة نهائية، غنائية أيضاً.
الإيقاع في النوبه La nouba، يتبع درجة متطورة، هادئة في البداية (الميسادر)، أسرع في النغمات التالية لتصير "حيوية" في النهاية. يأخذ الإيقاع هنا أهمية ومكانة تعدد الأصوات ويرافق كل اللحن.
ثمة ٢٤ طبقة أو نوبة، تطابق كل منها ساعة معينة من النهار. مثلاً، تعزف طبقة سيكا بعد الظهر: هذا هو رمل Raml العشية (عند مبيت الشمس).
والأدوات التقليدية للموسيقى الإسبانية هي:
١ – اللوث أو الأود – العود - ، أداة وترية (خمسة أزواج من الأوتار) تعزف بريشة.
٢ – الربك، آلة وترية، تصدم بقُويس.
٣ – الكمان.
٤ – الكويترا، آلة وترية مع ريشة (حفيدة القيثارة).
٥ – السيتار أو القانون: قيثارة أفقية مع أوتار مدوزنة مع ريشة.
٦ – آلات القدح أو النقر – القرع -: الطنبورين، الدربوتا (طنبور صغير يستعمل أفقياً على الفخذ.
٧ – القصب أو الناي.
من عام ١٢٣٦ (٦٣٢ هـ)، سقوط قرطبة( )، إلى عام ١٤٩٢ (٨٩٦ هـ)، احتلال غرناطة، شهدنا هجرة الأسبان المسلمين نحو أفريقيا الشمالية أساساً، حاملين في متاعهم عاداتهم، تراثهم، معرفتهم... وموسيقاهم. انتشر هؤلاء "المهاجرون" المتحضرون، الذواقة، على السواحل، والسهول

الشاطئية، الخصبة، ولم يبالوا بالهضاب القاسية الجبلية) وخلقوا مدناً جديدة أو ساهموا بازدهار بلدان أخرى (تطوان، فاس، تلمسان، الجزائر، تونس).
ب – الموسيقى الشعبية أو المحلية، التي تغني ترابها، بيئتها، روابيها – العالية، جبالها الثلجية، وبلدانها.
ج – الموسيقى الدينية أو Medh – المدائحية – (موسيقى صوتية أساساً).
د – الموسيقى البدوية، أقل إعداداً وأكثر إيقاعاً، تغنيها قبائل الرحل وشعراؤها.
هـ - موسيقى التنوع، التي تصطبغ بالموسيقى الحديثة، مع استخدام مختلط للأدوات العربية وغير العربية. يبقى الإيقاع ذاته مع استخدام الصدم (دربكة و Tarr). في هذا الإطار، تحتل مصر موقعاً رائداً بخصوص كمية و"نوعية" موسيقيتها ومغنيها المنوعين. فكل موسيقي أو مغني عربي عليه أن يعرّج على القاهرة، ليتكرس للفن.

٢ – حالة معينة لدولتين:

سنتحدث هنا عن دولتين (مالطة وأثيوبيا)، اللتين لا تذكران عادة "رسمياً" في العالم العربي مع أنهما عربيتان بالمعنى الذي حددناه (مع قاموس لاروس)، في رأس الفصل.

٢,١- مالطة:

تقع هذه الجزيرة المتوسطية، في خط عرض أفريقيا، وكانت مأهولة بالفينيقيين والقرطاجيين قبل مجيء المسيح ثم سكنها العرب في عام ٨٧٠ ب. م. (٢٥٨ هـ).
اللغة المالطية لغة عربية. وبتبنيها الديانة المسيحية (الطائفة الكاثوليكية هي المذهب الرسمي هنا)، استخدمت مالطه قاعدة خدمية للحروب الصليبية وأسست أخوية الاستشفاء باسم القديس يوحنا، في عام ١٠٩٩ (٤٩٢ هـ). وباستعمارها من قبل الفرنسيين، ثم من قبل الانكليز في عام ١٨٠٠، وعضويتها في الكومنوليث، طمس انتساب الدولة المالطية للعالم العربي. والآن، لغتها هي الانكليزية.

٢,٢- اثيوبيا:

كان يقع هذا البلد، في التاريخ السحيق، المشاطىء للبحر الأحمر، بين السودان والصومال.
اللغة الرسمية، الأمهرية وهي الجذور.
علاقاتها التاريخية (السياسية، التجارية، الدينية) مع العرب ما قبل العهد المسيحي معروفة جداً.

تحفظ أثيوبيا الراهنة البصمة العربية القديمة، وعدد كبير من المدن، القرى، الحواضر، الأنهار، الجبال، والمقاطعات تحمل كلها أسماء عربية. احتل العرب، قبل الإسلام، قتالياً إثيوبيا (العباسية) ثم احتلت هذه بدورها اليمن ووصلت إلى أبواب مكة (في ٥٧٠ ب.م. أحد مؤسسي أثيوبيا هو منليك Menelik وريث الملك سليمان Saloman والملكة سبأ (اليمن).
كان العباسيون والمصريون خلال عدة قرون، بلداً واحداً، ويتكلم هيرودوت عن الثمانية عشر عاهلاً من الإثيوبيين الذين حكموا الإمبراطورية المصرية.
الإثيوبيون مسيحيون (أقباط قائلون بطبيعة واحدة) وهم الذين ارتبطوا حتى عام ١٩٥٤ (١٣٧٣ هـ) بالكنيسة القبطية في الإسكندرية (مصر). والمعجم لاروس، في جزئه التاريخي، يصف هذا البلد بالأرض المسيحية في العالم العربي. ومن أعوام قليلة صار أحد أقاليم إثيوبيا، ارتيريا، دولة مستقلة عربية، وهي عربية اللغة، رسمياً. تضم العباسية كانت Abyssinie (الاسم القديم) لإثيوبيا، أرتيريا، الصومال، وشطراً من السودان، وجيبوتي.
الأثيوبيون ذوو سمات بشرية عربية، في قسمهم الأعظم وفي أثيوبيا الحالية ثلاث شرائح بشرية:
١- الشريحة العربية، المسلمة، التي وصلت بعد مجيء الإسلام، من العربية السعودية.
٢- الشريحة التي يتفق الكتّاب على وصفها بالعربية، التي أتت من اليمن في الماضي الغابر وذات سمات جسدية عربية (بشرة سمراء، أنف دقيق، شفاه رقيقة، شعر أملس) وهي نموذج يمني. وهي أكثر عدداً.
٣- الشريحة الثالثة، سوداء ذات قسمات أفريقية.
إلى جانب هذه الشرائح الثلاث، تضاف شريحة الخلاسيين، سليلة الاتحاد بين الشريحتين الأوليين مع الثالثة.
لكل هذه الأسباب، نخوّل أنفسنا أن نصنف هذين البلدين في رحاب العالم العربي، حتى ولو لم ينضما إلى الجامعة العربية.
أينكرعلى سويسرا صفة أمة كونها لم تنضم إلى منظمة الأمم المتحدة؟ وكذلك كون هذين البلدين مسيحيين لا يحرمهما أبداً من العروبة لأن مفهوم العروبة يستدعي العرق وليس الدين.

٢,٣ ــ حالة اسبانيا الفريدة:

سنتحدث عنها في الفصل الثالث من هذا المؤلف.

٣- هجرة العرب إلى العالم:
هذا الباب من هجرة العرب العصرية إلى العالم ذو أهمية رئيسية لفهم تكون العالم العربي، الذي تعود أصوله إلى آلاف السنين، والذي سنرى بالتفصيل تشكله المتنوع في الفصل الثاني - العالم العربي قبل الإسلام-
العربي، راحل أصلاً، يبقى راحلاً ورغم تحضره وميله إلى الإقامة المستقرة، عصوراً أخرى في أشكال من البداوة أو الترحال. صار العربي المعاصر مسافراً معروفاً. يهاجر بسهولة نحو سماوات أخرى، بحثاً عن البقاء، بسبب جدب الأرض أو النكبات الطبيعية (الفيضانات، الجفاف، التصحر). تفرض الهجرة إلى آفاق أخرى ثقة الإنسان بذاته وهويته، والتحكم بمشاعره النفسية – العاطفية، والتكيف السريع مع الوسط الجديد (الكيان البشري، المناخ، اللغة، الغذاء)، وتقبل بعض الفوارق (الدينية والذهنية).
هاجر العرب إلى إفريقيا شبه – الصحراوية، وإلى أمريكا وأروبا، بحضارتهم، فنونهم، علومهم، وذكائهم، وساهموا في إغناء الثروة الثقافية والتقنية في هذه القارات.
بدأت هجرة العرب إلى أمريكا الجنوبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (الثالث عشر الهجري)، وإلى أمريكا الشمالية في عام ١٨٧٨ (١٢٩٥ هـ).
انبعثت الهجرة مبدئياً من بلدان آسيوية، ومن سوريا بخاصة (أنئذ كان لبنان إقليماًَ سوريا) ثم من مصر. حافظ العرب، في البلدان التي اختاروها، رغم أجيال متعاقبة واختلاط الزواج وغيره، مع بعض الأسر غير العربية، على تقاليدهم وبصمتهم المميزة.
خلق إصرارهم، كفاحهم، شجاعتهم أن يصير كثير من المهاجرين، الفقراء والمعوزين لدى وصولهم إلى البلد الضيف في أوضاع مرتاحة، عملوا أساتذة في الجامعات، متعهدي بناء، مخاتير، نواباً، انتخبوا إلى مجلس الشيوخ، وزراء، أصحاب مصارف، ضباطاً كباراً في الجيش، رجال أعمال معروفين، ملاكي أراضي واسعة، الخ... تسلم أحدهم الرئاسة في الأرجنتين، في العقد الأخير من القرن العشرين.
خضعت الهجرة إلى أروبا، من أفريقيا الشمالية أساساً، إلى عوامل أخرى. بعد الحرب العالمية الأولى، شجعت فرنسا، مستعمرة الجزائر، وحامية" المغرب وتونس، هذه الهجرة لأنها بحاجة إلى يد عاملة من أجل إعادة إعمار البلد الذي خربته الحرب.

وفيما بعد ترك الشمال – أفريقيون بلادهم هرباً من شروط الحياة الصارمة وليعيلوا أسرهم بإرسال الحوالات البريدية الزهيدة، بل المنتظمة. وبعد الحرب العالمية الثانية، وتزايد ضغط السلطة المستعمرة، هاجر المغاربة إرادياً نحو فرنسا والبلدان الأروبية الأخرى.
بعامة، في كل هذه البلدان، صان عرب الجيل الأول جنسيتهم الأصلية. وفضلت الأجيال التالية، في الأغلب، لأسباب اقتصادية واجتماعية، أن يأخذوا جنسية البلد الذي يقيمون فيه، كان البلد المضيف يشجعهم، على أن لا يقطعوا العلاقة لهذا السبب، ببلد الأجداد، ولا يتخلون عن الجنسية الأصلية أو أن يغفلوا زيارته من حين إلى آخر.

٣,١ – في أمريكا:

الوقائع والأرقام الخاصة بالبلدان الخمسة الأمريكية التالية، وأفريقيا، مأخوذة من كتاب لحسان جده بعنوان "هجرة العرب في العالم" لحسان جده Hassan Jedda (نشره عام ١٩٧٤ (١٣٩٤ هـ. دمشق).

أ – إلى البرازيل:

بدأت الهجرة العربية في حوالي العام ١٩٠٦ (١٣٢٤ هـ) بصورة واضحة. ومنذ العام ١٨٥١ (١٢٦٧ هـ)، بدأ المعمرون الأوائل يغدون إلى البرازيل. ساهمت الجالية العربية بتطوير الاقتصاد البرازيلي (مصانع حياكة الحرير، تجارة البن والحبوب، وصناعة النسيج)، وتطوير بناء العقارات، وثقافة البلد المستقبل (صحافة باللغتين العربية والبرتغالية، خلق نوادي أدبية، وتعليم في الجامعات والمعاهد). واشتركوا بالحياة الاقتصادية في داخل وخارج البلد (مساهمة ملحوظة بالمنتوج البرازيلي في معرض دمشق الدولي في عام ١٩٦٥ (١٣٨٥ هـ)، وبالحياة السياسية (أربعون نائب عربي في البرلمان) والحياة الاجتماعية (أعمال الخير، تشييد المشافي، الخ...).
وتتجه الجالية لتحتل المرتبة الرابعة، من حيث العدد، بعد الأسبان، اللاتين والبرتغاليين. وهي تتكون في الأغلب من الفلسطينيين، السوريين، اللبنانيين والمصريين.

ب – إلى فنزويلا:

بدأت الهجرة العربية بعد العام ١٨٥٠ (١٢٦٦ هـ). إذ اتجه القسم الأعظم بعد الحرب العالمية الثانية. تتكون الهجرة في الأعم الأغلب من عرب أصولهم لبنانية، ونسبة السوريين أقل.

ج – في الأرجنتين:

بدأت الهجرة العربية إلى هذا البلد مع الهجرة إلى البرازيل. وكانت في أكثرها من السوريين واللبنانيين.
د – إلى تشيلي:
الجالية العربية مؤلفة هنا أساساً من الفلسطينيين، بعكس أمثالهم في الأرجنتين. يعمل العديد من أبناء هذه الجالية هنا في عالم الصناعة، المال، التجارة، التعليم العالي، والسياسة. بعضهم وزراء، نوّاب، أعضاء في مجالس الشيوخ، وسفراء...
هـ - إلى الولايات المتحدة (U.S.A):
بدأت الجالية العربية في عام ١٨٧٨ (١٢٩٥ هـ). يعيشون بخاصة في مدن الشمال الشرقي وعلى شاطئ المحيط الهادي، يندر وجودهم في الريف.
كانت هذه الجالية في عام ١٩١٠ (١٣٢٨ هـ) تعد ٣% من التعداد العام.
وهي تتكون بخاصة من السوريين، ثم نمت من جنسيات أخرى (عراقية، مصرية، فلسطينية).
فالمهاجرون الذين مارسوا عند وصولهم، مهنة بيع المواد الجاهزة (التي لا تتطلب أي تخصص أو مهارة) رأيناهم بعد أجيال، في وضع اجتماعي أرقى. مع أن هذا الوضع أقل أهمية من أمثاله في أمريكا الجنوبية.
بدل عدد ضخم من هؤلاء العرب أسمهم الأصلي باسم انكلو – سكسوني أو لاتيني، لينسى انتسابهم إلى العالم العربي المذموم أو نتيجة الضغط الاجتماعي الهائل عليهم في هذا البلد "الديموقراطي والحر".
تقويم عددي للجاليات العربية في أمريكا في عام (١٩٦٤ – ١٣٨٤ هـ):

- برازيل ١٠٥٠٠٠٠
- فنزويلا ١٣٠٠٠٠
- أرجنتين ١٠٥٠٠٠٠
- تشيلي ١٢٠٠٠٠
- U.S.A 1200000

في أمريكا الشمالية كلها (بما فيها المكسيك): ٢٢١١٠٠٠
الإجمالي في أمريكا الجنوبية: ٣٥١٤٠٠٠
وفي عام ١٩٩٧ (١٤١٨ هـ)، زادت هذه الإحصائيات، نظراً للنمو الطبيعي خلال الأعوام الأخيرة بعدد الأبناء، ووفود جديدة عربية، آتية أساساً من المغرب. لم تنجم هذه الهجرات عن أسباب البحث عن الرزق بل

بحثاً عن المعرفة والتوظف. مئات، بل ألوف المغاربة، وفدوا إلى أمريكا الشمالية (كنداu.s.a) لمتابعة دراساتهم العليا، إعداد معلمين لمدارس القرى) أو التدريب على التقنيات الجديدة (البترو - كيميا، الالكترونية، المعلوماتية...) لكن أكثرهم لم يعد إلى الوطن، بعد إنهاء مهمتهم. وآخرون، طيارون، مهندسون، متعلمون فضلوا الاستيطان، أملاً بشروط جيدة ومكافأة على التلاؤم مع الوضع المهني، بل شكلوا هناك جاليات صغيرة: في مونتريال، نيويورك، هوستون مع مناخهم الثقافي والمطبخي (موسيقى شعبية وكوسكوس).

٣,٢ – إلى أفريقيا:

بدأت الهجرة العربية إلى أفريقيا قبل الحرب العالمية الأولى. كانت أقل عدداً من مثيلتها إلى أمريكا، وتوجهت إلى عدة بلدان في قلب الصحراء، (كما انتشروا في كل أصقاع أمريكا الشمالية أو الجنوبية).

كان توجه هذه الهجرة الرئيسي إلى نيجيريا، التوغو، داهومي، ساحل العاج، السنغال، غانا، كامرون، مالي، تنزانيا، وأوغندا. أغلب هؤلاء المهاجرين تجار.

٣,٣ – إلى أروبا:

الجالية العربية، في أغلبها، مكونة من عمال أو شغيلة في أعمال البناء، والباقي من أشخاص يمارسون مهناً شديدة التنوع: من بائع جوال إلى رجل أعمال ناجح يدير معامل أو شركات طيران، ولن ننسى الطالب المجد.

استقبلت كل بلدان أروبا هذه الجالية، بدون استثناء، بما فيها دول البلطيق، التي يوجد في أحدها جزائري واحد يعمل في الاستيراد والتصدير.

تقويم إحصائي للجاليات العربية في أروبا في عام (١٩٩٧ / ١٤١٨ هـ):

- عرب مغاربة	٢٩٠٠٠٠٠
- من خارج المغرب	١٠٠٠٠٠
- إجمالي في أروبا	٣٠٠٠٠٠٠

لا يتضمن هذا الإحصاء طلبة اللجوء غير الشرعي أو المكتوم. إجمالاً، يوجد في أروبا أكثر من ثلاثة ملايين إنسان عربي، أكثرهم في فرنسا ثم بريطانيا، ألمانيا وبنيلوكس اتحاد بلجيكا، البلدان المنخفضة واللوكسمبورج.

ب- العالم العربي قبل الإسلام:

١ – رُحّل ومقيمون:

في أول صفحة من كتابه "الحضارة العربية"، يصف غ. ليبون الصحراء العربية، يقول: "هي شبه جزيرة شاسعة شطر منها بيداء وتغمرها ثلاثة بحار: البحر الأحمر في الغرب، بحر عمان والخليج العربي في الشرق، وبحر الهند في الجنوب...
في الشمال، تخومها صعبة التحديد. تمتد تقريباً بخط ينطلق من غزة، مدينة فلسطينية تقع على ضفاف المتوسط، حتى جنوب البحر الميت، ثم من البحر الميت حتى دمشق، وأخيراً من دمشق حتى الفرات ومن هنا حتى الخليج العربي".
وفي الصفحة ١٣، يكتب: "قسمت الصحراء العربية على يد الأقدمين إلى ثلاثة أقطار: البادية الرعوية في الشمال، العربية السعيدة، في الجنوب – الغربي، والفلاة، في الوسط والشرق. البادية الرعوية، تشمل كل القطر الواقع بين فلسطين والبحر الأحمر، والفلاة مؤلفة من الأرض الرملية التي تمتد من تخوم سوريا وما بين النهرين حتى الفرات والخليج العربي. وتضم العربية السعودية كل الشطر الجنوبي من شبه الجزيرة، نجد، الحجاز، اليمن، عُمان، الخ..."
وفي الصفحة ١٤، يتابع متحدثاً عن البادية الرعوية،: "قلت لم يعتبر الجغرافيون العرب البادية الرعوية جزءاً من العالم العربي، إنما من الزاوية الجغرافية والأثنية – البشرية – لا يجوز إلا ضمها. فهي تضم كل شبه جزيرة سيناء، وتمتد من حدود فلسطين حتى البحر الأحمر. تنطبق صفة الرعوية تماماً على هيئة البلد. يشغل مركز شبه الجزيرة جبل غرانيتي يشكل سيناء.... إن هذا القطر المعزول هو مع ذلك واحد من أشهر الأقاليم في المنطقة وهو إدوم Idumee في التوراة، أرض الأماليين، الميديين، الأنباط وكل هذه الشعوب التي تتحدث عنها الكتب العبرية في كل صفحة".
لا تهدف هذه الاستشهادات إشهار كتاب للكاتب المعروف، د. غوستاف لوبون، فهو ليس بحاجة لها. ونحن سنرجع إلى مراجع أخرى، عبر هذا المؤلّف. وليس هذا من أجل الذم والنقد المنهجي. بل من أجل إبراز الظاهرة التي ذكرناها في الفصل الثاني الجزء الأول، "التلاعب بالكلام"، لنقرأ بين السطور أو نقرأ ما لم يكتب! يقول لنا الدكتور ليبون Lebon في أول صفحة إن العالم العربي محاط بثلاثة بحار. وفي السطر التالي، يحدثنا عن غزة، المدينة الواقعة على البحر المتوسط. ماذا نفهم من هذا؟

هـل العـالم العربـي محـاط بثلاثـة بحـار أو أربعـة بحـار (هـل نضـيف المتوسط)؟ نقطة جديرة بالذكر. ومثلما ورد في الصفحة ١٣، عند الحديث عـن الكتّـاب القـدماء، غوسـتاف لوبـون والقـدماء متفقـون علـى أن العـالم العربي يصل حتى المتوسط (فلسطين)( ).
ما نزال في نفس الكتاب، الصفحة ٢٢، يكتب الكاتب، بخصوص العرق: "يجب أن نرى اليوم في كلمة عرق عند ممارستها على الإنسان كمرادف لكلمة نوع أو جنس. إذ يمكن تحديد ببساطة معنى تعبيري عرق أو جنس بشـري، فنقـول إنهمـا يعنيـان تجمعـات فرديـة تملـك جملـة مـن السـمات المشتركة منتقلة بانتظام بالوراثـة... والشعب هو جملة من الأفراد تنتسب إلى عروق في الأغلب متباينة، منضوية في حكومة واحدة ولها بالتالي عدد معـين مـن المصـالح المشـتركة. ثمـة اليـوم الشـعب الانكليـزي، الألمـاني، النمساوي، الفرنسي، الخ... وليس ثمة عرق انكليزي، ألمـاني، نمسـاوي أو فرنسي.
فالعناصر الحاضرة هي من أصول شديدة التنوع وشديدة الانصهار أيضاً فلا يمكن إعطاؤها الصفة العرقية. مجموعة من الأفراد منضوية تحت ذات القوانين، مجمعة على نشر نفس الدين ومداولـة اللغـة عينهـا. إنمـا لا يمكن لهم أن يشكلوا عرقاً متجانساً إلا حينما يعين الوسط، التصـالب والوراثـة عنـدهم عـدداً معينـاً مـن القسـمات الفيزيائيـة – الجسـدية – والأخلاقيـة – المعنوية المشتركة... وبين العوامل القادرة على نقل وتحديد سمات عرق معين، يذكر أولاً سيما الوسط أو البيئة. إنما إذا كـان الوسـط عنصـراً فعّـالاً، فـالميراث الـذي يمثـل طاقـات مكدسـة فـي خضـم ماضـي بسـعة معينـة، هـو عنصر أكثر دلالة. ثم يلخص هذا الموضوع: "يعتبر العرب بعامة مكونين من عرق واحد".
هذا هو ما كتبناه بخصوص العرق العربي فـي مطلـع الفصـل الأول، أشـرنـا بخاصة إلى "الماضـي الطويل جداً فيمـا يخـص الوراثـة، أي الحقبـة الممتدة آلاف السنين.
من المستغرب أن نلمس أن كل الكتّاب الأروبيين، المصابين بعمى تاريخي لا يقبلون النقاش، يبدأ التاريخ عندهم من ألفي عـام (٢٠٠٠) فقط ق. م. أي الحقبة التـي تعادل الحقبـة التـي تفصـلنا الآن عن بدايـة هذا العهد. وكـل مـا سبق مغيب في اهراء ما قبل التاريخ.
لن نرجع إلى الماضـي البعيد، سفر التكوين (أو خلـق الإنسـان)، يوم كانـت الأرض تشكل كتلة واحدة محاطة بالماء ومن انقسام هذه الكتلة إلـى أشـطار

عديدة وتكوين القارات. وما يزال هذا الفصل مستمراً بصورة منتظمة. وكل المنظرين والجيولوجيين موافقون على هذا الرأي: تبتعد أمريكا عن أروبا وأفريقيا، وتبتعد كاليفورنيا بالتدريج عن القارة الأمريكية، ويتسع البحر الأحمر...

سنرجع فقط إلى عشرة آلاف عام ق. م. (وقد اتفق على حدوث الطوفان في حوالي العام ١١٠٠٠ ق. م. يومئذ، كان اسم العالم العربي برأي البعض البونت Pount، وكان سكانهُ مستقرين، مزارعين أو سكان مدن في الجنوب، في إقليم اليمن الحالي (سماه الأسلاف، اليمن السعيد لغنى وخصب أرضه) ورُحّل في شمال هذا القطر (الصحراء). يتكلم الجميع اللغة العربية، مع بعض الفوارق البسيطة حسب القبائل، المراحل والبقاع.

وفيليب حتّي، في كتابه "تاريخ العرب"، يصرح بهذا الصدد: "اللغات الآشورية، البابلية، الآرامية، العبرية، الفينيقية، العربية – الجنوبية، الأثيوبية كلها لهجات مشتقة من لغة واحدة، هي اللغة الأم: العربية.

في كل هذه اللغات، المتشابهة فعلاً، جذور الأفعال ثلاثية، ثمة زمنان: الماضي والحاضر، تصريف الأفعال متماثل وكذلك الضمائر الشخصية، وتسميات الأهل، وأجزاء الجسد البشري متشابهة جداً بل (أو أحياناً) متماثلة.

من كل هذا، يخلص إلى أن جذور هذه الشعوب المتعددة (كالبابليين، الآشوريين، الكلدانيين، الآراميين، الفينيقيين، العبرانيين، العرب والأثيوبيين) كانوا يشكلون شعباً واحداً، في الماضي الغابر ويعيشون في منطقة واحدة".

يميز كل الكتّاب عملياً بين عرب رحّل وعرب مقيمون. هكذا يتحدث غ. ليبون عن الرحّل: "الرُحّل، أو كما يدعون بعامة، البدو، يعيشون من مراكش حتى العربية السعودية حياة واحدة، عادات، وأخلاقاً، وهم بالضبط اليوم ما كانوا عليه منذ آلاف السنين وما سيكونون في الأرجح". ويضيف، بخصوص المقيمين: يختلف العرب المقيمون كثيراً عن الرُحّل الذين تحدثنا عنهم.... إن هؤلاء المتكلمين مع ذلك ذات لغة رُحّل الصحراء، نفس الدم يسيل في عروقهم، مع اتساع المسافة التي تفصل بينهم! يقدم العرب المقيمون فوارق بيّنة من بلد إلى آخر. ونفس هذه الفوارق موجودة في العربية السعودية. في إقليم نجد، الإقليم الأوسع من بعض دول أروبا، ثمة بين العرب فوارق عميقة كالتي تفصل قاطن شمال أروبا عن قاطن

جنوبها" وابن خلدون في تمهيداته، ينشر وجهة النظر هذه في الفرق الذي يميز المقيمين عن الرُحّل.

أما نحن، نوافق على رأي فيليب حتّي( )، الأكثر تنوعاً ودقة فيما يخص الفرق بين مقيمين وبدو. وهو يكتب: "في بعض الحالات، تطور البدو نحو الاستقرار التدريجي، والتجمعات البشرية هي شبه – راحلة وأحياناً شبه – مستقرة. بين هؤلاء صار البعض مقيمين وتركوا أشكال البداوة، بينما يتجه آخرون تدريجياً نحو الاستقرار. هكذا يبعث شريان التحضر وينصهر التياران. ونحن نرى في تخوم سوريا سكاناً في حالة وسيطة بين البيوت والخيم". وفيما بعد، يضيف هذا الكاتب: "يمثل البدوي بألمعية النموذج البشري الأقدر على التلاؤم مع محيطهِ". والكاتب ذاته، وفي العمل ذاته، يقسم العرب إلى شريحتين: " – عرب الشمال وهم أساساً بدو (نجد، الحجاز)، يتكلمون العربية (لغة القرآن) ويتصلون بشعوب البحر المتوسط في شمال شبه – الجزيرة – وعرب الجنوب وهم المستقرون (يمن، حضرموت، والمناطق الشاطئية) الذين يتكلمون لغة الجنوب – العربي (السبأية، الحميرية) ويتصلون بشعوب الألب (كالأرمن، الحثيين والعبرانيين)".

بداية كان المقيمون في الجنوب والرُحّل في البادية. وكان البدوي، حسب رسالته الرعوية، يصير فلاحاً - راعياً، إن وجد قرب الواحات الواسعة والمضيافة. يحرث الأرض في فصل (أو عدة فصول)، لتأمين الخبز (الحبوب) للعيال. ثم يرحل.

يجوب البدو مساحات طويلة وعريضة مع أسرهم وأنعامهم، بحثاً عن الرعي والماء. وغالباً، مع جفاف الجو، والحرارة القائظة، تجف الآبار، وتمسي المراعي سراباً، ويضطر البدو، بالألوف إلى الرحيل الدائم أبعد فأبعد، والصعود نحو الشمال، حيث يقدرون أن يعثروا على الماء ليهربوا من الجوع.

كانت العائلة تتألف على الأقل من الأب وزوجاته وأبنائه الذكور. يتزوج كل ولد عدة زوجات وينجب العديد من العيال. كثرة توالد البدو لا مهرب منها لأن الرجل كان متعدد الزوجات، من جهة ومن أخرى هو بحاجة لكثير من الأولاد الذكور للعمل في مجتمع رعوي، والتصدي لغزوات الجيران المحتملة، والتمتع بـ "ثقل" معين في القبيلة. ثمة إذن ثلاثة أجيال في كل أسرة. يمكن أن ينهض عدد الأفراد إلى المائة إذا حسبنا فقط خمسة أبناء للجيل الثاني، مع زوجاتهم وأولادهم. وإذا عددنا عشر أُسر في كل

قبيلة (وهذا أقل ما يمكن) وعشر قبائل في كل فخذ، نصل إلى رقم يتجاوز العشرة آلاف.
معروف أن البدوي ينتسب إلى فخذ معين، وكان كل فخذ مؤلفاً من عدة قبائل مرتبطة بدورها بأحد الجدود العصبية، ومنقسمة إلى أُسر (خيم). شيخ القبيلة مختار من شيوخ العشائر لخبرتهِ وشخصيتهِ. كان تضامن كل أعضاء الفخذ فعّالاً، وهذا ضروري للاستمرار في مواجهة الشروط القاسية. وكانت طاعة الشيخ أو الأمير، المتفقة مع مجلس القبيلة هي القاعدة.
إن تلاؤم مع الوسط، المتبدل باستمرار. وقد طور البدوي، بعض الملكات الدينامية والذهنية على مدى تاريخه. ينعت الخليفة عمر بن الخطاب البدوي هكذا: "البدوي أصل وجدّ العرب وعجينة الإسلام وجبلّته"؟
"يملك" كل فخذ منطقة رعي وانتجاع. ولم يكن مطروحاً – حسب الآداب البدوية – أن البدوي يرحل ليرعى أنعامهُ في منطقة غيره. وبخصوص مناهل الماء خارج منطقته، يقدم راعي القبيلة طلباً إلى مثيله في الفخذ الجار. إنما كون الماء حيوياً في البادية، كان الطلب مجاباً أبداً. إلا في حالة الحرب المفتوحة بين الفخذين.
في هذه الحالة إذن، تتجهُ القبائل إلى الشمال والغرب، ليس من أجل الإقامة، بل ليجني خبزهُ وماءهُ، للبشر وللسائمة. لأن البدوي الذي لا يخطط حياته، يذهب إلى حيث يجد شروطاً خاصة بمحيطه ووجوده.

٢ـ مختلف الموجات المهاجرة:

١,٢ـ الحقبة الأولى

أ – نحو الشمال:

في الحقبة الأولى التي امتدت آلاف السنين، اتجه الرُحّل نحو الشمال حتى تخوم الصحراء التي اعتبروها أرضهم. ربضوا عند الحدود الطبيعية التي تشكل البحر الأحمر والنيل، والبحر الأبيض المتوسط حتى أطراف سوريا، وما بين النهرين حتى الفرات.
هذا هو تعيين الصحراء الرملية كما وصفها غ، لوبون (في الصفحة ١٣ من كتابه). ويعلن بعض الكتّاب، المتأثرين بالعهد القديم (سفر التكوين) أن أصل العرب هو لدى البحث فيما بين النهرين (إبراهيم ولد في كلده). ويدافع كتاب آخرون، عن النظرية القائلة إن أصل العرب موجود في جنوب شبه الجزيرة العربية، ويستندون إلى:

- ليس مقبولاً أن تترك القبائل البقاع الخصبة ما بين النهرين (المروية بنهرين ضخمين) وتهاجر إلى الصحراء العربية.
- كل الهجرات، في كل الأزمنة، انطلقت من الأقاليم الصحراوية نحو الأقاليم الرطبة، أي من الجنوب إلى الشمال.
- إبراهيم، الذي يقال إن أصله في كلده، ولد في الألف الثانية (تقريباً) ق. م. إذن تقدم على وصول طلائع الموجات المهاجرة إلى شمال شبه الجزيرة العربية (أي إلى مناطق الهلال الخصيب)، وعبوراً بطريق سيناء، إلى مصر.
فيليب حتّي في "تاريخ العرب"، يؤرخ أوائل الهجرات العربية إلى الشمال هكذا:
- ٤٠٠٠ عام ق. م. إلى ما بين النهرين.
- ٣٥٠٠ عام ق. م. إلى مصر.
- ٢٥٠٠ سنة ق. م وصل الكنعانيون إلى الهلال الخصيب، وسماهم الإغريق، فينيقيين.
- بين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ عام ق. م. أقام الآراميون (السريان) والعبريون، في سوريا، لبنان وفلسطين الحالية.
- حوالي العام ٥٠٠ ق. م. أقام النبطيون في البادية.
ويعلن فيليب حتّي أن الموجات المهاجرة تتابعت، واحدة بعد الأخرى، دون توقف (استمر بعضها ألف عام). فكثافة الناس في الجنوب أوجبت الانتشار إلى الشمال.

ب - نحو الجنوب:

مازلنا في الحقبة الأولى، هاجرت بعض القبائل إلى الغرب (البحر الأحمر) و، أمام هذا المعلم الصعب، نزلوا نحو الجنوب، متابعين الشريط الضيق الصحراوي الذي يجاور اليمن الحالي. لم يستطع المقيمون في الأرض السعيدة أن يروا موجات القبائل تنتشر في أرضهم، تسرق حاصلاتهم، مراعيهم، تخرب قطعانهم، من غنم، ماعز، وإبل. وبالتالي منع البدو من دخول المنطقة، كقبائل ضخمة العدد. لم تطبق هذه الحالة طبعاً على البدو الذين لهم علاقات عائلية مع المقيمين من ذات الفخذ. لم يبق إذن، أمام هذه القبائل، لأن لا تباد، إلا اجتياز البحر الأحمر، من ثغرة مضيق باب المندب ذات العرض الآن ١٧،٥ كم . أفضى ضيق المعبر إلى اللجوء إلى الشط الإفريقي، بدءاً من الشط العربي.

يجتاز الرحّل، بشجاعتهم وحب المغامرة، والمتعلقون بحب الحياة، هذا المعبر المائي المالح، مع أسرهم وقطعانهم، على مراكب صغيرة.
سنرى في الفصل المكرس للملاحة عند العرب، أن هؤلاء لم يخافوا البحر. والبحر، عندهم، صحراء، إنما استبدل الرمل بالماء. هكذا وصلوا إلى الساحل الشرقي لأفريقيا وانبثوا في اثيوبيا، الصومال والسودان حيث وجدوا في الصحراء عينها شروط الحياة نفسها في الجزيرة العربية.
٢,٢ – الحقبة الثانية:
أفضت شروط الحياة في الصحراء الاحتمالية أبداً، عرضة للجوع، بحكم الواقع، إلى ذات النتائج: الهجرة نحو أجواء أرحب وأرحم.
تميزت هذه الحقبة بالهجرة من الصحراء العربية إلى الأقاليم التي ذكرت في الحقبة الأولى، ثم مع الوفود الكثيفة لمهاجرين جدد طردوا من سبقهم لأنهم أكثر أو أقوى، أو لأنهم تابعوا هجرتهم إلى أمكنة أبعد ولم يجدوا أرضاً أرحب.
تتابعت الهجرات نحو أرض خصبة ومضيافة. ما يؤخذ بعين الحساب أن هذه الموجات وجدت حيث استقرت أو عبرت، عرباً مثلها، ما سهل إقامتها إلى جانب من سبقها. بعد محطة طويلة إلى هذا الحد أو ذاك، تشجع المهاجرون على متابعة الترحال نحو أقطار مجاورة، أكثر فأكثر بعداً. وقد اضطرت القبائل طبعاً بعد أن استقرت في هذه الأراضي، أن يزدهوا بأهلهم ويفخروا بأنسابهم الذين بقوا حيث هم، لخصب وجودة شروط الحياة في أراضيهم الجديدة (الهلال الخصيب، ما بين النهرين، وادي النيل) وبتحسن وضعهم الاجتماعي.
من المعروف أن البدوي الراعي، في بعض مراحل تاريخه، يتحول إلى تاجر( ) أو مزارع ثم حضري. فالنبي محمد (ص) كان راعياً في فتوّته، ثم تاجراً، قبل نزول القرآن. نرى ذات الظاهرات عند مهاجري شمال – أفريقيين إلى أروبا في القرن العشرين (الرابع عشر الهجري: كل مدينة تصير نقطة استقبال أكثر فأكثر لمهاجرين، أصولهم من نفس الأسرة وذات الإقليم. هكذا هم عرب الجنوب. بعد وصولهم إلى الساحل الأفريقي، يصعدون نحو الشمال متابعين مجرى النيل أو الهجرة عبر المسافات الشاسعة الصحراوية من شمال إفريقيا.
فالعرب، لدى وصولهم إلى سيناء والضفة الشرقية للنيل، يجتازون هذا النهر، ينبثون في كل مصر ويتبعون الشط المتوسطي نحو الغرب، وينتشرون في الصحراء عرضاً وطولاً. وينضم العرب الوافدون من

الجنوب ومن الشمال إلى بعضهم على طول وادي النيل (في مصر) ويتلاقون في مطاوي الصحراء مترامية الأطراف، من الأطلسي إلى البحر الأبيض المتوسط.
إن الدراسات الجيولوجية والبيانية للتربة، التي تعلمنا أن منطقة الصحراء الشمال – أفريقية كانت سابقاً إقليماً أخضر مع بحيرات مياه حلوة، ومجاري مياه، تضم ثروة حيوانية ونباتية ضخمة، لا تناقض ظاهرة الهجرات نحو الغرب. بالعكس، لم تفضِ سوى إلى تشجيع هؤلاء الرحّل على الاستقرار في هذه الأرضي الخَصبة بالمراعي ومناهل الماء.، وتسهيل أو تسريع تنقلهم حتى الساحل الأطلسي.
من المنطقي القول إن هؤلاء العرب، تمكنوا من وجود تجمعات غير – عربية، قبل آلاف السنين من العهد المسيحي، في كل الأصقاع. ويثبت الواقع أن هذه المناطق استخدمت لهجات مشتقة من اللغة العربية (المصرية، البابلية، الآرامية، الآشورية، وسواها) وأن هذه الأقليات الأصلية امتصت من قبل الأكثرية العددية و/أو الحضارية للعرب وتعرّبت. وخلال آلاف الأعوام صاروا عرباً، وسماتهم الفيزيائية والخلقية لا تغاير هذا (كما يؤكد العديد من الكتّاب الأروبيين).
مادام الأمر هكذا، من أين يأتي أن كل كتّاب أروبا، وتلاهم كتّاب آخرون غير – أروبيين – وحتى عرب أحياناً – لا يتحدثون عن هؤلاء العرب كعرب بل يذكرونهم كساميين؟
تشتق كلمة سامي من كلمة Sem أو Sam أحد أبناء نوح، استخدمها الكتّاب لتضم كل الشعوب أو كل اللغات التي أصلها عربي( )، وقد استخدمت بعد الاكتشافات الآثارية والمخطوطات في هذه الأقطار، وبعد بدء الدراسة المنهاجية لتاريخ هذه الشعوب، قبل مجيء الإسلام.
استخدم مصطلح سامي لأول مرة وتداوله الغير منذ شولتزر Shultzer الكاتب النمساوي، في علم ١٧٨١ (١١٩٥ هـ).
في تلك الحقبة، كانت الإمبراطورية النمساوية في مزاحمة إقليمية في أروبا مع الإمبراطورية العثمانية، حامية البلدان العربية (مع تواجد عدة مستوطنات إسرائيلية) والمقامات المقدسة في فلسطين.
وفي أيام ماري أنطوانيت "النمساوية"، زوجة لويس السادس عشر (ملك فرنسا) وابنة الإمبراطورة النمساوية، هي ملكة فرنسا. كان الصرافون الإسرائيليون (بيرير، روتشيلد) سادة المال في فرنسا.

وفي عام ١٧٧٧ (١١٩١ هـ)، يقترض نيكر، المراقب العام للمالية، من المصارف، وبهذه سياسة الاقتراضية، يرتفع الدين الفرنسي في عام ١٧٨٠ (1194 H) إلى المليار. وفي عام ١٧٧٥ (1189 H)، يمنح لويس السادس عشر، بضغط من الإسرائيليين، حق المواطنة لهم جميعاً كباقي الفرنسيين. "التوافق" بين هذه البرهة، يوم شعرت الدولة الفرنسية بالضغوط المالية الإسرائيلية. وبين تاريخ استخدام مصطلح سامي في أروبا (لا سيما إذا لم يستخف بهيبة وسطوة اللوبي النمساوي في البلاط الفرنسي.

كشف عن محاولة الإسرائيليين الأروبيين ضمان تسمية سامي في أمكنة وجودهم، عوضاً عن التعبير اليهودي، الذي أخذ معنى حقيراً مهيناً في أروبا بعد ضغط المصارف الإسرائيلية وممارسة الضغط المصرفي مع ارتفاع فاحش بالفائدة، فضلاً عن موقف الكنيسة الكاثوليكية التي كانت قد وسمت اليهود كشعب قاتل، اصدر الفاتيكان قراراً في العام ١٩٦٠ (١٣٨٠ هـ)، بإلغاء هذا القرار بعد وساطات وتوسلات اليهود (المخادعين).

وباستخدام كلمة سامي، وما تتضمنه كمشتق سامي، تطرح عدة أسئلة:

- سميت اللغات التالية: الإيطالية، الفرنسية، الرومانية، الاسبانية، لغات لاتينية استناداً إلى نفس اللغة – الأم: اللاتينية. واللغات: الانكليزية، والنيرلاندية، الألمانية، السويدية، سميت لغات جرمانية استناداً إلى نفس اللغة – الأم: الجرمانية. وبالتماثل وضرورة الموضوعية العلمية، لمَ لا يسمي الكتاب بعامة، ولا سيما أولئك المختصون بعلم اللغة وفقه اللغة لغاتٍ عربية: المصرية، الآرامية، العبرية، الفينيقية، استناداً إلى أصلها الواحد؟

- هل الرغبة في استبطان مختلف الحضارات العربية، التي عاشت في مناطق من آسيا وأفريقيا، ولعدة عهود، يرجع بعضها إلى أكثر من خمسة آلاف عام ق. م. تسمى آشورية، كلدانية، مصرية...؟

- أو رغبة في حصر العربي قبل الإسلام في دور دائم وثانوي هو "البدوي نصف وحش"( )؟

- أم إنكار على النبي إبراهيم أنه من الأرومة العربية؟

- أم فصل القبائل العربية (فخذ بني – إسرائيل) عن عروبتهم( ) بالتملق لهؤلاء على حساب العرب الآخرين؟

- أم خلق مصادر يهودية – رومانية للدين المسيحي لاستبعاد الكلام عن مصادره العربية اليهودية؟

٣ – الحضارة العربية قبل الإسلام:

الصحرا Sahara، كما نعرفها الآن لم تكن دوماً جرداء. فتاريخها السحيق مجهول. يحدد بعض الكتاب هذا التاريخ نهاية العصر الجليدي في أروبا، أي منذ ثلاثة عشر ألف عام. وبسبب أحداث "طبيعية" لا يمكن إهمال نتائجها (سقوط نيزك ضخم على الأرض، اندفاع بركاني هائل، طوفان)، جف الجو فتحولت إلى صحرا Sahara. يتكلم أفلاطون عن جائحات عالمية هزت الكرة الأرضية كلها يوم ابتُلع الاتلانتيد Atlantide (القارة المبتلعة) حوالي العام ١١٠٠٠ ق. م. تضاعفت ردود الفعل في البحر الأبيض المتوسط واتسعت وتطابقت في كل مرة مع اتساع المحيط الأطلسي نحو بحر الشمال. وانعكس تقلب المياه في طريق الاستقرار في مد – عالٍ.

"تدعي رواية الكسندرية أن الناس كانوا يذهبون سيراً على الأقدام من مصر إلى قبرص. ويبدو أن الدلتا الشرقية كانت ملتحمة مع فلسطين بلسان أرضي خفي... ويصل جسر في الأرخبيل سابقاً بين مدغشقر والصحراء العربية وشبه – القارة الهندية"( ).

كانت الصحراء العربية آنئذ منطقة غابية، خصبة، تقطعها عدة أنهار، ومملكة حيوانية اختفت الآن (أسود، فيلة، نعام، قرود، وسواها). من هذا الماضي البعيد بقيت الآن (اليمن الحالي، الأرض الخصبة والغنية). يوافق كل الكتّاب أن هذه المنطقة كانت مهد العرب.

ونحن نستعير من غ. لوبون ما يلي: "الوثائق (أخبار تاريخية قديمة عربية، قصص توراتية، عدد من النقوشات كالنقوشات والمخطوطات الآشورية أو التي اكتشفت قرب دمشق، من قبل كتّاب كلاسيكيين) متفقة فيما بينها بشكل مُرضٍ على أن اليمن كانت مركز المدن المزدهرة بالتأكيد كمدن مصر العتيقة، وذات حضارة متقدمة. تنام آثارها اليوم تحت الغبار. وبذخ مدن اليمن الكبرى واضح في قدم وسعة علاقاتها التجارية. ويصعب بالفعل أن نذكر في التاريخ شعباً ذا علاقات تجارية واسعة وليس له حضارة. كانت العلاقات العربية تمتد حتى حدود العالم المعروف والمستمر عبر عصور غابرة جداً ذكرت في التوراة". ويضيف في (صفحة ٦١): "رغم عدم كفايتها، تتمم البقايا الآثارية بشكل مفيد المعلومات التي أخذناها من كتاب قدماء وتخولنا أن نتشوف في ماضي العالم العربي حضارة متألقة منسية اليوم وما نزال ننتظر تاريخها".

كـان العـرب الـذين هـاجروا نحـو الأراضـي والقـارة المجـاورة، منـذ آلاف السنين. إذن، ورثة حضـارة متألقـة وكـانوا يعرفـون حرفـة البنـاء (عمـارات مـن عـدة طبقـات، سـدوداً، وحـواجز)، التقنيـات الزراعيـة، جـر الميـاه، التجارة، ملاحة أعالي البحـار، الرصـد الجـوي، والأدب... يـتكلم غ. لوبـون عن الثقافة العربية بهذه العبارات: إن الأدب واللغة لا يرتجلان، ووجودهما قرينة على ماضٍ مديد. العلاقـات العتيقـة مـع الأمـم الأرقـى حضـارة تنتهـي أبـداً بالتوجـه إلـىً حضـارة الشـعوب الأكثـر جـدارة بهـا: وقـد بـرهن العـرب بشكل مرضٍ أن هذه هي حالتهم، هو وضعهم. ولينجحوا أخيراً بخلق خـلال أقل من قرنٍ إمبراطورية شاسعة وحضارة جديدة( )، احتاجوا إلـى كفـاءات كانت أبداً ثمرة تكديسات تراثية مديدة، وبالتالي لثقافة سابقة عميقة".

قبـل العصـر المسـيحي بعـدة ألـوف مـن السـنين، إلـى جانـب حضـارة شـبه الجزيرة العربية، أسس العرب حضارات أخرى علـى ضـفاف الفـرات (مـا بين النهرين)، على ضفاف النيل (من مصر إلى اثيوبيا).

بعد هذا التطور الحضاري، لم تصرم هذه المناطق العديدة حبل السرّة الـذي يـربطهم مـع بلـدان الأصـل، مـن حيـث العلاقـات الاجتماعيـة التاريخيـة، التجاريـة، الثقافيـة أو الدينيـة وبمختلـف الـدرجات. قد تعـارض مصـالح هـذا البلد أحياناً مصـالح بلد جـار وتفضـي إلـى حـروب مـع هيمنـة سياسية لإقليم على آخر، بلد على آخر، كما يحدث الآن في العالم.

سنذكر ببساطة هذه الحضـارات العربيـة المسـماة "سـامية" وجعلهـا تترافـق مع نقاط استدلال لكي نعي موضوعنا جيداً.

٣,١ ـ فيما بين النهرين والهلال الخصيب:

مهد هذه الحضارات هو أساساً وادي النهرين (دجلة والفرات) وفـي الهـلال الخصيب تقع الآن أساساً العراق وسوريا.

أ ـ الحقبة السومرية: ٥٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق. م.

ب ـ الحقبة الأكادية: ٢٧٤٠ ـ ٢٢٨٣ ق. م.

شيدت الإمبراطورية الأكادية في ٧٤٠( ) على يد سرغون.

ج ـ أسرة أور: ٢١٥٠ ـ ٢٠١٦ ق. م.

د ـ الحقبة البابلية: ١٨٩٥ ـ ١٢٥٥ ق. م.

وفي عام ١٨٩٥ ق. م. كان سومو أبوم ملكاً في بابل. وابنـهُ حموارابي ملكـاً فـي ١٧٩٢ ق. م. وهـو المؤسـس الحقيقـي لإمبراطوريـة بابـل. وقـد وضـع مجموعـة القـوانين المقدسـة، بصـفة توحيديـة Monotheistes وحملـت اسمه. أكان تلميذ ابراهام؟

نذكر أن إبراهيم ولد في هذه الحقبة من الزمن، وهرب من بابل، الوثنية أو عابدة الأوثان. إذن يمكن الافتراض أن الملك حمورابي، الذي حكم بعد هجرة ابراهام (الذي مات في عمر مائة وخمس وسبعين عاماً، حسب العهد القديم)، كان قد تأثر بالرسالة البراهمية.

هـ - الحقبة الآشورية: ١٢٥٥ – ٦٢٥ ق.م.

في العام ١٢٥٥، تسنم توكيلتي نينورتا الأولNinutra 1 er Tuqlti العرش. وخلفهُ عدة ملوك هم: آشور – نازربال، سلمانازار الثاني، سارغون الثاني، سنحاريب (الذي سيدك بابل في العام ٦٨٩ ق. م).

وفي العام ٦٧١، احتل الآشوريون مصر إنما لعدة سنوات فقط.

ويدخل آشور – بانيبال منتصراً إلى فارس في العام ٦٤٦ ق. م، من منطقة عيلام.

يعلمنا غ. لوبون أن "النقوشات أو الكتابات على الرقم أو القبور أو سواها، تحدثنا غالباً عن العرب، إنما فقط عرب الشمال، أي عن سوريا والأقاليم المجاورة. ذكر العرب في نص لسلمانازار الثاني قبل تسعة قرون من مجيء يسوع المسيح J.C وق. م. بحوالي ثمانية قرون يتلقى تغلاتغا نصر الثاني بيعة أو ولاء ملكتين عربيتين. ويضع حسار حادون في العرش أميرة عربية نشأت في بلاط نينيفيا. وفي حكم آشور بانيبال، دعمت الجيوش العربية تمرد أخ الملك"؟

و – الحقبة الكلدية: من العام ٦٢٥ – ٥٣٩ ق. م.

أشهر ملوكها بنو ختنصر (٦٠٤ – ٥٦٢).

وفي العام ٥٣٩، يحتل سيروس الثاني إمبراطور الفرس بابل وتنتهي مملكة بابل. وفي ٣٣١ ق. م، يحتل الاسكندر الكبير فارس ويأخذ بابل عاصمة له، ويموت في هذه المدينة في العام ٣٢٣ ق. م.

وفي العام ١٢٩، يغزو الفرس ثانية بين النهرين ويبقون فيها حتى العام ٦٣٧ (١٥ هـ) يومئذ دخل المسلمون إلى هذه المنطقة.

معالم أو نقاط دلالية:

يضم غ. لوبون بين النهرين والهلال الخصيب إلى شبه الجزيرة العربية.

واللغات المتداولة، طيلة هذه الحقبة في ما بين النهرين والهلال الخصيب هي الأكادية، الآرامية، الحمورية... كلها لغات عربية تسمى "سامية".

واستناداً إلى غ. لوبون، "تدل دراسة اللغات المسماة سامية بالفعل أن العبرية، الفينيقية، السريانية، الآشورية والكلدانية والعربية وتشملها قرابة حميمة وبالتالي جذر وأصل واحد".

أسماء الملوك والأمكنة عربية: نأخذ مثلاً: نبوخذ نصر يعني بالعربية نبو Nabu المنتصر، آشور – بني – بال، بالعربية آشور ابن بعل.
القسمات الفيزيائية عربية. يستشهد غوستاف لوبون بـ م. جيرار ويرى النموذج البشري الأكثر انتشاراً لدى العرب، "لدى الإسرائيليين، السوريين والمصريين القدماء والمعاصرين" والنموذج البشري الثاني عربي، "أغلظ"، يوجد "لدى الآشوريين الذين يمثلون هذا النموذج تمثيلاً تاماً"؟

ملحق أول

قرابة اللغات الآشورية، البابلية، العبرية، الآرامية، الأثيوبية
مع اللغة العربية
(عبر بعض الأمثلة)
لوحة مأخوذة من كتاب
"تاريخ اللغات السامية"

عربي	أشوري عبري	آرامي	لغات جنوب الجزيرة والحبشة	
أب	ابو	اب	أبا	اب
ابن	بنو	بن	برا	بن
أخ	أخو	اخ	أخا	أخو
أخذ يأخذ	اخوز	احز ياحز	أحد نحور	أخز ياخز
أذن	ازنو	ازن	اودنا	ازن
ام	أمو	ام	اما	ام
انسان	نشو	انوش	ناشا	انش
بئر	بورو	بور	برا	بئرسبئي
برق	برقو	بارق	باراق	مبرق
بعل	بلو	بعل	بعلا	بعل
بكر	بكرو	بكور	بكرا	بكر
بنت	بنتو	بت	برتا	بنت
بيت	بتو	بيت	بيتا	بيت
تسع	تشو	تشع	تشع	تشع
ثلاث	شلاشو	شلوش	ثلاث	شلاس
ثمان	شمانو	شمونه	ثمانا	سماني
ثور	شورو	شور	ثورا	سور
ثوم	شومو	شوم	ثوما	سومات
جمل	جملو	جمل	جملا	جمل
حبل	ابلو	حبل	حبلا	حبل
حفر يحفر	حفر	حفر يحفر	حفر	حفر

حقل	أقلو	حلق	حقلا	حقل
حمار	امرو	حمور	حمارا	حمار
خبل	خبل	حبل يحبل	حبل	خبل
خمس	خمسو	حمش	حمشا	خمس
خنزير	خمسر	حزير	حزيرا	خنزير
دبس	دشبو	دباش	دبشا	دبس
دم	دمو	دم	دم	دما
ذنب	زيبو	زاب	دابا	زاب
ذنب	زباتو	زاناب	دوبنا	زناب
رأس	رشو	روش	ريشا	راس
رحم	ارم	رحم	رحم	رحم
ركب	ركب	ركب	ركب	ركب
زرع	زرو	زرع	زرعا	زرع
سبع	سبو	شبع	شبع	شبعو
ست	ششو	شش	شتا	سسو
سلم سلام	شلمو	شلم شلوم	شلما شلم	سلم سلام
شن	شتو	شن	شنا	سن
سماء	شمو	شمايم	شمايا	سماي
شمس	شمشو	شمس	شمشا	شمس
شعر	شرتو	سعار	سعرا	سعرت
صرخ	صرخ	صرح	صرح	صرخ
صرة	صرتو	صاراه	عرتا	صر
طحن يطحن	أطن	طحن يطحن	طخن نطخن	صحن
طيب	طبو	طوب	طبا	طيب
ظفر	حبرو	حبرن	طفر	ظفر
ظل	صلو	صل	طلا	صللوت
عشر	عشرو	عسر	عسر	عشرو
عظم	عصمتو	عصم	عطما	عضم
عقرب	عقربتو	عقرب	عقربا	عقرب
عين	إنو	عين	عينا	عين

فتح	إيت	فتح	فتح	فتح
فم	يو	يه	يوما	أف
قرن	قرنو	قرن	قرنا	قرن
قمح	قمو	قمح (دقيق)	قمحا (دقيق)	قمح (فاكهة)
كبد	كبتو	كابد	كبدا	كبد
كلب	كلبو	كلب	كلبا	كلبا
كليه	كلتو	كليه	كلثا	كلت
لبس	لبش	لبش	لبش	لبس
لسان	لشانو	لشون	لشنا	لسان
ليل	ليلتو	ليله	لليا	ليله
ماء	مو	مايم	مايا	ماي
مائة	ماتو	مأه	ماأ	ماآت
مر	مرو	مر	مرنمو	مرا ممرا
ملك	ملكو	ملك	ملكا	ملكي (سيد)
موت	موتو	موت	موتا	موت
نسر	نشرو	نشر	نشرا	نشر
نفس	بنشتو	نفش	نفشا	نفس
نمر	نمرو	نمر	نمرا	نمر
ود	ود	يدد	يد	ود
ورق	ورقو	يرق	يرقا	ورق (الذهب)
ولد	ولد	يلد	إيلد	ولد
يلد	إدو	يد	إبدا	اد
يوم	أمنو	يوم	يوما	يوم

يصف العديد من الكتّاب (ج.ل.برنـارد)( )، وفيليب حتـى( )،....) أن ابنـاء بـين النهـرين أثنيـه عربيـة ولـيس أثنيـه سـامية، مـا يثبت عند الحاجـة، عدم الشك بأصلهم.

٢,٣: في مصر( )

تشكلت فـي مصـر، قبـل عدة آلاف من السنين أول مملكـة متحدة، إمـارات كثيـرة فـي الشـمال والجنـوب، ثـم اتحـدت هـذه الإمـارات لتشـكيل مملكتـين: مملكـة الشـمال ومملكـة الجنـوب بعـد وصـول موجـات الهجـرة القادمـة مـن

الجزيرة العربية قبل أكثر من ستة آلاف سنة من العهد المسيحي واحتلال هذه البلاد من قبل أولئك المهاجرين. وتم انصهار عنصرين بشريين (العرب وأبناء البلاد الأصليين) وتشكلت مملكة واحدة مع مينا Mena (أومينا Oumine)( ) كملك، قبل خمسة آلاف عام من العهد المسيحي، الذي عظّمهُ أبناء مصر واعتبروه ابن هوريس (هور هو اسم ديانة عربية لدى وثنيي الجزيرة العربية وكان رمزها النسر).
يقسم الكاتب أحمد كمال تاريخ مصر إلى ثلاث أسر مالكة، وكل أسرة على عدة عائلات:
- الأسرة الأولى، مؤلفة من إحدى عشرة عائلة، من حوالي العام ٥٠٠٠ إلى العام ٢٠٠٠ ق.م.
- الأسرة الثانية، مؤلفة من ست عائلات، من العام ٢٠٠٠ إلى العام ١٥٨٠ ق.م. تبدأ بعهد الهيكسوس.
- الأسرة الثالثة، مؤلفة من أربع عشرة عائلة (منها اثنتان من فارس) من العام ١٥٨٠ حتى العام ٥٦٠ ق.م.
ما يشكل إجمالاً إحدى وثلاثين عائلة حاكمة.

أ: الأسرة أو السلالة الأولى:
بدأت حسب بريستد Breasted في العام ٣٤٠٠ ق.م.، وحسب أحمد كمال في العام ٤٤٠٠ ق.م. وحسب شاريوم Sharwym وأنطون ديكرا Dikra Antoun في العام ٥٠٠٤ ق.م.
شيد الفرعون خوفو (يسميه الأروبيون شيوب Cheops)، وهو من العائلة الرابعة، أكبر أهرامات الجيزه.
وشيد الفرعون خفرع Khal – Ra (يدعوه الأروبيون شيفرن Chephren، الأهرام الثاني.
وشيد مانكو – رع Menkou – Ra (Mykeriros لدى الأروبيين) الأهرام الثالث. وآخر ملوك هذه الأسرة هو مانتو – حتب الرابع Mentou Hatb iv.

ب: الأسرة الثانية

يحمل أكثر ملوك هذه الأسرة اسم: اسماكر، سينوزرت وامنموحات.
حكمت عائلة الهيكسوس (أو الملوك – الرعاة) من العام ١٧٣٠ – ١٥٨٠/ق.م. استناداً إلى ج.ل. برنارد( ) "تحت ضغط الهيكسوس، وهم من "عرق مجهول"، انتشر عدد من القبائل العربية – السامية، في إنحاء

الـدلتا وأقـاموا فيهـا". ويـرى غ. لوبـون( ) أن "هـؤلاء فـي الأرجـح هـم الأماليون Amaleiites الذين، بالاشتراك مع قبائل سورية، غزوا مصـر العـام ٢٠٠٠ ق.م. باسـم الملـوك الرعـاة، وبسـطوا سـطوتهم خـلال عـدة قـرون". بهـذا المعنـى، غ. لوبـون متفـق مـع الكاتـب اليونـاني مـانتون Manethon الـذي يكتـب أن هـؤلاء المحـاربين قـدموا مـن منـاطق فـي الهـلال الخصـيب وكونـوا الحـوريين، الحثيـين، الآراميـين، الامـاريين، الكنغـانيين أي هم جميعاً عرب نذكر أن النبـي أبراهام أقـام فـي مصـر فـي عهد الملوك – الرعاة.

جـ: الأسرة الثالثة

يحمـل العديـد مـن ملـوك هـذه العـائلات اسـم أمونحتـب، ياحـاتمس، بيـنهم أمونحتب الرابع أو آكحن – أتون، زوج نفرتيتي. وثمة توت – أنك – آمون الشهير، وحـور – موحـب، الـذي صـار فيمـا بعـد فرعـون، هـو قـائد جيـوش توت – أنك – آمون نفسه.

ترحل الملكة حاتشباسوت، التي تسلمت العرش لدى موت أخيها وزوجها، تحاتمس الثـاني، بزيـارة رسـمية إلـى بـلاد البونـت (العـرب) (اليمـن) لجلـب البخور، النباتات العطرة، الذهب ومواد أخرى( ).

يعيـد الملـك أكحـن – أتـون (أمـو نحتـب الرابـع)( ) تنظـيم الـدين المصـري (عبـادة أمـون) ويحولـهُ إلـى ديـن موحـد (أمـون، الله أحـد). وتسـجل أيضـاً عائلات ملوك – رع – مسيس (رمسيس)، سيتي (ستحي).

يحتل الفرس مصـر فـي العـام ٥٢٥ ق.م ويصـير قائـدهم قمبيـز الثـاني ملـك مصـر. وبعد عقود من السنين، يطـرد المصـريون الفرس، فـي العـام ٤٠٤، بالتعاون مع اليونان. ويحتل الفرس ثانية مصر في العام ٣٤٠. ثم يـدحرهم الاسكندر الكبير في العام ٣٣٣ ق.م. ويغزو مصر، سوريا ثم فارس ذاتها.

وتصـير مصر مستعمرة يونانيـة ثـم رومانيـة (وبيزنطيـة) حتـى العـام ٦٤١ (٢٠ هـ)، بمجيء الإسلام.

معالم أو نقاط دلالية:

اللغة المصرية لغة عربية، مشتقة عن الحميرية – جنـوب – عربيـة. حسـب بعـض الكتّـاب( )، دخلـت نـواة الكتابـة الهيروغليفيـة إلـى مصـر قبـل خمسـة آلاف سنة من الميلاد على يد الموجات العربية المهاجرة وتبدو هذه الكتابـة مستقرة في ظل حكم الأسرة الأولـى (كما تشـهد الكتابـات المصـرية بواسـطة الخـاتم المصـري، واللغـة المصـرية التـي هـي خلـيط مـن الحـروف، الرمـوز

الصـور، كانـت، فـي البـدء سـجينة لـدى شـكلين: شـكل مـورث والشـكل (المبسط) باختلاف مستخدميه، والشكل الأخير للتجارة، والتراسل الدنيوي، وغيرها...)، لكنها بقيت صعبة الاستعمال بسبب غياب الأبجدية، أسماء الملـوك والأمـاكن عربيـة: Menet يصـير Memphis (اسـم جـد النبـي محمـد هـو منـاف)، Mohib (كلمـة تعنـي "محبـوب" بالعربيـة ولهـا ذات المعنـى فـي مصـر ونـرد بـين أسـماء الملـوك)، و Tines يصـير Tanis (مدينــة مصــرية)، ويقتــرب مــن Tunis (عاصــمة الدولــة التونســية) أو Tenes (مدينـة فـي الجزائـر)، Taiba تصـير Thebes، Khoufou تصير Cheops، Khap – Rachephren و – Ra Menkou، Mykerinos.

Masrou أو (Egyrte) Misr مذكورة بالتوراة، وهي كلمة عربية تعني إقليم أو مصر أو قطر، الخ... ونفرتيتـي، اسم ملكـة مصـرية يمكـن أن يفهم بالعربيـة "نفرجـاء"، أو جـاء نفر، كمـا نـرى، أفقد تسـجيل أسـماء الملـوك، المدن، المحلات لدى المختصين الأروبيين بدراسة مصـر، بطـريقتهم، هذه الأسـماء والأمكنــة السـمات والتسـكين العـربيين الموجـودين فـي الكتابـات القديمة الأصلية.

إن الهجرات البشرية العربية نحو مصر لم تنقطع أبداً: وكانت تحمل دماً جديداً، وتستوعب بسرعة، مدللـة بهذا أن الموروثـات الاجتماعيـة والدينيـة في المجتمعين كانت متماثلة وأن اللغات كانت قريبة جداً من بعضها.

وأسماء الديانات المصرية هي نفسها في الجزيرة العربية الوثنية (Hor هو اله السماء، Sin، المشتق منه اسم سيناء، هو اله القمر). وفـي عهد العائلـة الثامنة عشرة، أقامت قبائل كنعانية في منطقة القاهرة الحاليـة وأعطـت اسم إلهها Hor أو Hol إلى Sphinx أبو الهول( ).

كـان التصـبير والتحنيط مستخدمان لـدى عـرب الجنـوب مـن شـبه الجزيـرة العربية ويستعمل هؤلاء لهذا الأمر البخـور والمواد المخصصـة الموجـودة فـي الـيمن. يـأتي المصـريون إلـى هنـا ليتمونـوا ويسـتخدموه فـي طقوسـهم الحزينة وكان الختان أمراً مفروضاً على كل مصري ذكر.

يرجـع التـراث المصـري أصـل المصـريين إلـى بـلاد Boun ( ) (أو Pount) ويعلن أن هذه المنطقة كانت مقدسـة. يكتـب ديـودور ابـن سيسـيليا أن أصل "قـدماء المصـريين مـن جنـوب الجزيـرة العربيـة وقـد وصـلوا إلـى مصـر عـن طريـق أثيوبيـا والسـودان (سـكان أثيوبيـا والسـودان مـزيج مـن العرب والسود الأفريقيين)".

وللغة المصرية والعربية، حسب ديودور ابن سيسيليا، نفس الأصل.
واليونان، الذين احتلوا مصر حوالي ألف عام، استبدلوا (جزئياً) اللغة المصرية باللغة اليونانية، ورغم الوحدة الدينية (المسيحية)، لم يفرضوا طابعهم الخاص في هذا البلد، بعكس العرب المسلمين. فقد استقبل هؤلاء كمحررين (من قبل الوثنيين والمسيحيين الأقباط).
خلطت أثيوبيا لمدة طويلة مصر في تاريخها، وحتى العائلة الخامسة والعشرين، يحكم ملوك مصر أثيوبيا ويحكم ملوك أثيوبيا مصر، لأن المملكتين كانتا متحدتين( ) وكذلك كان التشابه في فن البناء( ). أحصي في أثيوبيا أربعة وعشرون أهراماً من النموذج المصري.
كما وصل العرب قبل الإسلام إلى مصر بالطرق العادية من الجنوب (أثيوبيا) ومن الشمال (خليج السويس)، وبمجيء الإسلام، ولج المسلمون أثيوبيا ومصر بنفس الدروب، وأقاموا جالياتهم إلى جانب أخوة الماضي.
والثوب المصري الذي نراه على الوثائق والأنصاب المصرية، هو الجلباب، المشابه للجلباب الذي يرتديه اليمنيون، حتى اليوم.
والعمرة المصرية هي نفسها تصادف عملياً في الجزيرة العربية، التي تغطي الرأس، الأذنين والقذال.
يكتب ج.ل. برنارد بخصوص علاقات مصر المتينة مع عرب شبه الجزيرة ما يلي:
"هرب أحد أشراف طيبة (طيلة حكم سنوسرات) المسمى سنوحيت، المشترك في أحدى المؤامرات إلى بلاد Retenu (سوريا وفلسطين) حيث استقبله الأمراء العرب الذين يعرفهم في القصر الملكي، بل اقترن بابنة الشيخ، وصار سيد القبيلة، ثم جنرالاً لدى الأمير، وعند عودته إلى مصر، وبإذن الفرعون، كتب مذكراته وتشد قصته النخبة في العالم العربي الذين يعيشون في Retenu التي، في ظل الإمبراطورية الجديدة، دخلت في المدار المصري، وخوفاً من هجوم السود على حدوده الجنوبية، جدد الفرعون اتحاده مع خصم الأمس، العربي الراحل (البدوي) على الشط الشرقي للنيل، لإقامة جبهة مشتركة".
٣,٣: في البحر الأبيض المتوسط وفي شمال شبه الجزيرة العربية:
سكن العديد من القبائل المذكورة في التوراة ولدى الكتاب القدماء الكنعانيين، الفينيقيين، الآراميين، الأموريين وسواهم، الذين تكلموا كلهم العربية وهم من أرومة عربية، شواطئ المتوسط، (شرق النيل) وداخل البلاد (فلسطين، الأردن، لبنان وسوريا الآن).

ويؤكد ج.ل. برنارد هذا، فيقول: "مع إمبراطورية طيبة الجديدة، التي بدأت مع أحموسيس، ينصب الاهتمام، أكثر فأكثر، للإضرار بالنوية Nubie، على مملكة كنعان. في هذا العهد قبل – العبري يبدأ الاحتلال الدائم لبلد التوراة، كنعان تعبير، بابلي كان عديله المصري Retenou (سوريا وفلسطين)، يشمل الساحل كلّهُ، ويعزى لأرومة عربية، سامية. أتت هذه القبائل من شبه الجزيرة، وقد دفعهم جفاف أرضهم الأصلية إلى الشط. وهنا سرعان ما انضم إليهم الفينيقيون الذين، بعد أن طردتهم من البحر الأحمر الهزات الأرضية، استقروا في الشمال... لم يدخل الفينيقيون البحر المتوسط إلا بعد تهدم البحرية الكريتية، في حوالي القرن الخامس عشر ق.م. عندما حطم برمان سانتورين الحضارة الايجية في كريت والجزر، وطمر تحت الرماد صادوم وعموره، المدينتين الكنعانيتين. أرّخ هذا كربون ١٤، Carbone". وأقامت قبائل أخرى، من أرومة عربية ولغة عربية، كالقرطاجيين، النوميديين، الموريتانيين، الليبيين والجيتول، الخ... في الشمال – الأفريقي، من ليبيا حتى أعمدة هرقل.

أ - مملكة الأنباط: القرن السادس ق.م. – العام ١٠٦ ب.م.

الأنباط، الذين استقروا في جنوب فلسطين وسوريا، هم جماعات سماهم اليونان Nabataei: يرد أسمهم في كتابات كتاب مثل ديودور ابن سيسيليا، وجوزيف فلافيوس واسترابون، والأطلال المكتشفة في البتراء عاصمة البادية العربية (وغيرها). أسس الأنباط مملكتهم في القرن السادس ق.م. وعاهلهم الأول الذي يرد في الوثائق المكتوبة هو Aretas الأول أو الحارث العام (١٦٩ – ١٤٦ ق.م.)، استعمل الأنباط الكتابة الآرامية (أسلوب الأنباط قريب من أسلوب الكوفة) وتكلموا اللغة العربية والآرامية( ).

حوالي نهاية القرن الرابع ق.م.، استغل الأنباط تشتت القوات اليونانية ونشروا مملكتهم من غزة حتى إيلات. والبتراء، عاصمتهم، تصير ملتقى الدروب التجارية بين اليمن، سوريا ومصر، دام هذا أكثر من أربعمائة سنة.

يتكلم ديودور ابن سيسيليا عن القوة القتالية لهذه المملكة وأهميتها التجارية يقول:

" هزم الأنباط في إحدى غزوات نتيفون، كان حاكم يوناني في سوريا، في العام ٣١٣ ق.م.)....

وأسس بتولميه الثاني (في القرن الثالث ق.م.) أسطولاً تجارياً هاماً للتموّن مباشرة من جنوب الجزيرة العربية، دون المرور في البتراء".
الحارث الثالث (العام ٨٧ – ٦٣ ق.م.) هو أشهر ملوكهم. هزم انتيوشس ديونيسس قائد سلوسيد( )من سوريا إلى قانا (قرب يافا) في العام ٨٦. ثم حرر هذا الملك دمشق في العام ٨٥ ق.م. وهزم في نفس الحقبة أيضاً ألما كابيين (إسرائيليين) في الحديدة (قرب اللد، ووسع مملكته على حساب المنهزمين.
تظاهر الأنباط، بناء على طلب الرومانيين، بقيادة يوليس غالس لغزو اليمن، أنهم يساعدون هؤلاء، قبل سنين من العهد المسيحي. قادهم صالح، وزير عند ملك الأنباط، إلى عمق الصحراء وتركهم بدون قيادة ولا دليل. وحلت المأساة بهؤلاء الرومان الذين مات أكثرهم عطشاً.
صك ملوك الأنباط النقود، على صورتهم، زوجاتهم كن أخواتهم، كما لدى المصريين.
ومع تراجان، الإمبراطور الروماني، أفل نجم مملكة الأنباط في العام ١٠٦ب.م. وصارت هذه المنطقة ولاية عربية، لتحول دون غزو البدو لسوريا الواقعة تحت الحماية الرومانية.
كان الأنباط أساساً تجاراً، وكغيرهم من العرب كانوا، الوثنيين. اعتنقوا الديانة المسيحية في القرن الثالث.
وصارت البتراء بعد تنصّر المنطقة، مركز الأسقفية.
ب/ المملكة التدمرية: العام ١١٠٠ ق.م. حتى العام ٢٧٣ ب.م.
تدمر، أصلاً، منهل ماء. أقام البدو في هذه الواحة، وفيها أقاموا حاضرة.
تدمر مدينة تقع قرب حمص (في سوريا)، على الدرب الذي يصل دمشق بوادي الفرات. بهذه الصفة، كانت مركز الصلات التجارية بين سوريا وما بين النهرين.
سماها الإغريق بالمير، بعد احتلالها بقيادة الإسكندر، استناداً إلى حدائق البلح العامرة الغناء، يظهر اسم تدمر لأول مرة على نقوش ملكها الأول، تاجلات بالاسير الأول، في العام ١١٠٠ق.م.، نسبة إلى حروبها ضد العموريين.
وفدت إليها قوافل الرومان بل الحملات بدءاً من العام ٤١ ق.م. لغناها وأهميتها الإستراتيجية. وفي العام ١٠٦ ب.م. دخلت تدمر في الفلك الروماني وسميت ادريانابولس (اسم الإمبراطور الروماني) في العام

١٣٠. ثم تصير مستعمرة رومانية (نهاية القرن الثاني وأضيف، إلى أسماء العرب التدمريين، أسماء رومانية.
أفاد التدمريون من ضعف الرومان، المنكبين على حروبهم مع الساسانيين( ) من أجل التحرر. ويصير قائدهم أذينه بن حيران ملكاً في العام ٢٥٠ وتتسع مملكتهم على حساب الفرس. وعند موته، في العام ٢٦٧، يصير ابنه الفتى واحبالات ملكاً، وتسمى أمه زنوبيا وصية.
كانت هذه الأم الوصية، البدوية، تتكلم اليونانية واللاتينية إلى جانب لغات المنطقة (العربية، الآرامية، المصرية، والآشورية) وظل اسمها خالداً في تاريخ الملكات العربيات. غزت مصر قتالياً إنما لفترة قصيرة، وسّعت مملكتها في آسيا الصغرى ووصلت إلى حدود فارس. ودفعها طموحها إلى تحدي روما. لكن الإمبراطور أورليان دحر الجيوش التدمرية في مصر وسوريا، ودمر عاصمتهم، تدمر، في العام ٢٧٣.
تكلم التدمريون العربية والآرامية. وهم عبدة أوثان وإلههم الأول بال (أو بعل)، اله الشمس، المعروف في كل ما بين النهرين وحتى فينيقيا.
اعتنق التدمريون المسيحية في الشطر الثاني من القرن الثالث.
ج - المملكة الغسانية: القرن الثاني ب.م.... العام ٦٣٤ (١٣هـ).
أصل الغساسنة في اليمن وهاجروا إلى مناطق الهلال الخصيب بعد انهدام سد مأرب (وقع الهدم الأول في العام ١٢٠م) استقروا بالقوة في هذه الأرض ودحروا محتليها السابقين، ابناء قبيلة دجاعاما.
أول ملك ذكره الكتاب (مثل تيوفانس) كان جبله بن الحارث بن ثعلبه الذي احتل فلسطين في العام ٥٠٠م. والملك الأشهر هنا هو الحارث بن جبله (٥٢٩ – ٥٦٩) معاصر الإمبراطورين جوستنيان وخسرس. سماه الرومان ملكاً واعتمدوا عليه، في حربهم ضد الفرس وحلفائهم العرب في فارس (المناذرة). تحالف الحارث من حين إلى آخر مع القائد البيزنطي بلزير Belizaire ضد الفرس أو حارب وحده عرب الحيرة، حلفاء الفرس. بعيد الهدنة الفارسية – البيزنطية، في العام ٥٤٦، قُتل ملك الحيرة المنذر في المعركة، في العام ٥٥٤. دامت المملكة الغسانية حسب غ. لوبون خمسمائة سنة.
كان الغساسنة مسيحيين (من طبيعة واحدة)( ) وأثروا على القبائل العربية الأخرى في فلسطين، وشمال سوريا والولاية الروماني في قبول النحلة اليعقوبية.

بعد دخول الفرس إلى سوريا، في العام ٦١٣، وقد بقوا فيها حتى العام ٦٢٩ (٧هـ)، انهارت المملكة الغسانية وتكتل السكان بمصاهرات: اتحد بعضهم مع الفرس، وآخرون مع البيزنطيين، وهاجر ما بقي إلى Coppadoce.
وللحؤول دون انتشار الإسلام في سوريا، اتحد الغساسنة مع البيزنطيين. ودحروا في معركة اليرموك في العام ٦٣٤ (١٣ هـ). ثم اعتنق الغساسنة وكل سكان سوريا الإسلام.
د - مملكة المناذرة: القرن الثاني الميلادي العام ٦٣٣ (١١ هـ) :
أصل المناذرة من جنوب الجزيرة العربية، اتجهوا مهاجرين إلى الخليج العربي (أو الفارسي) وإلى وادي الفرات بعد انهيار سد مأرب. استقروا بداية في شمال الخليج العربي (البحرين الحالية)، أفادت هذه القبائل من ضعف مملكة Parth (التي ستحلّ محلها مملكة الساسانيين) والحرب الأهلية من أجل الاستقرار في منطقة الحيرة والأنبار.
عاشت هذه المملكة تحت سيطرة الفرس في بداية القرن السابع الميلادي (في حكم الساسانيين)، إنما لفترة قصيرة. "لما تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى القسطنطينية، تنازع العرب مع اليونان والفرس منطقة الفرات. كانت قبائل يمنية دخلت هذه المنطقة منذ زمن، وأسسوا في بابل الجنوبية على ضفاف الفرات (١٩٣م.)، قرب الكوفة الحديثة، المدينةَ الشهيرة الحيرةَ، التي تضاهي ذكريات بذخها رفاهية ملوك الفرس والقسطنطينية" حسب غ. لوبون.
دامت مملكة الحيرة أربعمائة سنة.
أول ملك فيها هو مالك بن لخم. أسس أحد أحفاده مالك بن غانم بن لخم أسرة اللخميين، الذين والمناذرة جعلوا الحيرة عاصمة لهم.
يقسم سكان هذه المنطقة إلى ثلاث شرائح:
١- العرب البدو، الذين يعيشون تحت الخيمة.
٢- العرب المسيحيون، سلالة ثلاث قبائل هامة (تميم، لخم وأُسْد).
٣- أتباع المناذرة، حديثو الإقامة.
وكان ثمة أيضاً شرائح قديمة، أصيلة، تمارس الزراعة.
ويذكر بين أشهر الأمراء (أو الملوك) امرؤ القيس العام (٢٨٨ – ٣٢٨)، والمنذر بن امرؤ القيس – المنذر ذو القرنين العام ٥١٢ – ٥٥٤) وأيضاً النعمان بن المنذر العام ٥٨٣ – ٦٠٥).

كانت الحيرة عاصمة الفنون والآداب. كان أمراء المناذرة يفضلون أن يحيطوا أنفسهم بالشعراء والعلماء.
كان المناذرة مختلفين فيما يخص الدين: مشركين، مازديين، سبئيين، مسيحيين، إسرائيليين، وفي القرن الخامس، انتشرت المسيحية في البلاد بهيمنة العبادة النسطورية وانحسرت ممارسة النحلة اليعقوبية.
فتح المسلمون فارس واصطدموا بالعرب المناذرة وهزموهم في العام ٦٣٣ (١١ هـ) ثم اعتنق كل سكان المنطقة الإسلام.

هـ - مملكة بني إسرائيل: ١٠٠٠ ق.م. – ٧٠ م.

انحدرت القبائل العربية لبني إسرائيل من الصحراء العربية، كما جاء في التوراة ويعترف بهذا العديد من الكتاب (القدماء والمعاصرين).
يبدأ الدين الموسوي التوحيدي بموسى، الذي أنزل عليه التوراة (أو Pentateuque في سيناء، وصلت الأرهاط الإسرائيلية (التي تمارس ديانة موسى)، بعد أربعين سنة من التشرد في الصحراء (بعد هربهم من مصر)، إلى بلاد كنعان مع Josue (يوشع). أخضع هذا القائد الكنعانيين، وبعد موت يوشع، توزع الإسرائيليون إلى قبائل، يحكم كلاً منها قاضي، وهو في آن معاً القائد الحربي. لا تختلف هذه القبائل عن القبائل العربية الأخرى بسوى الدين.
أسست المملكة الأولى في حوالي العام ١٠٠٠ قبل الميلاد، مع سول Saul كملك. تقع في غرب وشمال البحر الميت، بين ممالك الفينيقيين وتدمر. حسب غ. لوبون، "قاوم الأمالست، الآدوميون، الموآبيون، الأمونيت، خصوم العبريين في حرب دائمة، دخولهم إلى بلاد كنعان".
خلف داوود سول، كملك ونبي، بنى ابنه، سليمان معبد القدس، "حتى حكم الملك سليمان، كانت مملكة بني إسرائيل والمملكة الفينيقية تحت الانتداب المصري، مع نائب ملك من أبناء البلد إنما زوج سيدة مصرية (وهذا ما حدث مع سليمان)"، حسب ج.ل.. برنارد( )، وبموت سليمان في العام ٩٣٠ ق.م.، ينشق جربوام Jeoboam ويأخذ معه عشر قبائل ليؤسس مملكة إسرائيل، في السامره، وتتحد القبيلتان الأخرتان – يهودا – وبنجامين، في مملكة، مملكة يهودا عاصمتها القدس، وكان ملكهم روبوام Roboam، ابن سليمان.
في العام ٧٢٢ ق.م.
يحتل سرغون الثاني، ملك آشور، مملكة إسرائيل، وفي العام ٥٨٦، يدمر بختنصر، ملك بابل، مملكة يهوذا ويطرد الإسرائيليين، وفي العام ٥٣٩،

يحتل سيروس الثاني، ملك الفرس، بابل والقدس ويسمح للإسرائيليين بالعودة إلى فلسطين والإقامة فيها.
وانطلاقاً من العام ٣٣٤، يسيطر اليونان على فلسطين، وفي العام ١٦٨، يثور المكابيون، بقيادة مكابي، على اليونان ويؤسسون في العام ١٤٢ مملكة جديدة إسرائيلية، وفي العام ٦٧ ق.م. احتل الرومان كل فلسطين، وفي العام ٤٧، يسمي يوليس قيصر، صاحب سوريا، عوض المكابيين، أنتباتر Antipater الأول رئيس الآدوميين وصياً على يهودا.
وفي ٣٠م، صلب يسوع، وولدت المسيحية. لم يعترف به الإسرائيليون نبياً.
وفي العام ٦٤م، يتمرد الإسرائيليون على روما وفي العام ٧٠، يهدم تيتوس معبد القدس وينهب المدينة، وتتشتت جماهير واسعة من الإسرائيليين: ينزحون إلى بابل أو يضمون القبائل الإسرائيلية الأخرى الباقية في الجزيرة العربية (أساساً في المدينة واليمن).
يتكلم بنو إسرائيل، كما النبتيون، اللغة العربية والآرامية، التي بقيت متداولة في كل فلسطين (حتى البحر الأحمر).
تظهر الكتابة العبرية في الوثائق بحروف جديدة، لكن اللغة تبقى الآرامية.

و - المملكة الفينيقية – القرطاجية:

الألفية الثالثة ق.م. – العام ١٤٦م. يشغل الفينيقيون فلسطين ولبنان الحاليتين (أساساً المناطق الساحلية) قبل الألفية الثالثة التي سبقت العصر المسيحي، في حوالي العام ٣٠٠٠ ق.م. كانت الحضارة الفينيقية باهرة( )، ابناؤها هم بخاصة البحارة – التجار الذين يقيمون عملياً، في هذا العهد، احتكار العلاقات التجارية في كل بلدان البحر الأبيض المتوسط.
خولتهم قدرتهم ومهارتهم البحرية والتجارية فتح مراكز تجارية بداية في شمال وجنوب البحر المتوسط، ثم إقامة المرافئ، وأخيراً تشييد مستوطنات للمعمرين ومدن (في بحر ايجه، في قبرص، في مالطه، في سيسيليا، في سردينيا، في كورسيكا، في أسبانيا وفي جنوب فرنسا)، وفي كل الساحل الأفريقي، حتى المحيط الأطلسي.
تحافظ كل حاضرة بحرية في فينيقيا على استقلالها رغم تنوع المحتلين (الآشوري، المصري، والفارسي)، بدءاً من العام ١٢٠٠ ق.م.
أسست قرطاجه في (تونس) في العام ٨١٤ ق.م. وهذا الاسم يعني بالعربية القرية الحديثة. بعد تدمير المدن الساحلية على يد الآشوريين دمرت صور في العام ٥٧٤، صارت قرطاجه عاصمة العالم الفينيقي (أو Punique).
ينحدر الفينيقيون من شواطيء الجزيرة العربية، وبعد إتقان المهنة، يحتلون

تـونس الحاليـة حيـث يسـتعيدون اسـم أرضـهم الأصـلية – إشـارة إلـى Pouanil (poun بالفينيقية) أي الوسط- "( )، وسموّا أيضاً قرطاجيين، نسبة إلى اسم عاصمتهم. وفي أسبانيا، في حوالي القرن الثاني قبل العهد المسيحي، أقام القرطاجيون على طول الشواطيء، مرافيء تجارية (قرطاجه، برشلونه، ألكونت)، وفي حوالي القرن الثامن، احتل القرطاجيون مرسيليا وجنوب فرنسا، والمنطقة التي يعمرها اليونان، وخنقوا الأنشطة التجارية والاقتصادية لهؤلاء. الأمر الذي بعث الحروب البحرية بين الخصمين (وفي العام ٥٣٦ ق.م. انتصر الأسطول القرطاجي في أليريا، وكورسيكا على اليونان)، واستمر التفوق القرطاجي، على طول البحر المتوسط.

لم يكتف القرطاجيون بالأراضي الساحلية: بل بسطوا جالياتهم إلى الريف، عمروه، وشيدوا عدة المدن في الداخل، في أثناء عدة قرون، وفي العام ٢٠٣ ق.م. أسس مرفأ – ماهون (Minorque) على يد ماغون، أخ هانيبال.

قبل التوسع القرطاجي الضاغط، تحركت روما خوفاً من احتلال أرضها من قبل القرطاجيين: بدأت هذه الحروب الفينيقية في العام ٢٦٤ ق.م. كان الجنرال القرطاجي هاملكار (٢٩٠ – ٢٢٣)، وابنهُ هانيبال (٢٤٧ – ١٨٣) وأخوه هاسدروبال قادة الجيوش. رغم انتصارات هانيبال البطل الذي وصل في العام ٢١٨ حتى روما، بجنوده، وفيلته. لكنه لم يتابع تقدمهُ، لأن روما تصدت له. احتل موقتاً مالطا، سيسيليا، سردينيا، كورسيكا وبلاد الغول من جهة الألب، واستمرت الحرب. تقدم الرومان نحو أسبانيا واحتلوها، ثم إلى أفريقيا الشمالية، واحتلوا قرطاجه، ثم دمروها في العام ١٤٦ ق.م. وسميت المنطقة مستعمرة رومانية.

ز - ممالك الآمازيغن( ) في شمال أفريقيا: من القرن الثالث ق.م. حتى العام ٤٠م.

دعا الكتاب القدماء الآمازيغ في شمال أفريقيا ليبيين، أفر، مور، نوميد، الخ.... وسماهم الكتاب الآخرون، لاسيما الأروبيون، البربر.

أسس الفينيقيون، منذ القرن الرابع عشر قبل العصر المسيحي أول مقر تجاري لهم في أفريقيا (Utica)، وخلال القرن السادس، تابعوا بسط سيطرتهم على كل الساحل الأفريقي، وانتشرت رعاياهم (التجار أو المزارعون) في كل مناطق الشط، وعمروا مستوطنات في الداخل كانت اللغة العربية، القرطاجية هي المتداولة لدى أرهاط واسعة من السكان،

حسب الكتاب، (يشهد سان أوغستان على هذا في "اعترافاته")، وجرت علاقات القرطاجيين التجارية أيضاً، مع أبناء البلد الأصليين: اجتماعية، اقتصادية، ثقافية. يشهد على هذا عبادة سكان شمال أفريقيا ذات الآلهة التي يعبدها الفينيقيون (بعل – حمون – تانيت) لأن ثمة تعايشاً واسعاً طبيعياً وثقافياً بين السكان الأصليين (سلالة الموجات المهاجرة العربية، لآلاف السنين قبل العصر المسيحي) والمهاجرين الجدد (الفينيقيين – القرطاجيين).
ولقد أفضت الموجات المهاجرة المختلفة، التي امتدت على مدى آلاف السنين ولا بد، إلى تكوين فئتين من الناس:
- عرب الشمال الذين عبروا أفريقيا بطريق البر، وسيناء ومصر المتوسطية (نسبة إلى البحر المتوسط) – (نفس الطريق الذي سار عليه الإسلام – للوصول إلى أفريقيا الشمالية) وطريق البحر، فيما بعد، مع الفينيقيين، حتى الطرف الغربي من أفريقيا والمحيط الأطلسي.
- عرب الجنوب الذين وصلوا إلى أثيوبيا من مضيق باب المندب، ثم استمروا نحو الشمال صعوداً إلى وادي النيل ومن هناك، انتشروا نحو الغرب، والمغرب. ما يعلل استخدام اللغة المازاغيه (المشتقة من لغة الجنوب العربي، الحميرية) في جنوب المغرب، المتداولة الآن لدى مغاربة الجنوب (غورارا – توّات – هوغار – تاسيلي في الجزائر – سوس – وجه الأطلس في المغرب) وعند الايباديت في مدينة Mzal (غاردايا، وهم من أصول يمنية وورثة مملكة Tihert.
إن استخدام لغة الأمازيغ بتنوّعها الفينيقي، في الشمال، سيكون أحدث ويتطابق مع تزايد تعمير مستوطنات فينيقية، لاسيما في مناطق ساحل المتوسط والمناطق الخصبة في داخل البلاد. وسيتطور النطق باللغة الامازغية في كل من هذه المناطق (في شمال وجنوب المغرب) حسب التضاريس، التاريخ، ونمط المجتمع (المقيم أو الراحل) وأفضى إلى مختلف اللهجات الإقليمية التي نعرفها الآن.
وفي العام ٨١٤ ق.م.، أسست قرطاجة وصارت عاصمة العالم الفينيقي. أي أنها ستشمل تونس الحالية وتضم إقليم الشرق الجزائري (القسطنطينة) بالأقل. كانت مدينة هيبون فينيقية منذ أكثر من ستة قرون. وليس صدفة القول أن قرطاجة، كانت حتى القرن الثاني قبل العصر المسيحي، تحتل كل المناطق (من ليبيا حتى مراكش) التي سيحتلها الرومان، بعد الحروب الفينيقية، وهذا ما حدث، منذ سنين، لجزر البحر المتوسط، جنوب فرنسا

وأسبانيا. واحتُلت قرطاجة بعد صراع في العام ١٤٦ ق.م( ) وأضحت مستعمرة رومانية.
خارج هذه المناطق القرطاجية أو تحت السيطرة القرطاجية، كان ثمة الممالك المستقلة الأمازيغية، التي تتعايش، على حدود الأرض القرطاجية، مع قرطاجة والتي، عند اختلاف المصالح السياسية، أحياناً، تصطدم بالإمبراطورية القرطاجية.
كان سكان شمال أفريقيا كما أخوتهم في آسيا، منقسمين إلى رُحّل (تجمعهم قبائل وأفخاذ) ومقيمين، يقطنون أساساً في أكواخ أو مزارع، ولا يقوّمون وزناً للمدن الضخمة، التي مع ذلك لم تكن كثيرة.
في أيام الحرب تمارس السلطة والهيمنة الملكية بواسطة رؤساء القرى ومجلس حكمائهم. وكما في فينيقيا، تحافظ كل قرية على استقلالها.
أول ملك معروف هو غايا Gaia، الذي ملك حتى بداية القرن الثالث قبل العصر المسيحي و(مات في حوالي العام ٢٠٨)، وهو أب ماسينيسا Massinissa( ) الشهير، لكن تأسيس وإقامة الممالك أو الإمارات تمّ قبل هذه الحقبة.
١- مملكة مور
تمتد من أويد مولويا حتى الأطلسي. وفي الجنوب، كانت تشمل موريتانيا الراهنة.
٢- مملكة سيفاكس.
تمتد من مولويا حتى أويد الكبير (في القسطنطينة). كان ملك سيفاكس معاصراً لملك غايا. وكانت زوجته قرطاجية.
في العام ٢٠٦ ق.م. كانت (سيغ) عاصمة المملكة. سمى المؤرخون القدماء (مثل سترابون) هذه الأرض، بلد مازازيل. كانت العلاقات التجارية متينة جداً مع إسبانيا القرطاجية (القريبة جغرافياً من الساحل الأفريقي)، وكانت المرافيء والمناطق الساحلية تحت السلطة القرطاجية، ما يمكّن من الافتراض أن مملكة سيفاكس كانت تحت وصاية القرطاجيين.
في أثناء الحروب ضد قرطاجه، دخل الرومان، بعد احتلال إسبانيا، إلى أفريقيا ومارسوا الحكمة الشهيرة "فرّق تسد". بالغوا بالأوعاد لسيفاكس الذي صار حليفهم لقاء مساعدتهم على دحر هاسدرو بال والقرطاجيين. إنما رغم أوعادهم، احتكر سيبيون المملكة وانثنى سيفاكس نحو الشرق. وفي العام ٢٠٣، صارت قسطنطينة عاصمة مملكة مازازيل (أو ما تبقى

منها)، حسب تيت – لايف وفي العام ٢٠٢، صار فرمينا، ابن سيفاكس ملكاً بعد موت أبيه.
٣- مملكة ماسينيسا Massinissa
يسمي الكتاب القدماء هذه المملكة الاقليمية الأرض الأفريقية.
يقضي ماسينيسا (٢٣٨ – ١٤٨ ق.م.) شبابه في الجيش القرطاجي (حروباً ضد روما وأسبانيا وأفريقيا) حيث أتقن القتال ونضج، وفي العام ٢٠٣ يصرع ماسينيسا سيفاكس ويدخل قسطنطينه (سيرتا) منتصراً. ويهزم سيبيون المسمى الأفريقي، بمساعدة ماسينيسا وجنوده، هانيبال في معركة زاما في العام (٢٠٢). ثم أمر ماسينيسا بغزو أراضٍ مازيزلية بدءاً من العام ٢٠١ حتى العام ١٥٢ ق.م. وتشجعه روما على بسط مملكته نحو الشرق، نحو الأرض القرطاجية. وفي العام ١٥٠، يدخل ماسينيسا، وهو في الثامنة والثمانين من عمره، قرطاجه منتصراً وينسحب "بعد أن دفع القرطاجيون تعويض حرب باهظ"( ).
وفي العام ١٤٨، يموت ماسينيسا، بعد أن حكم أكثر من خمسين عاماً. ويحتل سيبيون إميليان، القنصل، وحفيد سيبيون الأفريقي بالتبني، قرطاجه في العام ١٤٦ ق.م. ويدمرها بموافقة مجلس الشيوخ الروماني. وبعد تحطيم الإمبراطورية القرطاجية، لم تنظر روما بعين الرضى عن تشكيل دولة إفريقية قوية. وبعد موت ماسينيسا، سميت تروايكا (لأنها حكمت من ثلاثة من أبناء هذا الأخير).
٤ - مملكة جوغورتا:
في أسبانيا حيث خدم في الجيش الروماني، يتكشف جوغورتا (١٤٤ – ١٠٤ ق.م.) حفيد غايا، عن استراتيجي - موهوب. وبعد موت التروايكا، يستلم جوغارتا السلطة في العام ١١٨، دون أن يتلقى ضماناً من الرومان. وفي العام ١١٢، يقرر مجلس الشيوخ الروماني إيقاف سلطة جوغورتا الصاعدة ويرسل جيشاً لقتاله. ولكن عبثاً.
وفي العام ١٠٤، يخونه أحد أقربائه، ويسلمه للرومان. اقتيد جوغورتا إلى روما (حيث حبس في نفس الزنزانات التي عرفها فرسنجتوركس( ) Vercingetorix، ضحية أخرى للسلم الروماني) حيث مات.
٥ - مملكة جوبا الأول:
يحكم جوبا الأول، حفيد جوغورتا، من العام ٦٠ – ٤٦ ق.م. كانت مملكته تشغل أرض تونس الحالية حتى Setif (في وسط الجزائر). ينتهز جوبا الأول الخلافات الرومانية (أنصار قيصر ضد أنصار بومبي

Pompee). لتعزيز مملكته ويختار معسكر بومبي ضد قيصر. يبحر هذا الأخير إلى أفريقيا مع قواته، يدحر أنصار بومبي ويحطم الجيش الإفريقي في العام ٤٦ ق.م.
بدءاً من هذا التاريخ، يحتل الرومان المملكة الأمازيغية ويسمون حكاماً روماناً أو أتباع أفريقيون للرومان (مثل جوبا الثاني). ويصبح احتلال الرومان لأفريقيا الشمالية فعلياً.
كان بتولميه Ptolemee، الابن الوحيد لجوبا الثاني وكليوباترا سيليني آخر ممثل لهذه الأسرة الحاكمة وقد قتله الإمبراطور كالفولا، في العام ٤٠م.
معالم أو نقاط دلالية
لم تقبل القبائل الأمازيغية يوماً النير الروماني، فأثاروا الاضطرابات، التمردات، والعصيانات الدائمة. ولم يرض المجتمع الشمال – أفريقي أبداً العادات الرومانية عدا "سكان" بعض مدن الساحل حيث تعايش هؤلاء مع مستوطنة قوية رومانية.
وفي المجال الديني، كان الخلاف شاملاً: بمجيء المسيحية، اعتنق الأمازيغ الدين الجديد (جزئياً لأن روما اضطهدت المسيحيين)، ولما صارت الكنيسة رومانية، أسس الأمازيغ كنيسة – برعاية أحد أساقفة قرطاجه.
وفي حقل اللغة، أيضاً، لم يتداول الشمال – أفريقيون إطلاقاً اللاتينية، سوى بعض المثقفين والساسة الذين استخدموا اللغة الليبية أو الفينيقية (لغة أمازيجية)، القريبة من اللغة المصرية أو جنوب عربية. ويعلن السيد كداش، المؤرخ الجزائري، بهذا الخصوص: "لم تكن اللغة الفينيقية فقط لغة الشعب بل أيضاً لغة الطبقة الوسطى"( ).
وفي آسيا العربية، أراد الرومان محو الأصل العربي لأسماء العلم (أفراد، مدن، قرى، الخ....) بل رومنوا بكثافة هذه الأسماء، وكان هذا المحطة الأولى في سيناريو فلسفة التاريخ: مثلاً صالح تصير Sylaeus، الحارث Aretas، جبله Jeblus، سليمان Suleiman، Solomon،Salomon الخ....، كما فعل قبلهم الإغريق، وكما يفعل أيضاً المسيحيون الأروبيون بالنوابغ والعلماء المسلمين، مؤخراً. وهكذا فعل الروس قبل وبعد ثورة أكتوبر، بمسلمي القوقاس وآسيا.
ولم تنجُ أفريقيا الشمالية، هي الأخرى، من هذه التسميات المفتعلة، غير أن بعض الملوك الإفريقيين أو شخصيات أخرى، الحريصين على أسمهم الأصلي، حافظوا على أسمهم أو قبلوا، بالمعنى السياسي، اسماً رومانياً

لتسهيل الاسم في المجتمع الروماني، وهكذا اعطوا بلدهم الأصلي استحقاقه.
إن أسرة سيفير Severe، هي، بهذا المجال، نموذج نوعي. مؤسسها سبتيم سيفير، صار جنرالاً رومانياً ثم إمبراطور روما، لثمانية عشر عاماً، تزوج تدرمرية من مملكة تدمر وأنجب منها أربعة شباب. الأربعة صاروا أباطرة روما، كما أبيهم، تولت هذه الأسرة مستقبل الإمبراطورية الرومانية، خلال أكثر من أربعين عاماً، عملياً من دون انقطاع، أحد أبنائها إلجبال Elagabal، أراد أن يعبد الإله العربي الوثني بعل، اله الشمس، الذي أخذه من أمه، عن طريق روما، فذبح أو اغتيل في العام ٢٢٢ وحل محله أخوه الكساندر كإمبراطور.
وحفظ ملوك نوميد – أمازيغ أسمها الأصلي:
- جوبا الأول: اسم أصله Job أيوب، في القرن الأول ق.م.
- جوبا الثاني، ابن جوبا الأول. أخذ هذا الملك في العام (٢٥ ق.م. – ١٢م) إلى روما وهو في الرابعة من عمره، عند وفاة أبيه، قبل ورُبّي في روما على يد أخت أوكتاف. رغم ثقافته الهيلينيه – الرومانية وتبعيته لروما، لم ينكر جدوده وحسب بلين القديم "اشتهر جوبا الثاني أيضاً بأعماله وملكه". كان – توراتياً – متحمساً وكاتباً مسهباً، لاسيما باليونانية. واستناداً إلى بعض كتبه (بابلونيكا، أرابيكا)، يعتقد أنه درس أصول شعبه، أرومته، وأزال الغبار عنها.
Bocchus، ملك موريتانيا (جمو جوغورتا) كان يحمل أسماً معروفاً عندنا – بخوس – اسم متداول جداً في المغرب حتى الآن، لاسيما في جنوب الجزائر.
- أرابيون: بعد موت قيصر استرد أرابيون ابن ماستنيسا مملكة أبيه ماسيل، من حكم ستيوس. كالأسماء الرومانية التي تنتهي بـ ion (سيزاريون = ابن سيزار، قيصر، أرابيون، أراب. ما يعني أن ماستنيسا كان أسمه أراب أو يريد أن يبلغ الرومان، بهذه التسمية، أن ابنه كان أراب – عرب. نصادف أيضاً هذا الأسم أراب، في المغرب الحالية، ويكثر في شرق النيل.
استعيض عن الاحتلال الروماني في العام ٤٢٩ م بغاندال دي جانسريك، بعد أن احتل أسبانيا، وفي العام ٥٣٣، قرر جوستنيان الإمبراطور البيزنطي الاستيلاء على "الإيالة" الأفريقية ونجح في العام ٥٣٤، وبعد هزيمة الغاندال وتشتتهم، بقي البيزنطيون، مع قائدهم بليزير، سادة البلاد،

وأساساً في مدن الحماية وفي الشرق (تونس وقسطنطينية)، حتى مجيء المسلمين.
كان الأمازيغ مشركين، كالقرطاجيين والعرب الآخرين، ثم اعتنق بعضهم الدين اليهودي وصار آخرون مسيحيين.
وانطلاقاً من العام ٦٤٧ م (٢٥ هـ)، بدء فتح الإسلام للمغرب، وصار الجميع مسلمين( ).
٣,٤ – الإمازيغ والمصريون وتأثيرهم المتبادل قبل الإسلام:
مصر، جغرافياً، جزء من شمال أفريقيا. بهذا المستند، كانت علاقاتها الأثنية، السياسية، التجارية والثقافية متينة مع المغرب ومتواترة. قبل بناء مملكة Menes) Mena) المتحدة، حكم مصر العديد من ملكات الإمازيغ.
وقد أقامت مصر كل أنواع العلاقات مع جزر الكنارية( )، التي سماها القدماء Hesperides، وهي تتمة المناطق الإمازيغية في الأطلسي.
يتكلم الغيونش، سكان جزر الكناري، الذين أبادهم كلهم الأسبان المسيحيون – كما فعل الأمريكان – لغة من أسرة لغة الأمازيغ والمصرية( )، أي لغة جنوب – عربية. قبل تحول المنطقة المطابقة للـ Sahara، إلى صحراء، كان نهر التريتون – الذي يعرفه قدماء الجغرافيين – يصل الهوغار ببحيرات جنوب الجزائر – تونس (بحر داخلي) ويفترض أن هذا النهر كان ذا روافد مع النيل باطنية الجريان، ما تزال تجري، الآن، تحت الرمال، وعبر الصحراء الليبية. وثمة واحات مصرية مثل سيوا Siwa، تقع على مسار هذا النهر الباطني، يتكلم سكانها حتى اليوم، اللغة الأمازيغية.
ثمة إذن علاقات مستمرة خلال آلاف السنين، بين شبه الجزيرة العربية، مصر، والمغرب، في الشمال (الأبيض المتوسط) كما في الجنوب. كانت كل هذه الشعوب تعبد الأوثان ومذهب إحيائية المادة. وقد انتشرت عبادة يافس Seth الابن الثالث لآدم وحواء – إله إحيائية المادة ومذهب الأرضية – تأثير الأرض على السكان، بداية في الجنوب، وثمة آثار لهذه الإحيائية حيوان أو نبات، في المغرب.
يجب الإشارة أن الحيوية الثقافية التي نلقاها اليوم في المغرب ليست الحيوية – الإيمانية للعهد الوثني. فالدين الإسلامي يعلم المسلمين احترام كل كائن حي، من المملكة الحيوانية، والنباتية وحتى المعدنية. للحيوان نفس احترام الإنسان، على هذا الأخير أن يغذي ذاك، لا يسيء معاملته، أن

يحميه عند الحاجة. وفي حالة التضحية الطقسية، على المسلم أن يضحي تماماً وعلى عجل بالحيوان، فليس لهذا الحيوان أن يرى ذبح أبناء جلدته ولا موتهم... وفيما يخص النبات، يمنع الدين الإسلامي قلع الشجر المجاني، يوصي بسقي الأرض لأن لا تموت النباتات أو تذبل.
يتكلم ج. ل. برنارد( )عن هذه الحيوية لدى المصريين "الذين يقيمون تخاطراً ذهنياً مع النبات والحيوان". نجد هذه المفاهيم من التراسل في الحضارات القديمة (الهند، الفيلبين، أمريكا)، وأيضاً في التوراة والقرآن (كان النبي صالح يحاكي الطيور، النمل، الخ..) ويحمل العديد من سور القرآن اسم حيوانات أو حشرات.
ينقل ج. ل. برنارد( ) قصة شجرة معمرة، ذات روح: "في السور الكبير لمعبد هليوبوليس، ثمة شجرة وقورة يظهر على أوراقها اسم الملك، قبل تنصيبه... تكدس الأشجار في أوراقها الأثير (جوهر المادة) وهذا الأثير هو ذاكرة العالم لأنها تدون وربما تفكر ببصمة الأحداث، وكذلك بالمخطط الإلهي للقضاء والقدر".
ويروي بن بطوطة( )، في القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري)، حدثاً متماثلاً، في أثناء توجهه إلى ساحل الهند، لاحظ أمامه، شجرة تشبه شجرة التين وتبرز خاصة فريدة: أوراقها التي، تسقط في الخريف، تكون مغطاة بحروف عربية للشهادة الإسلامية (لا إله إلا الله محمد رسول الله (في أيام السلطان Kawyl، في جزر مالابار).
وأيضاً، يحكي الإنجيلي العاذاري Huc في كتابه "مذكرات رحلة في التيبيت". في القرن التاسع عشر (الثالث عشر الهجري)، يحكي عن ولادة "غريبة" لشجرة، يشبه شعرها شعر القديس البوذي، كسونغ كابا. رأى ولمس هذه الشجرة، التي تحمل أوراقها صفة تيبتية على كل ورقة، القديسُ – الرسوليُ. هي ذي خلاصة القصة: في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري)، في جنوب كوكو – نور (تيبت الشرقية)، تضع امرأة "من البلد" طفلاً، كسونغ كابا في عام موت الدجاجة (١٣٥٧ م. ٧٥٧ هـ). ولد هذا الولد بلحية بيضاء. وأساليب حياته غير خطرة أبداً. منذ أن رأى النور، وهو قادر على التعبير بوضوح ودقة باللغة المحلية. وفي الثالثة من عمره، قرر كسونغ كابا التخلي عن العالم واعتناق الحياة الدينية. حلقت له أمه شعر رأسه، ورمت هذا الشعر الجميل والطويل في مدخل الخيمة. ومن هذا الشعر نمت تلقائياً شجرة ينشر خشبها عطراً فائق الجودة، وتحمل كل ورقة من الشجرة في طرفها حرفاً من لغة التيبت المقدسة".

هـذا يعيـدنا إلـى العلاقـات بـين الإمـازيغن والمصـريين، كانـت تاسـيللي وهوغار – من المنـاطق التـي سكنها التواريج الرحـل( ) – منـاطق عازلـه بـين أبيسـيني، مصـر والمغـرب. ويمكـن الافتـراض، اسـتناداً إلـى الرسـوم الصخرية، أن هذه المناطق عرفت بل عاشت درجة من الحضـارة، قبل أن يبدأ التصحر.
كان اسم العاصمة الهوغار، وهو ذو معنـى هنـا، كمـا يبدو لنـا: ربمـا كانـت تامانراسيت( ) Tamanrasset مركزاً دينياً هاماً لعبادة الشمس والعلوم الباطنية. يمكن تجزئة هذا الاسم إلى عدة كلمات مصرية:
Tamanrass – eth يعنـي أرض الآلهـة المصـرية الثلاثـة أمـون، را، وسـيت. نـذكر أن الهوغـار، أي الرابيـة الصـحراوية العاليـة، تحـوي جبـالاً تصل إلـى ارتفـاع ٣٠٠٠ م من مثل تاهـات، وطبقـات غنيـة معدنيـة مشتتة جداً (من الذهب حتى الأورانيوم)( ).
سكانها التوارج هم الرّحل الذين ينتقلون من موريتـا إلـى مصـر، ومـن نـهر السنغال إلى بحيرة تشاد. مجتمعهم، الذي بقي أبوياً – رغم أسلحتهم – ربمـا كان بقايا من ماضيهم البعيد، المتأصـل فـي جنـوب شـبه الجزيـرة العربيـة. عطفاً على طول قامتهم وأعضائهم الجافة والطويلة: يذكر القرآن شـعباً مـن عمالقة (عاد وثمود)، عبدة الأوثان، الذين ولدوا في الجزيـرة العربيـة. ولقد عثر على بصمات أرجل لرجـال عمالقـة فـي وحـل متحجـر فـي الهنـد، وفـي الجزيرة العربية، وفي جزر الكنار، وأمريكا الشمالية.
طبعـاً، يقـدر بـاحثون أكفـاء، وأكثـر مرجعيـة "واسـتيحاء" أن يرجعـوا إلـى مـاض أبعـد، قبـل الطوفـان أو الطوفانـات لكننـا مـع غ. لوبـون G.lebon نعتقد أن آلاف السنين قبل العصر المسيحي كافيـة لأن تجعل العـرب عرقـاً فريداً لكن الأروبيين الذين يعيشوا بعد أكثر من ألف سنة لم يكوّنوا عرقاً.
بل "هم شعوب من أصول شديدة التشتت والبعثرة وسيئة الانصـهار" يقـول غ. لوبون. في كل حال، وبما أن شريحة من الشمال – أفريقيين وصلت إلى القـرن العشـرين (الخـامس عشـر الهجـري)، واسـتخدموا اللغـة الأمازيـة فـي الحياة اليومية، ما يشهد على حيوية هذه اللغة القديمة ومن الواجب دراسـتها وتوطيدها، مع الأخذ بالاعتبار الأصول الجنوب عربية للسكان العـرب فـي أفريقيا. كما هو الأمر بخصوص اللغة القبطية.
يملك الشطر الأفريقي من العـالم العربـي مسـاحاته الخاصـة بـه، تتمـة تغنـي المساحات الموجودة في الجزء الأسيوي من ذات العالم.

نعود إلى غ. لوبون في كتابه "حضارة العرب"، بدءاً من الصفحة ١٨٤، نقرأ: "نحن نجهل أصل البربر كما نجهل كثيراً من العروق. فوجودهم على طول الساحل الأعلى في أفريقيا، حيث كل الناس سود، إلا هم، يسمح بالزعم أنهم نتيجة الهجرة، منذ عهد غابر، من شعوب عديدة غريبة على أفريقيا. نقول منذ حقبة سحيقة لأن التراث والتاريخ لم يحفظا لنا أي ذكرى لهذه الغزوة، ونقول عدة شعوب، لأن وجود رعايا شقر ذوي عيون زرقاء، بين أفراد بشعر أسود يشير إلى عناصر مختلفة الأصول. يمكن، مع ذلك، تشكيل ظروف مرضية حول نقاط انطلاق هذه الهجرات. لا يمكن قدومها من الجنوب، إذ لا وجود لسوى الزنج في هذا المنحى، ولا من الشمال، لأن الشمال مشغول ببحر واسع تعجز الشعوب البدائية عن التفكير باجتيازه. فليس لهذه الغزوات أن تأتي إلا من الشرق، أي بالشريط الضيق من الأرض التي تصل أفريقيا بآسيا، أو الغرب، أي مضيق جبل طارق. أتى أصحاب الشعر الأسود إذن ولا شك من أقصى غرب آسيا، من ضفاف الفرات، شمال الجزيرة العربية، أو ربما من مكان أبعد أيضاً. ووفد ذوو العيون الزرق والشعر الأشقر في الأغلب من أصول أوروبية من الطرف الغربي من أفريقيا.... هذا، قبل دخول الغاندال إلى أفريقيا... وهيمنة أصحاب الشعر الأسود على رعايا الشعر الأشقر تثبت أن الهجرة الأسيوية هي الأهم، أو الأقوى.

وفي الصفحة ١٨٦، يضيف هذا الكاتب: "يملك البربر لغة فريدة القدم، في الأرجح فينيقية. بهذه اللغة استثار جوغورتا Jugurtha جنوده ضد ماريوس Marius، وحماية شعب الجيتول Getules وفوق ذلك تعربت اللغة البربرية بالاتصال باللغة العربية، كما تعرب الشعب البربري نفسه. والبربرية، المتداولة اليوم، لا سيما في Grande Kabylie ثلثها من الكلام العربي. يدل هذا الواقع الغريب، مرة أخرى، إلى مدى عمق نفوذ العرب، ومدى تفوق هذا النفوذ على نفوذ الشعوب الأخرى.

فرغم هيمنتهم على البلاد ردحاً من الزمن كما فعل العرب، لم يترك الإغريق واللاتين أي أثر في اللغة العربية".

وفي الصفحة ١٨٩، يعلن غ. لوبون بخصوص سحنة البربر: "يمكن اعتبار البربري بسكولوجيا جاراً شديد القرب من بسكولوجيا العربي، بشرط، وهذا طبيعي، مقارنة الحضر بالحضر، والرحل بالرحل. فشروط الحياة هي عند كل الشعوب أهم عناصر الهيئة، وبشروط حياة متشابهة، لا بد من توقع العثور غالباً على أساليب تفكير وتصرف متشابهة".

ما هي الملاحظات التي تثيرها استشهادات غ. لوبون؟
١ – كتب كتابه يوم كان شمال أفريقيا (لا سيما الجزائر) مستعمرة للفرنسيين مواطنيه.
٢ – يحاول هذا الكاتب أن يشوش الأصول الأمازيغية (لم نستخدم تعبير البربر، ذا الدلالة الملتبسة التاريخية الغامضة والمهيمنة، لكن غ. لوبون يعترف من طرف لسانهِ، وكمن يأسف، بأهمية "الهجرة الأسيوية" (أي العربية) للشعوب ذات الشعور السوداء ويضيف بسرعة كمن يعتذر "فيما بعد أيضاً" عنى إلقاء الشك على أصل ومصدر هذه الهجرة.
٣ – وبخصوص الناس ذوي الشعور الشقراء والعيون الزرقاء، التي رسخت المسلّمة أن أصلهم حصراً أوروبا (أي من الشمال)( )ربما كانوا هم الأوروبيون أنفسهم؟ ومؤخراً، يتحدث الكتاب عن العرق الأبيض باعتباره ولد في أوروبا، وشيئاً فشيئاً، يعترفون أن هذا خطأ. أن ثمة شعوباً شقراء الشعر في شمال أوروبا، أكثر من أي مكان آخر، لا أحد ينكر هذا. لكن شعوب أوروبا الجنوبية غالبيتها بيضاء وذات شعور سوداء، كما في حوض البحر المتوسط، وفارس والهند... بل واليابان. إن إنكار شقرة الشعر وزرقة العينيين على بعض العرب في بعض المناطق (سوريا، أفريقيا، الشمالية، وحتى أعماق الـ Sahara، والتوارج)، يكشف عن أطروحات غوبينو( ).
بل قد نصادف لدى العرب شعراً أمغر، شعراً أشقر – أصهب( ). وأغلب المومياء للغويانش Guanches (شعب جزر الكنار) المعروضة في متحف لاس بالما وساتنا – كروز، تكشف عن وجود نماذج شقراء أو مغراء (يتكلم الغويانش لغة من أسرة الإمازيغ والمصرية، وكانت ابنة الفرعون شيبوب شهيرة بطول شعرها الأشقر.
كما يمكن وجود ناس شقر بعيون زرق لدى بعض السيبيريين، القوقازيين، الهنود، وغيرهم.
إن "لون البشرة هي السمة الأبرز عند العروق البشرية، السمة التي ترجع إلى التصنيف الأساسي القديم: الأبيض، أصفر، أو أسود. يحاول الكثير من الكتّاب تحديد لون البشرة استناداً إلى الألوان المستعملة أو إلى جواهر ذات تلوينة معروفة. تميز هذه الطريقة عشرة تلوينات أساسية تخص الثلاثة الأولى العروق البيضاء (البهق)، والثلاثة التالية للعروق الصفراء (Xanthodermes) والأربعة الأخيرة للعروق السوداء (القاتم)، وكذلك العرق الكبير الاسترالي.

أبيض – أصفر = عرق أروبي
أبيض – وردي = عرق شمالي
أبيض – أسمر = أروبي الوسط والجنوب، أبيض أسيوي، وبسمة فريدة جداً، أبيض من أفريقيا.
لدى السمر، عرق الأبيض المتوسط والعروق المجاورة أساساً، يغمق الجلد المعرض للشمس ويميل إلى السواد، لكن هذا موقت وعندما يغيب فعل الشمس تستعيد البشرة لونها السابق. وقد دلت بحوث علم الأنسجة أن تلون الجلد يرتبط فقط بالخضاب، بالميلامين، الذي يتفاعل في خلايا الجلد الأساسية بشكل حبوب صفراء، أو سمراء غامقة"( ).
بعامة، في الماضي العائد إلى عدة ألفيات من السنين، كانت الهجرات البشرية تتجه من الجنوب إلى الشمال، وليس العكس، كما النهر المتجه أبداً نحو البحر.
٤ - بخصوص لغة الأمازيغ، يقول غ. لوبون أنها "بالأرجح فينيقية"( ). كلمة بالأرجح ثاقبة الدقة والدلالة، تعني أن المصدر الفينيقي، عند الكاتب، لا يقبل الشك، لكن الظرف المستخدم، "ربما"، الوارد آنفاً، يحرمهُ سمتهُ التأكيدية ويسرب الريبة إلى القارئ بخصوص هذا الأصل. من الموثوق به أن "التراث والتاريخ"، حفظا "لعهد غابر" ذكرى هذه الهجرة الفينيقية القرطاجية. يعرف الرومان شيئاً من هذا، لأن البحر المتوسط، كان، في ذلك العهد، بحراً قرطاجياً قبل أن يكون رومانياً.
٥ – يتكلم غ. لوبون عن "واقع ملفت" بخصوص النفوذ العربي في شمال أفريقيا بعد الإسلام لكنه لا يأتي بكلمة واحدة حول الوجود العربي قبل الإسلام وقبل الغزو الروماني، وليس "ملفتاً" أبداً أن نشير إلى تفوق الكلام اللاتيني في اللغة الفرنسية لأن هذه اللغة لاتينية. كما ينتفي "الملفت" بذكر كمية كبيرة من الكلام العربي في اللغة الإسبانية... فالنفوذ العربي في شمال أفريقيا (وفي أسبانيا" هام لأن سكان هذه الأقطار عرب منذ ألوف السنين. سنتكلم عن هذا في الفصل الخاص بإسبانيا.
٦ – بخصوص السمة "البربرية" يعتبر السيد لوبون "البسيكولوجيا البربرية مجاورة جداً للبسيكولوجيا العربية". ويضيف، لتخفيف هذا الادعاء الجازم، إن شروط الحياة هي التي أفضت إلى هذا التشابه. ناسياً بكل بساطة ما كتب في ص ٢٦ (الاستشهاد الذي أوردناه في فصل "العالم العربي قبل الإسلام" فيما يتعلق بالتراث والعرق، لذا نترك القارئ يستخلص بنفسه.

٣,٥ – في جنوب شبه الجزيرة العربية:
كان اليمن، الواقع في شبه الجزيرة العربية، معروفاً مذ زمن سحيق. سماهُ الكتّاب القدماء اليمن السعيد (Arabia / elix) ولا يكفّون عن ذكر غنى وخصب تربته. حسب غ. لوبون "ينبع ازدهار هذا الشطر من اليمن، كما يبدو، من سدود مأرب الشهيرة، التي بنتها، حسب الكتّاب العرب، الملكة بلقيس، والتي يفترضون أن سليمان قد زارها".
كان هذا البلد نقطة التقاء العلاقات التجارية مع الهند، الصين، بلاد الهلال الخصيب ومصر. تجد هنا التوابل، نباتات عطرة (يشتريها المصريون لمعابدهم، والبخور والعطور لتبخير الموتى)، الكافور، العنبر، البلسم، القرفة... حتى الذهب والفضة.
كان عرب اليمن بنّائين، مزارعين، وكانوا بحارة: يحملون ببواخرهم حرير الصين، التوابل والسلاح الأبيض من الهند، الذهب والعاج من أفريقيا. وحسب تيوفراست، كانت اليمن كثيرة الغابات. لن نطرح مجدداً، هنا، فن البناء ولا بذخ القصور وبهائها، ولا التفوق البحري "الفينيقي الجنوبي".
اكتشفت الكتابة الجنوب – عربية (المسماة المعنية، السبئية، الحميرية، برسوم على الحجارة في القرن التاسع عشر، في اليمن. تتألف أبجديتها من تسع وعشرين حرفاً وهي قريبة من الأبجدية الفينيقية والمصرية. تملك لغة الجنوب العربي، في بناء الكلمات، تصريف الأفعال، والضمائر الشخصية، الخ... علاقات متينة مع اللغة الأكادية (البابلية القديمة) ومع العباسين( ).
لم تعد متداولة في اليمن لكنها ما تزال في جزر المحيط الهندي (مهري وسوكوترا، وغيرها( ).
أ – المملكة المعينية: ١٣٠٠ – ٦٣٠ ق. م.
هي مملكة في الجنوب صاحبة التاريخ الأقدم والأطول، حسب قول الكتاب الإغريق والرومان (سترابون، ديودور دي سيسيليا، بلينوس).
معان كانت العاصمة (بقايا آثارية اكتشفت في ١٨٧٤ (١٢٩١ هـ) على يد ج. هالفي وغلازر وجوزون). عدّ موللر ستة وعشرين ملكاً موزعين على خمس عائلات أو أُسر مالكة بينما أحصى فيلبي منهم اثنين وعشرين.
امتدت سلطة المعينيين على كل طرق المواصلات التجارية، على مدى الساحل وداخل الصحراء العربية، بالتعاون، وأحياناً بالتنافس مع المملكة السبئية.

كانت أرضهم تجاور الأرض الفينيقية، والميدية والمودان (المذكورة في التوراة) وممالك ما بين النهرين ومصر. وجدت آثار من حياتهم التجارية في الجيزة (مصر)، في جزيرة ديلوس (بحر ايجه وفي أور (كالده). وحسب العهد القديم، كانت المملكة المعينية تقع في جنوب شرق البحر الميت (يعترف الأدوميون بسيادة هذه المملكة. ذكر أحد ملوكها، الصادق، ابن الملك يافا – واك Yafa – Waqh (حسب كتابات المعينيين) كملك لليمن. ثم، مع انهيار هذه المملكة، صار المعنيون أتباعاً للملكة السبئية.

ب – المملكة السبئية: ٨٠٠ – ١١٥ ق.م.

تتكلم التوراة عن مملكة سبأ كمنطقة غنية بالبخور، الحجارة الثمينة ومناجم الذهب. ويتكلم القرآن عن ملكة سبأ السابعة والعشرين – سورة النمل.

بالأصل، كان السبئيون رحلاً ثم استقروا في اليمن. ظهرت قوتهم عند ضعف مملكة المعينيين، في حوالي العام ٨٠٠ ق. م. امتدت مملكتهم على حساب مملكة المعنيين، ثم حلت محلها كلياً وبسهولة، وورثت مجالها التجاري.

كانت العاصمة الأولى صرواح ثم مأرب. امتدت مملكة السبئيين إلى الشمال حتى واحة الديدون، والحجاز (البقعة التي تضم مكة والمدينة) كانت من ولايات هذه المملكة. وامتدت حدودها الشرقية حتى خليج عمان (حضرموت). ينقسم تاريخ هذه المملكة إلى محطتين:

١- محطة المكاربة، كان اسم ملك سبأ مكرب أي القريب من الله. دامت هذه المحطة من العام ٨٠٠ – ٦٥٠ ق. م.

٢- محطة الملوك السبئيين: من العام ٦٥٠ – ١١٥ ق. م. أول ملك (العام ٨٠٠ ق. م.) سمه على Semmou Ala.

كانت خلال المرحلة الثانية متطورة جداً. بني سد مأرب في العام ٦٥٠ ق. م(؟) لكي يروي أراض جديدة ويخزن مياه المطر والمجاري. ثم بنيت سدود أخرى، ما جعل الإقليم "جنة عدن".

انكبت السلطة في اليمن على الحروب ضد الحميريين، فأهمل السبئيون صيانة سدودهم، ما أفضى إلى فقر التربة والزراعة ثم تصحر الأرض. لذا هاجر الكثير من السبئيين نحو الشمال وأقاموا هنا مستوطنات. كان الصراع على السلطة، وتدخل مصريي بتوليميه Ptolomee في العلاقات التجارية مع بلدان الشرق، السبب في انهيار هذه المملكة، بدءاً من العام ٣٥٠ ق. م. وفي العام ١١٥ ق. م. يسيطر الحميريون على البلاد ويؤسسون مملكة جديدة.

ج – المملكة الحميرية العام ١١٥ ق. م – ٥٢٥ م.
١ – المملكة الحميرية الأولى العام ١١٥ ق. م – ٣٠٠ م.
حاول الرومان عدة مرات غزو اليمن ونهب ثرواتها، بطريق اليابسة عبر الصحراء، لكن عبثاً. وتوصلوا إلى خدش هيمنة الحميريين التجارية بطريق البحر بتطوير أسطولهم، ما أفضى إلى وهن المملكة، فتمكن الرومان والمصريون من حرية التجارة في المحيط الهندي والبحر الأحمر.
٢ – المملكة الحميرية الثانية ٣٠٠ ق. م – ٥٢٥ م.
عاهلها الأشهر شمر ياهر أش Shamar Yahr Ach (العام ٢٧٠ – ٣١٠).
احتل ارمينيا، دحر التركمان ودخل سمرقند التي تحمل اسمه، وطرق أبواب الصين.
٢,١ – احتلال أثيوبيا لليمن:
حسب غلازر في كتابه "الأبيسون في الجزيرة العربية وأفريقيا" الذي نشر في العام ١٨٩٦ (١٣١٣ هـ)، "اجتاز العرب مضيق باب المندب واحتلوا بداية مراكز تجارية على الساحل، ثم أحيوا مستوطنات في داخل البلاد، دفعوا أمامهم الأفريقيين من هذه المنطقة وطوروا هنا حضارة عربية وشيدوا مملكة أكسوم"، استناداً إلى النقوش والكتابات الأثيوبية التي جمعها الكاتب اليوناني كوسماس، في القرن الأول من العصر المسيحي.
بلغت مملكة أكسوم ذروتها حوالي القرن الثالث وامتدت نحو الشمال والجنوب. وفي حوالي العام ٣٢٠ بدأ نشر الإنجيل في البلاد وصارت المسيحية دينهم الرسمي( ). في الحقبة ذاتها، حمل السوريون الإنجيل إلى اليمن( ).
وفي العام ٣٤٠، رداً على غزوات العرب لأثيوبيا وتهديد تجارتها بالدمار، احتلت أثيوبيا اليمن. لجأ الملك الحميري وذووه إلى المدينة (الحجاز) حيث اعتنقوا الإيمان الإسرائيلي، الذي كرزت به القبائل العربية الموسوية.
وفي العام ٣٤٠ – ٣٦٨، انتهز الملك الحميري دعوة جيش الأبيسين في أثيوبيا التي أطلقها نيفوس، لاسترجاع السلطة. ويصير سكان اليمن (أساساً الحضر) إسرائيليين ويعزفون عن عبادة الأوثان.
وفي العام ٤٤٩، أُعيد بناء سد مأرب، لكنه ما عتم أن تهدم. آخر ملك قبل الغزوة الثانية لليمن على يد الأبيسين هو دو – نوّاس Du – Nuwas حكم من العام (٥١٠ – ٥٢٥).
٢,٢ – سقوط المملكة الحميرية:

تصـير أثيوبيـا المسـيحية الحليـف الطبيعـي للبيـزنطيين، حمـاة مسـيحي "الشرق". بالمقابل، ولإضعاف نفوذ اللوبي الأثيوبي في اليمن، اضطهد الملك الحميري مسيحيي نجران (أهم مركز مسيحي في اليمن) في العام ٥٢٣. كان هذا الحدث ذريعة غزو اليمن من قبل الأثيوبيين، وبمباركة الإمبراطور البيزنطي. قتل الملك دو – نوّاس في المعركة وانتقلت اليمن إلى الهيمنة الأثيوبية في العام ٥٢٥.
كـان للجنـرال الأثيـوبي الحـارث معـاون اسـمه ابراميـوس أو أبرهـة (ابراهام؟). دخل جيشه صنعاء ودمر أعظم قصور هذه المدينة. حرّض أبرهـة علـى انقـلاب علـى قائـدهِ وقتلـهُ. وأعلـن نفسـه ملكـاً علـى الـيمن، وانتشرت المسيحية آنئذ في اليمن وتطورت. رغب أبرهة أن يجعل صنعاء مكة الجديدة. ليجذب إليها حجاج شبه الجزيرة العربية. ولهذا، شرع بتدمير كعبة مكة.
وفي العام ٥٧٠، عام الفيل – سنة ولادة النبي محمد (ص) - مشى أبرهة إلى مكة على رأس مقاتليه وفيلته. هنا، لم يلق أي مقاومة من جانب العرب لكن جيشه أبيد بالقدرة الإلهية، حامية الأمكنة المقدسة (قرآن – C V).
بعد موت أبرهة، في ذات العام، بقي الأثيوبيون في اليمن عشرين سنة أخرى. انتفض الناس و، بمساعدة الفرس، دحر الأثيوبيون. ورسخ الفرس الساسانيون، بقيادة الإمبراطور خسرويس انتدابهم لليمن، البلد الذي عبروه عقوداً من السنين، من أجل ثرواته ووضعه التجاري الاستراتيجي.
خولهم هذا الوضع احتلال سوريا فيما بعد، وفلسطين ومصر في العام ٦١٤، إنما لفترة قصيرة، تماماً قبل دخول الإسلام في التاريخ.
٣,٦ – المدن المكرمة في المملكة العربية السعودية:
إلـى جانـب الممالـك والإمبراطوريـات العربيـة المـذكورة أعـلاه، ثمـة مـدن عربية خالصة (أهمها ثلاث) كانت موجودة على دروب التواصل البرية والبحرية لا يمكن إهمال أهميتها الإستراتيجية. عاشت هذه المدن فترات متفاوتة تحت وصاية إحدى هذه الممالك، وفق تقلبات التاريخ. مع ذلك، نجحـت فـي صـيانة وضـعها الخـاص وغالبـاً "اسـتقلالها" حسـب وضـعها الجغرافي في وسط الصحراء، والموقف السياسي لحكامها.
هذه المدن الثلاث في الحجاز هي مكة، الطائف والمدينة التي كان اسمها قديماً يثرب). الأولتان موجودتان في المنطقة الجغرافية لمكة.
أ مكة:

هذه المدينـة موجـودة فـي مركـز طـرق التواصـل التجاريـة العالميـة، البريـة والبحرية. تشكل جسراً قائماً بين اليمن، البحـر المتوسـط ومـا بـين النهـرين، من جهـة وبـين أفريقيـا والسـواحل العربيـة علـى المحـيط الهنـدي، مـن جهـة أخرى.
كان المرفأ الرئيسي، الشعيبة، منفذاً علـى البحـر الأحمـر لمكـة، قبـل إنشـاء مرفأ جدة. وكانت مكة أيضاً المركز الديني الأهم لشبه الجزيـرة للمشـركين. ثم وجدت فيها أقليات إسرائيلية ومسيحية. وهنا أيضاً ظهر الإسلام.
يقول التراث إن "الكعبة كانت أول بيت (أو مبنى) شيد على الأرض، وأول الجبـال المجـاورة (كـان جبـل أبـو قبـيس). لقـد أمـر آدم أن يبنـى الكعبـة، بمسـاعدة الملائكـة، ثـم ممارسـة الـدوران – الطـواف – حـول هـذا "البيـت القديم". وبعد الطوفان، لـم يعـد النـاس يعرفـون مكـان الكعبـة، حتـى وصـول النبي إبراهيم وابنهُ إسحاق إلى هذا المكان. كان إبراهيم يـأتي مكـة كـل عـام من أجل الحج. وكذلك، اسحق وأمه سـارا، والأنبيـاء قبـل – ابراهـام، حجـوا إلى مكة. ومات عدد من الأنبياء في أثنـاء وجـودهم فـي هـذه المدينـة ودفنـوا فيهـا (بمـن فـيهم نـوح، الـذي حـج قبـل وبعـد الطوفـان). فـي أثنـاء الطوفـان اقتربت سفينة نوح من منطقـة مكـة (المبتعلـة) خـلال أربعين يومـاً وطـافت حول الكعبة( )".
كـان إبـراهيم أول نبـي أوصـى النـاس بـالحج إلـى مكـة وعلمهـم الطقـوس. والنبي موسـى، الـذي وصـل مكـة علـى جمـل أمغـر، مـن أجـل الحـج، طـاف الطواف الطقسي.
انتقل الحجاز تدريجياً من المدار المعني إلـى المـدار السـبأي والحميـري. ثـم دخلت هذه المنطقة في المدار النبطي وحاول الرومان / البيظنطيـون مـراراً غزوهـا، بدايـة بمـؤازرة النبطيـين ثـم الإثيـوبيين. وتـوخى الامبراطـوار جوستنيان امتلاك كل المناطق الساحلية للبحر الأحمر، ليتحـرر طريقـهُ إلـى الهند وإضعاف بالتالي الدولة الفارسية. لكن، مساعيه ذهبت أدراج الرياح.
وانطلاقـاً مـن القـرن السـادس، أفـادت قبيلـة القرشـيين (جـدود النبـي محمـد (ص)) من الحروب بين البيزنطيين والفرس لتعزيـز الوضـع التجـاري فـي هذه المنطقـة كونهـا منطقـة لقـاء تجاريـة. فاشـتهرت هـذه المنطقـة بأسـواقها وإعفاء الناس (من الضرائب).
كانـت الحجـاز، منـذ ألاف السـنين، منطقـة رطبـة، بمـراع دسـمة وكثـرة غاباتهـا. ثـم بـدأ التصـحر عملـه وتحـول الحجـازيون إلـى تجـار وصـارت ثروتهم مضرباً للمثل.

كان أول سكان مكة القحطانيون، وهم من أصل يمني – بنو جرهم، جدهم قحطان كما في التوراة. استقر هنا إبراهيم وزوجته هاجر وابنه إسماعيل. تزوج إسماعيل من هذه القبيلة، ساعد أباه إبراهيم في إعادة بناء "البيت القديم"، الكعبة، وكان أول من صانها.

كان هؤلاء العرب، ذرية إسماعيل، موحدين. ثم صاروا وثنيين وتركوا دين جدودهم.

مكة أول مدينة مقدسة في الإسلام ومركز كل المسلمين. بني مسجد الحرم حول الكعبة.

ب – مدينة الطائف:

هذا هو المركز الديني الثاني في شبه الجزيرة العربية للعرب الوثنيين، بعد مكة. وهو المدينة الاقتصادية الثانية من حيث الأهمية، بعد مكة.

اشتهرت المدينة بمناخها الصحي، بجداولها، بأراضيها الخصبة وإنتاجها الزراعي.

يروي التراث أن الله استجابة للنذور التي قدمها إبراهيم لتصير مكة منطقة خصبة ومزدهرة، نقل ربما تربة من سوريا إلى الطائف"( ). تتمون منطقة الحجاز (بخاصة مكة) ذاتياً بالحبوب، الزبدة، العسل، البقول، الثمار بأنواعها (من البلح إلى الموز، إلى الرمان، التين، الدراق، البطيخ، وغيرها....) كانت أعناب الجافة تصل كل آسيا.

وكان سكانها أيضاً صيادين، مزارعين وتجاراً. إلى جانب الديانات المشركة، كان يسكن الطائف حميريون وعرب من الشمال ويهود ومسيحيون.

ج – مدينة يثرب:

مدينة قديمة جداً، سماها بتوليميه يثرب( ) في جغرافيته.

يرجع التراث تأسيس هذه المدينة إلى يثرب بن عيرام بن سام بن نوح أي الابن المباشر لنوح عن طريق آرام( ).

يحكي بعض المؤلفين عن المدينة (الاسم الذي أخذته بعد مجيء النبي محمد (ص)) كاشتقاق من كلمة آرامية مدينتنا أي المدينة( ). ويؤرخ كتاب آخرون بناء هذه المدينة في حوالي العام ٢٦٠٠ ق. م.

المنطقة خصبة جداً، ومياهها وفيرة، جعلت زراعتها واسعة التطور : تنتج الحبوب، الثمار، البقول، البلح... أول مزارع، وغارس شجرة البلح عربي من بني – عملاق، حفيد سام.

انتشر الإسرائيليون في المنطقة بعد احتلال اليونان فلسطين وما بين النهرين. وهاجروا إلى هنا (مع غيرهم) ليلتحقوا بقبائل بني إسرائيل الأخرى. أشهر هذه القبائل بنو قريظة، النضير وبنو قينقاع.
بعد دمار سد مأرب، وفدت إلى هذه المدينة قبائل الأوس والخزرج.
واغتنموا تطور بنو إسرائيل آنئذ، من التجارة والزراعة وحكموا المنطقة، وكان ملكها فتوان، ابن إحدى القبائل الإسرائيلية. فتن هذا الملك بنات القبائل اليمنية وأغواهم. ولتثأر الأوس والخزرج من هذا العار قتلوه وطلبوا مؤازرة الغساسنة.
أخذ هؤلاء، أي الغساسنة بعد دخول يثرب سلطة القبيلتين، وصاروا سادة المدينة دام هذا حتى وصول النبي محمد (ص).
بعد تدمير معبد القدس على يد تيتوس، في العام ٧٠ م. ترك أرهاط إسرائيل فلسطين: لجأ البعض إلى الحجاز، والبعض إلى اليمن. وإلى هذه الحقبة ينسب التهوّد الثاني لبعض أهل اليمن.
مارس سكان يثرب الزراعة، الحرفة والتجارة. كانت هذه المدينة ملتقى تجارياً بين سوريا واليمن، بطريق البر، والبحر، بين الهند ومصر. كان المرفأ الرئيسي ينبع Yanbo ثغراً على البحر الأحمر.
وإلى يثرب لجأ النبي محمد (ص)، بعد هجرته من مكة في العام ٦٢٢ م. (الواحد للهجرة) ومات في هذه المدينة (التي صار اسمها المدينة( ) ويوجد رمسهُ في الجامع.
المدينة( ) هي المدينة المقدسة الثانية للإسلام، بعد مكة.

٤ – الملاحة عند العرب:

٤,١ – في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي.
لم تنس حضارة العرب أن تضم فن الملاحة إلى عالمها. ففي فصل موجات الهجرة، أشرنا إلى عبور العرب إلى أفريقيا بطريق البحر، عبر مضيق باب المندب. وعلى النحو ذاته، إلى فارس (مضيق هرمز على بعد اثني عشر كم فقط من الشط العربي)، وإلى السند (وادي الهندوس) وإلى الهند (بحر عُمان) والوصول إلى سلسلة جزر في عرض الشاطئ الغربي (جزر لاكديف، ملديف، الخ...) كل هذا خول العرب الوصول إلى هذه البلدان بمخر البحر.
كان ثمة العديد من المستوطنات العربية في فارس وفي السند (باكستان الحالية)( ) وعدد من المواقع المنتشرة على طول الساحل الغربي، العامر

بالتجار العرب (فالتمون بالتوابل، البخور، وغيره بواسطة التجار العرب أمر معروف).
كما البدو الذين رحلوا عبر الصحراء الكبرى، وتوجهوا بهداية الكواكب والنجوم( )، كان العرب الملاحون الذين مخروا بداية البحار التي تشاطىء شبه الجزيرة (بمساعدة الملاحة الفلكية، البوصلة، التخمين والمعرفة الدقيقة للرياح المهيمنة والفصول – وقت – الرياح الموسمية)، ثم بمتابعة البحار الأبعد (عرف البحارة العرب الصين، وجلبوا منها الحرير، البورسلين، الشاي، الخ...). وصلوا حتى موزانبيق (في أفريقيا)، وإلى سيام (تايلند الحالية) وجزر الصوند (أندونيسيا الحالية).
كان التخمين يعتبر أساس الملاحة بالذات. وكانت وحدة التخمين كأصبع في مشط اليد. فلم تكن مراقبة أحد الكواكب ممكنة إلا بعلاقته بكوكب آخر. والشراع الثلاثي في أروبا، الذي حلَّ محل الشراع العربي، في حوالي القرن السادس عشر م (الثاني عشر هـ)، هو بالتأكيد تطوير للشراع العربي المسمى المظين( ) – شراع الميزان.
كان الخشب المطلوب لتعمير السفن يأتي من الهند واليمن (حيث تكثر الغابات).
وكانت القصيدة قبل الإسلام (مع ساعدة بن جوبة الهزلي وطرفة بن العبد وغيرهما)، تغنّي البحر، جزرهُ، جواهره ومرجانهُ وتقيم المقارنة بين الجمل، مركبة الصحراء، الذي تشبه خطواته المتموجة الترنح والترجح، والمركب البحري. وكان بعض العرب، قبل العصر الإسلامي، في وقت معاً، صيادي ماس، في الصيف، ورحل في الشتاء والربيع( ). وحتى الآن، يتغذى سكان الجنوب والشرق العربي بالسمك فقط ويغذون به دوابهم: ما يفترض دعوة تقليدية للصيد البحري.
وقد اكتشفت كتابة يمنية في مصر (الجيزة) في قبر، يخص تاجراً يمنياً حمل من بلاده سلعاً للمعابد المصرية، وعاد منها بمركبهِ الحامل الأقمشة المصرية، كان هذا طيلة حكم بتوليميه فيلادلف (القرن الثالث ق. م.)( ).
وقد حفر الفرعون سنوسرت الثالث (١٩٠٠ تقريباً ق. م) قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر لتطوير العلاقات التجارية مع الجنوب العربي، وخلق مسلكاً ملاحياً.
وحاول الإمبراطور الروماني أوغست غير مرة تقليص تفوق الملاحة البحرية في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي، ليقدر أن يراقب الدروب البحرية التجارية بين مصر والهند، ونجح جزئياً ولمدة بسيطة.

كانت عدن مرفأ انطلاق التجارة نحو شرق أفريقيا، بينما كانت البصرة المرفأ التجاري مع الهند (في بداية العصر المسيحي). وثمة مرفأ هام في الخليج العربي هو جرهه حيث ترسي السفن التجارية وهي راجعة من الهند والصين.
وكانت هذه البضائع (التوابل، العطور، الحرير، الحجارة الكريمة، الخ...) تنقل بالتالي بطريق اليابسة نحو محطتها الأخيرة. وعند مجيء الإسلام، استمرت هذه العلاقات التجارية مع مختلف البلدان كما في الماضي، وتطورت أكثر بالطريق البري والبحري. ووصل الإسلام إلى الصين بعد وصول التجار العرب، ثم بإرسال أربعة آلاف جندي لتعزيز إمبراطور الصين، الذي هدده تمرد، في العام ٧٥٥ م.(١٣٧ هـ).( )
ووصل الإسلام إلى إندونيسيا، الفلبين بطريق البحر. واقترب أيضاً من التخم الجنوب – الشرقي لأفريقيا وقد تلونت اللغة المحلية في هذه الأقاليم بقوة باللغة العربية)، ووصل مدغشقر وجزر المحيط الهندي (زنجبار، الكومور، الخ...) حتماً بطريق البحر.
من كتّاب البحر، المراكب وفن الملاحة، نذكر اثنين مشهورين ككتاب ملاحين عرب مخروا المحيط الهندي في كل الاتجاهات وتركوا عشرات المؤلفات في الملاحة الشاطئية والعالية – البعيدة، (من شرق أفريقيا حتى الهند)، حتى قبل مجيء ماجلان وفاسكودي غاما إلى هذه الأقطار. هما أحمد ابن ماجد (نهاية القرن الخامس عشر م. (العاشر هـ) وسليمان المهري (بداية القرن السادس عشر م. العاشر هـ).
يؤكد الكاتب الأول، بن ماجد في أحد كتبه، أنه هو نفسه كان المرشد – الملاح الذي قاد فاسكودي غاما من رأس الرجاء الصالح إلى الهند.

٤,٢ – في البحر الأبيض المتوسط والأطلسي:

كان الفينيقيون، عرب الشمال (فلسطين ولبنان الحالية)ملاحين شجعاناً وحكموا بمهارة كل البحر الأبيض المتوسط. في الألف الثالثة ق. م، كانت الحضارة الفينيقية منارة بكل معنى الكلمة، وكانت الملاحة إحدى مجالات تألقهم.
في هذه الحقبة من العام ٢٨٠٠ ق.م. أسس الفينيقيون عدة مرافىء: تير (صور)، بيبلوس (جبيل)، سيدون (صيدا)، عكا (آكر)، يافا، غزة وانكبوا على التجارة البحرية. وأقاموا عدة مراكز على طول البحر المتوسط. وفي القرن الرابع عشر ق.م. أسسوا مدينة أوتيك (Utique) (قرب تونس الحالية) التي مع مدينة هيبون (عنابه في الجزائر) التي أسست في العام

١٢٥ ق.م. أهـم مراكـزهم الأفريقيـة. وفــي ٨١٤ ق.م. بنيـت قرطاجـة ثـم صارت عاصمة العالم الفينيقي.
وأقيمت المراكز الفينيقية أيضاً في الشمال، لتعانق المستوطنات السكانية: في الألفية الثانيـة ق.م. في بحر ايجه وفي قبرص، وفي العام ٨٥٠ ق.م. بقـي الفينيقيـون فـي مالطـه – القرطـاجيون فـي هـذه الجزيـرة حتـى الهيمنـة الرومانية، في ٨٧٠ م (٢٥٦ هـ) وليس صدفة أن يقال إن المالطيين أبناء مباشرين للفينيقيين، الذين يتكلمون لغتهم.
واحتل الفينيقيون أيضاً في حوالي الألف الأولـى ق.م. سردينيا وكورسكا، وفي حوالي القرن الثامن احتلوا مرسيليا وجنوب فرنسا، وسيسيليا أيضـاً. وأنشأوا مرفأ – فاندر (Roussillon)( ) في القرن الخامس ق.م. بعد أن فتحوا، قبل قرون، في اسبانيا مراكز وبنوا جسوراً، على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط.
وتمركـز الفينيقيـون علـى طـول الشـط الشـمال – أفريقـي (مـن ليبيـا إلـى مراكش).
ومنذ القرن الحادي عشر قبل العصر المسيحي، وجدت مستوطنات سكانية في تيتوان، طنجه ولاراش (على الأطلسي). وصل الفينيقيون إذن بسفنهم إلـى المحيط الأطلسـي: فـي لاراش (مراكش)، فـي قـادش (اسبانيا) وحتـى البرتغـال (مرفـأ ستوبال (Setubal) النمـوذجي الفينيقـي، مـع اسم الـه – الشمس الفينيقي بعل bal).
وأبحروا أيضاً في البحر الأحمر: يروي العهد القديم المساعدة التي قدمها حيرام، ملك فينيقيا، لسليمان، بأسطوله، لنقل اثنـي عشر طنـاً من الذهب، بدءاً من خليج العقبة.
ومثلما كان العرب عبدة الأوثان في الجنوب، كان الفينيقيين ملاحين كباراً: مخر حنون Hannon، البحار القرطاجي، في حوالي العام ٥٠٠ ق.م. الشطآن الأطلسية من قارة أفريقيا حتى جزيرة فرنانـد وبـو Fernando Po (الإكواتـور)( ) وبعـد مجـيء الإسـلام لـم يتخـلّ العـرب عـن هـذا المضـمار. ففـي العـام ١٩٢٢ م (١٣٤١ هــ) نشـر العـالم اللغـوي ليـووينر LeoWiener كتاباً بعنوان "أفريقيا واكتشاف أمريكا" يتحدث فيه عن وجود العديد من الكلام العربـي فـي اللغـات الأمريكيـة، ويؤرخ دخـول هذه الكلمات في العام ١٢٩٠ م (٦٨٨ هـ) أي قبل قرنين من وصول كولمبس.
ويتكلم العديد من المخطوطات الاسبانية عن لفيف من تسعة شباب بحارة أندلسيين وصلوا أمريكا قبل كريستوف كولمبس( )

وفي العام ١٩٥٦ م. (١٣٧٥ هـ) اكتشف في جزيرة ترينيداد (في العرض الفنزويلي)، مخطوط عربي بتوقيع موسى بن ساطع، أحد البحارة العرب الذين شكلوا شريحة من فريق كريستوف كولمبس: يصف هذا البحار ألمه ومعاناته بعد سقوط مالاقه وغرناطة والوضع الحزين لأبناء دينه، ويتحدث عن مشروعه لتأسيس دولة عربية في أمريكا تحل محل أسبانيا. وخلص إلى القول إنه لم يستطع تحقيق مشروعه( ).
ونحن نرى أن العرب، خلال قرابة ثلاثة آلاف عام، على الأقل كانوا بحارة مقدامين، ملاحين محاربين من أجل ترسيخ تفوقهم البحري والساحلي في المحيط الهندي، في البحر المتوسط، لا بل في المحيط الأطلسي( ).
فرض على الملاح العربي تلاؤمهُ السريع مع المحيط، إجراءُ بعض التطورات في تقنيات تعمير المراكب، الملاحة، وصنع الأشرعة... ومصطلح "هواري Houari" (الذي يعني اليوم نموذج محدد في تجهيز السفينة)، هو كلمة عربية كعدد كبير من المصطلحات التقنية والكلمات التي تخص البحر والبحرية، هي من أصل عربي. والعلاقات بين النقابات البحرية، والعلاقات التجارية والأهلية بين عرب البحر المتوسط والبحر الأحمر أو بحر عُمان ليست سوى مفترضة أو منتحلة (ورد هذا الاستشهاد المذكور أعلاه في العهد القديم). والجزيرية (أو شبه الجزيرة) عنصر آخر لحب العرب للبحر وتعلقهم بالمدى التجاري المتسق مع تذوق المغامرة. فالبحث عن العيش مراعاة للشروط الجغرافية والمناخية لبعض المناطق – هو أيضاً موضع اهتمام اجتياز الصحراء والسفر في البحر.
ونحن لن ننسى أن العديد من البلدان الأروبية – منذ بعض الوقت – طورا بحريتهم ليستطيعوا تأمين مؤونتهم من التوابل، الشاي... ثم البترول.

ج – حالات فريدة لأسبانيا (والبرتغال):

شبه الجزيرة الإبريّة، جغرافياً، وحدة طبيعية يحدها من الشمال سلسلة جبال البرينيه، ومن الشرق البحر الأبيض المتوسط، ومن الغرب المحيط الأطلسي.
ليست مفصولة عن أفريقيا، ومن الجنوب، مضيق جبل طارق، بعرض ١٤ كم (ما يساوي تقريباً عرض مضيق باب المندب) والساحل الشرقي، والبحر الأبيض المتوسط، يقترب تدريجياً من القارة الأفريقية (مراكش، غرب الجزائر) نزولاً نحو الجنوب.

رأينا أن الفينيقيين احتلوا اسبانيا( ) في حوالي القرن العاشر قبل العصر المسيحي، بداية بفتح مراكز تجارية على الشاطئ، ثم بتأسيس مستوطنات سكانية حتى بداية القرن الثالث ق.م. أي ثمة وجود فينيقي مستمر خلال أكثر من سبعة قرون.
وانتزعت روما أسبانيا من القرطاجيين في بداية القرن الثالث، ثم خضع هذا البلد إلى قوى أخرى (كالـ فاندال. والوزيغوت، وغيرهم...) حتى وصول العرب المسلمين في بداية القرن الثامن الميلادي (نهاية القرن الأول الهجري). دام الوجود السياسي المسلم ثمانية قرون. وبإضافة الوجودين العربيين (الفينيقي – القرطاجي والعربي – المسلم)، أي خمسة عشر قرناً، بفاصل خمسة قرون فقط للرومان.
هذا يذكرنا بأن خمسة عشر قرناً تفصل الجمهورية الفرنسية الحالية الخامسة عن مجيء كلوفيس الميروفنجي (في العام ٤٨١ م.)( ).
ولقد أفضى الوجود الأول الفينيقي – القرطاجي، الذي امتد سبعة قرون إلى تأسيس عدة مرافئ وعدة مدن، وقيام العلاقات التجارية المتوالية، التي رأت اشتراك كل الفئات الاجتماعية لهذه الشعوب بالنشاط والتطوير الاقتصادي، إلى أن طبعت تلك الحضارة العربية بطابع يخص شبه الجزيرة في المضامير الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية. وعندما وصل الرومان واجهوا مقاومة عاتية من قبل أبناء البلد الأصليين (كان الاستيلاء على نومانس في العام ١٣٣ ق.م.) قاموا بتمردات مستمرة (سرتريس من العام ٨٠ – ٧٣ ق.م.) ولم "تهدأ" البلاد إلا في نهاية القرن الأول الميلادي وصارت الرومنة واقعاً.
كما اليونان في مصر، والرومان في مصر وشمال أفريقيا، لم تر طلائع جيش يوليس قيصر في إسبانيا وشمال أفريقيا سوى بلاد غنية تخضع لفرض الضرائب والسخرة بلا رحمة.
كان الإمبراطور الروماني يرسل إلى روما ثروات هذه المستعمرات المنهوبة من الزراعة والمناجم: كانت السرقة منهجية للمناهل التي تضمها هذه المستعمرات. وكانت اسبانيا تقع عند نقطة التقاء القارتين، والمناطق المجاورة، في شمال وجنوب شبه الجزيرة الإيبرية. وكانت بلاد الغول وشمال أفريقيا بيد روما.
كان يجب إذن الحفاظ على هذه الأرض الإستراتيجية، التي تسيطر أيضاً على غرب البحر المتوسط (الذي كان آنئذ بحراً رومانياً بكل معنى الكلمة)، وكذلك على جزر (سيسيليا، سردينيا، كورسكا، البليار). كانت

سيطرة الرومان على هذه البقاع برية وبحرية في آن معاً. في هذه الشروط، يمكن التأكيد أن الأسبان ما كانوا راضين عن الاحتلال الروماني، ولما كانت اسبانيا منطقة مستعمرة، فليس ثمة اختلاط ولا انصهار بين الاثنتين لأن المستعمرين الرومان كانوا قلة ولا يعدون عملياً سوى موظفي الإمبراطورية، وأسرهم، والعنصر العسكري في المخافر.
إن تشابه الاستعمار الروماني في اسبانيا وشمال أفريقيا بيّنٌ جلي .
كان استعمار أفريقيا نتيجة استعمار إسبانيا، وطبعاً، كما في شمال أفريقيا كان ثمة أقلية ترومنتْ فتعاضدت مع روما. وكما كان لروما أباطرة من أصل أسباني (تراجان، هادريان، مرقس، أوريل)، فقد حكمها أباطرة من أصل أفريقي، الصارم السابع Septieme Severe وأبناؤه الأربعة، (كراكلا، ايلاغابال، السكندر وجيثا)، وماكرين، من أصل قيساري مثل مرفأ شرشل الحالي (La cherche) في الجزائر.
كان فتح الفاندال لأسبانيا، في ٤٠٩ م. سريعاً جداً: خلال عام واحد، احتل شبه الجزيرة الإيبرية كلها. هذا يعني عدم التعاون إن لم يكن عدم رضى الأسبان عن الوجود الروماني. وبعد عدة أعوام، وقع شمال أفريقيا كله – وبسهولة – في أيدي الفاندال( )! وفي العام ٥٣٤، احتل الإمبراطور البيزنطي جوستنيان إسبانيا. لكن الاضطراب السياسي كان القاعدة.
وقد نشبت عدة حروب أهلية من العام ٦٣١ – ٧٠٩ م (٩-٩١ هـ) وفي العام ٧١٢ م. (٩٤ هـ) استقبل الأسبانُ العرب كمحررين. ولا بد من القول إن الشعب القرطاجي، المنصهر بالسكان القدماء لشبه الجزيرة، الذي شكل منذئذ الشعوب الإسبانية، رأى في العرب المسلمين أخوة عرقية، فقامت بينهم علاقات حميمية اجتماعية وثقافية، ثم دينية.
فيليب حتّي( ) لا يعارضنا بهذا الخصوص، ويعلن: "الشطر الوحيد من شبه الجزيرة (الإيبرية) حيث تعمقت جذور الإسلام كان هو الشطر الذي ازدهرت فيه في سالف الأيام حضارة سامية، هي الحضارة القرطاجية. والواقع شديد التعبير، هو انتقال نفس الأمر إلى سيسيليا. وبعامة هنا وهناك، اندمج خط الفصل بين الإسلام والمسيحية مع الحدود القديمة للحضارات الفينيقية والغربية". و ي. ف. غوتيه E.F.Gautier من نفس الرأي( ).
وكما حدث للمصريين مع اليونانيين (أسرة البتوليميين) أو للشمال – أفريقيين مع الرومان، لم يقبل الأسبان الثقافة الرومانية. فاللغة الاسبانية هي اللغة الوحيدة "اللاتينية" التي تتميز عن اللغات الرومانية من حيث

أهمية معجمها العربي، ووجود حروف ساكنة عربية نموذجية. ويمكن الزعم أن اللغة الاسبانية، اللغة الإيبرية الفينيقية( )، لم تترومن بعد الاستعمار الروماني (القرن الأول ق.م.) وتبني البلاد الدين المسيحي، كما كان الأمر في شمال أفريقيا (المستعمرة الرومانية).
بعد أسلمة شبه الجزيرة الإيبرية، حتى جبال البرينيه، تداول كل الأسبان لغة القرآن العربي، حتى القرن الحادي عشر م. القرن الخامس هـ). بقي، حتى حوالي نهاية تلك الحقبة، بعض المقاطعات المسيحية في الشمال (غاليسيا، قسم من أراغون وكاستيليا، وكاتالونيا)، تابعين للمنصور (بن أبي عامر) ثم ابنه ربما المظفر Al – Mudhaffar. وتطورت اللغات الإقليمية، الغاليسية، القشتالية( )، بدءاً من القرن الحادي عشر م. (الخامس الهجري)، بعيداً عن اللغة العربية، بفعل الصراعات المتفرقة التي خاضها مسيحيو الشمال ضد الإسلام. وانتقلت إلى اللاتينية Latinisees بسرعة لأسباب تاريخية، سياسية ودينية جلية. لا يتعارض هذا مع تداول، بعد هذه الفترة، مسيحيي هذه المقاطعات اللغة العربية كلغة أم. وأن يرسلوا أبناءهم إلى الجامعات العربية، ويتحدوا، بتزويج بناتهم من أسر شخصيات سياسية أو عسكرية اسبانية مسلمة.
وبدءاً من العام ١٤٩٢ م. (٨٩٦ هـ)، تاريخ سقوط غرناطة واتحاد كاستيليا مع اراغون وقشتاله، ونظراً للأهمية التي أخذها الاكليروس في شؤون البلاد، صارت رومنة اللغة الشعبية أوضح وأكثر منهجية. بداية لأن اللاتينية كانت لغة التوراة (الكتاب المقدس Vulgate)، ووجوب تلقين الدين المسيحي لكل المسلمين، دونما استثناء، أي كل الناس. ثم، وجوب القطع بين فكر ولغة الناس، بإدخال لغة جديدة، تختلف عن اللغة العربية، من حيث الأساس والشكل.
رغم هذه اللّتننة المفتعلة للمفردة العربية، في النحو وتصريف الأفعال، الخ... بقيت بعض الحروف الساكنة العربية (مثل La jota – j – ou cita – Z)، وأيضاً الـ التعريف، في اللغة الاسبانية الجديدة رغم محاكم التفتيش وفاشيتها (دمرت الكنيسة دونما تمييز كل الشواهد المكتوبة، وحتى فنون العمارة للأسبان العرب كما فعلت في المكسيك، بمخطوطات المايا وباقي الشعوب الأمريكية، رغم هجرة الصفوة العرب (كتاباً، علماء، فنانين، وسوى ذلك...)، حافظت اللغة الإسبانية، بعد خمسة قرون، على أكثر من ألفي كلمة عربية في معجمها.

إن أخصـائي اللغـة المقارنـة هـم أصـحاب الشـأن لإعطـاء رأيهـم فـي هـذا الموضوع، وأن يقولوا هل اللغة الاسبانية، التي تطورت بخاصة بعد العام ١٤٩٢ (٨٩٦ هـ) هي لغة أكثر لاتينية منها عربية، وفي أي حقبة أنهت انسلاخها.

يؤكد كثير من الكتاب الأروبيين – بخصوص "الاسترجاع" أو الردة أن كل مسلمي اسبانيا هُجّروا، منذ العام ١٤٩٢ م. (٨٩٦ هـ) حتى ١٦١٠ م. (١٠١٨ هـ). فعلاً، مرّ أولئك الذين لم يرتدوا و/ أو لم يعتنقوا المسيحية بين الحديد والنار، إن لم يتمكنوا من الهرب، وهم البعيدون عن وطنهم ومن المؤكد أن محاكم التفتيش قصدت أولاً الناس المثقفين، الشخصيات الدينية، الثقافية أو السياسية الذين يقدرون اليوم أو غداً، الانضمام إلى المعارضة ويجـرّون خلفهم الشعب. لكن كثيراً من الناس، لأن لا يتركوا جنسيتهم ووطنهم، فضلوا الصمت أو الارتداد من طرف اللسان، وبقي القلب مسلماً أبداً.

وعلى مر الأجيال، كان الإسلام "السري" يتقدم ثم يتوارى. إنما ليس العروبة، التي هي مجموعة سمات وخواص فيزيائية وأخلاقية خاصة بالعرب. واليوم، إلى جانب غنى المعجم العربي في اللغة الاسبانية الراهنة، يمكننا أن نلاحظ العديد من أسماء العلم العربية، في الأُسر والأشخاص والمواقع، شاهدة على عدم انقطاع الاثنية العربية في اسبانيا، قبل وبعد الغزو الروماني.

سارع الرومان عندما احتلوا اسبانيا وشمال أفريقيا إلى رومنة أسماء المدن والقرى المحتلة. لكن اسبانيا بقيت عند الرومان مستعمرة استغلال. لم يستقر هؤلاء في داخل البلاد، خلال أجيال، ليصلوا إلى تسمية المزارع، الضيع، أمكنة معينة وأيضاً، بقيت الأسماء العربية بعد الغزو الروماني، حتى وصول الإسلام. واستقراره في عرض البلاد وطولها وتعمير الفراغ المدني والريفي أو أتموا ما بدأوه

إن اختفى العرب الأسبان تماماً، بعد العام ١٦١٠ م. (١٠١٨ هـ)، فقد انتقلوا إلى الأرياف والمدن بأسماء غير عربية وتلقائياً، وتطورت أسماء الأمكنة وعُمدت من جديد. لأننا لا نعرف أو ندرك المناخ الاجتماعي والديني لتلك الحقبة، المستمر حتى هذه الأيام في أسماء مواقع عربية دونما وجود شرائح ومواكب عربية.

وهذا ما حدث في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي للبلاد. كل القرى، المزارع، وأمكنة سكن الفرنسيين، أعاد هؤلاء تسميتها. والقرى الأخرى،

والضيع، المعزولة أو الواقعة في الجبال، أو خارج الدائرة الاقتصادية، التجارية والقتالية الاستعمارية لم تمس. وفي العام ١٩٦٢ م. (١٣٨٠ هـ)، بعد استعادة وطنهم (ورحيل الفرنسيين)، ألغى الجزائريون التسميات الفرنسية وأعادوا لها اسمها الأصلي. إن بعض الكتاب مصابون بقصر النظر التاريخي بخصوص هذه الأمكنة، ويقولون إن هذه الأسماء، قبل أن تصير عربية (بعد أسلمة المغرب) كانت رومانية. ويقف هؤلاء عند الفتح الروماني. إنما قبل أن يكون الغزو، يجب وجود بلاد تغزى، إذن كان الشعب يدافع عن بلده.
يدرس الكتاب مسألة ما قبل الاستعمار الروماني، ولا يجلون التسميات الرومانية إلا كنفي لتاريخ هذه البلدان وسكانها (سيناريو لأزمنة أخرى وأمكنة أخرى). هكذا اسم (قرطاجي) مدينة الجزائر، المكتشف على نقد فينيقي، هو ايقوسيا Eikoci حوله الرومان إلى Ikasium (أو Icosium). يلاحظ الزائر الذي يصل اسبانيا في القرن العشرين (الخامس عشر الهجري)، بسرعة الخصائص أولاً الفيزيائية، ثم الأخلاقية العربية: الاسباني العادي مستقبل، مضياف صادق، في سلوكه وفخور (كما كان جده الرحالة) ومستقل.
إن خاصية الاستقلال هذه كانت السبب الأول لسقوط نابليون. وبالفعل في أسبانيا سحق الجيش الامبريالي، مع مورات، واستهلك من العام (١٨٠٨ – ١٨١٤ م. / ١٢٢٣ – ١٢٢٩ هـ). وفي العام ١٤٩٢ (٨٩٦ هـ)، لما وصل كرستوف كولمبس إلى أمريكا: وجد بين بحارته وملاحته( ) بالتأكيد، أسبان أي عرب، متمرسون بأعمال البحر.
يتكلم بعض الكتاب عن الملاح العربي الذي رسم الدرب لكولمبس نحو الغرب (الفينيقيون – القرطاجيون موجودون أبداً!). وعند وصول مسيحيين إلى اسبانيا (الذين سموا "مسترجعين")، كان للحضارة العربية الكثير من الناس في كل مكان، إنما كان على الوافدين الجدد أن يكتشفوا عالماً لم يعرفوه، شركات ناجحة، أمنية، مشافي، جامعات، جوقات فن، هندسة عمارة نقية، رياض معطرة ومزدهرة، الخ... وأن يستفيدوا من هذا المناخ العام على أعلى مستوى للانطلاق لفتح العالم( ) (الجديد والقديم)، إذ استعمروا المكسيك في العام ١٥٣٦ م. (٩٤٢ هـ)، والبيرو في العام ١٥٤٣ م. (٩٤٩ هـ).
امتلك شارل كانت (١٥٠٠ – ١٥٥٨ / ٩٠٥ – ٩٦٥ هـ)، إمبراطور ألمانيا والبلدان المنخفضة، الكثير من الأراضي في إيطاليا. كان هذا قمة

إمبراطورية اسبانيا. ففي العام ١٥٨٨ (٩٩٥ هـ)، أي أقل من قرن بعد سقوط غرناطة، بدأ انحدار الإمبراطورية مع هزيمة "الارمادا" الجيش الذي لا يغلب، أمام الانكليز. مع ذلك، ورغم انهيار الحكام، حفظ الشعب تراثهُ، دفن عميقاً القيم "الإنسانية" التي استطاعت وعرفت أن تشع على الحضارة العربية الاسبانية، التي أضاءت أروبا وأمريكا. هكذا أعطت اسبانيا الشرعيةُ الكتابَ، الفنانينَ الجديرين بأجدادهم( ).
نتحدث الآن عن كلمة كبيرة وهي الاستعادة: من أجل الكلام عن استعادة بلد ما، يجب امتلاك هذا البلد في الماضي. هنا نقول إن روما انتزعت اسبانيا، في بداية القرن الثالث من العصر المسيحي من القرطاجيين، (الموجودون فيها منذ سبعة قرون). ثم وصل الفاندال، وبعدهم الوزغوت Wisigoths، الخ... في القرن الثامن الميلادي (القرن الأول الهجري)، العرب هم الذين استرجعوا اسبانيا وليس الرومان أو غيرهم. إذن إن أمكن الحديث عن الاستعادة، فالاسترجاع العربي هو المقصود، لأن العرب (الفينيقيين – القرطاجيين) سكنوا هذا البلد منذ أكثر من ألف وثمانمائة سنة! وزيادة في البغي أهملوا كلمة عربي ووضعوا كلمة سامي. إن الأسبان الذين يعرفون تاريخهم، لا يخجلون من الاعتراف مجدداً، أنهم عرب بالعكس: "Somos Arabes" يعلنون هذا في الشمال أو الجنوب( ).
أراد البعض أن يحدد الوجود العربي في الأندلس فقط، لكن مصطلح أندلس يعني باللغة العربية كل شبه الجزيرة الايبرية. عندما تُزار اسبانيا، لا سيما الجزر، الأقل انفتاحاً على الخارج (الباليار مثلاً) يخيل للزائر أنه في حي شعبي من مدينة في شمال أفريقيا، وليس هذا غريباً.
إلى جانب اللغة والقسمات الجسدية والملكات الأخلاقية – المعنوية الاسبانية، يمكن أن نذكر العادات (الحرفية، الموسيقية، المطبخية، الألبسة، وغيرها...) التي لا يشك أحد بعروبتها. ونحن لا نوافق أبداً غ. لوبون الذي يعلن( ) في ص ٤٧، بهذا الصدد: "اختفى العرب من أسبانيا نهائياً، دون أن يتركوا أخلافاً لتستمر صورتهم عبر العصور". لكن الكاتب ذاته، في العمل ذاته (ص ٤٥١) يكتب نقيض ما أورده في ص ٤٧، يقال: "إن النفوذ العربي مات نهائياً في إسبانيا، لكن بعض المدن بخاصة اشبيليا Seville، مليئة بذكريات العرب. بيوتها مبنية بالنمط المسلم، ولا تختلف أبداً عن نماذجهم إلا بفقر نقوشها. والرقص والموسيقى، فعلاً عربية( ). وكما قلت آنفاً، يمكن التحقق بسهولة من وجود خليط الدم الشرقي".

تلخيصاً لهذا البحث غير المستوفي ولا المفصل (ليس هنا مكانه)، يمكننا القول إن النماذج الاسبانية، الآن، بالنسبة لعدد كبير من الشعب هي، فيما يخص قسماتهم الفيزيائية ومناقبهم الأخلاقية – المعنوية، هي الأقرب إلى العربي الأصيل سيما في هيئته المغربية، بل يمكن اعتبار اسبانيا بلداً عربياً كما هي مالطا وإثيوبيا.

الفصل الثاني

الدين الموحّد

(إن الدين عند الله الإسلام)   صدق الله العظيم

قرآن ١١١ـ ١٩

١ – الكتب المقدسة( ):

الأديان الثلاثة الموحدة، اليهودية، المسيحية والإسلام لها، لكل منها، كتابه المقدس، أنزله الله على أنبيائه (صلى الله عليه وسلم).

أ – التوراة:

أنزل على موسى في حوالي ١٢٠٠ ق.م. مجمل التوراة، كتب تاريخية، شعرية ورسولية تشكل العهد القديم. كتب التوراة باللغة العبرية والأصح آرامي – عبري أو يهودي – آرامي) لم يبدأ التدوين الرسمي إلا في حوالي العام ٩٠ م. كان هذا عمل الحاخامات المجتمعين في "مجمع" جامنيا. ولم ينته إلا في حوالي القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري)( ).

يعني هذا أن التوراة لم تكتب رسمياً، منذ ما بدأت إلا بعد موت النبي يسوع ولم تنجز إلا بعد موت النبي محمد (ص)، ما يعني إمكانية وجود تفسيرات عديدة بنظر التطور الاجتماعي - السياسي والديني في عالم تلك الحقبة والتعرض لخطر "العديد من التغيرات والأخطار المميتة" (كما يقول السيد ديبون – سومر)، طيلة هذه الحقبة الطويلة العاصفة.

إن الكتاب المقدس الأول (المتميز عن التوراة البابلي، المكتوب باللغة الآرامية عند إقامة الإسرائيليين في بابل، في نهاية القرن السادس ق.م، بعد تهديم معبد القدس بأمر بختنصر ونفيهم) التقطه الكنعانيون والفلستين (الفلسطينيون) بعد انتصار هؤلاء على الإسرائيليين، بعد خروجهم من الصحراء. وسلم لداود الملك – النبي، الذي وضعهُ في المعبد. ثم ضاع الأصل في الزحام.

أعدت النسخة الإغريقية للتوراة (العهد القديم) في الإسكندرية بأمر الملك بتوليميه الثاني في القرن الثالث ق.م. (أي نسخة السبتيين التي اعتبرت النسخة الرسمية لدى الكنيسة الكاثوليكية). فوضع المؤرخون هذه الترجمة في القرن الأول المسيحي. تسمى هذه النسخة أيضاً النسخة المصرية (نسبة إلى مكان الإعداد، مصر). والنص الرسمي اللاتيني هو عمل جيروم( ) في القرن الرابع الميلادي استناداً إلى نسخة السبتيين.

كلمة توراة تعني شريعة، نظرية أو معرفة.

٢ – العهد الجديد:

يتضمن الأناجيل الأربعة (متى، مرقص، لوقا ويوحنا).، وأعمال الرسل النثرية، الشعرية والرؤيا.

يختلف تاريخ كتابة الأناجيل حسب المؤلفين: حسب. ي. رينان E.Renan كتب متى سنة ٨٤، وكتب انجيل مرقص سنة ١٥٠، وانجيل لوقا سنة ١٦٠، وانجيل يوحنا سنة ١٧٠. تقع التواريخ المقبولة اليوم في النصف الثاني من القرن الأول. ثمة مجادلات ومناظرات عديدة في الكتابة المقدسة:

- في القرن الثالث، نشبت خلافات حول عدد الكتب التي يجب اعتبارها شرعية للعهد القديم.

- وبخصوص العهد الجديد، نشر البابا جيلاز، في القرن الخامس، قراراً بعد ظهور العديد من الكتابات المنتحلة (غير الشرعية أو المشكوك بها) وتهجمات ضد شرعية بعض النصوص.

- وفي القرن السادس عشر (العاشر الهجري)، أدينت نسخة لوثر لاحتواء الترجمة على ألف وأربعمائة خطأ.

في نفس الوقت، منعت النسخة الفرنسية بسبب وجود ملاحظات مستوحاة من اللوثرية

- استبعدت السوربون النسخة الانكليزية (إنجيل متى) لكنها قبلت الانكلكانية. تعني كلمة إنجيل باليونانية الخبر الطيب.

انزل الإنجيل على المسيح الذي لقنه لتلاميذه وأوصاهم أن يكرزوا به. على هذا، دبج آخرون من غير التلامذة (مثل بولص) أناجيل لا تخلو من التحريف، والإضافات أو الإغفالات. لكن الكنيسة الرسمية لم تقبل من مئات النصوص إلا أربعة، تلك التي تطابق الرؤيا الدينية الخاصة بهذه الكنيسة.

- كتب إنجيل متى، وهو الأقدم، باللغة العبرية وضاع. وحسب المؤرخ أوسيب، كتب هذا الإنجيل بالعبرية، بينما يرى آخرون، أنه كتب بالسريانية. وليس النص الراهن سوى ترجمة لا نعرف صاحبها (كما يشير جيروم، في القرن الرابع.

- وكتب إنجيل مرقس، باللاتينية. كان هذا الانجيلي تلميذ الرسول بطرس، وأنكر إلوهية المسيح. وذبح في السجن بالإسكندرية في العام ٦٨.

- وكتب إنجيل لوقا، باليونانية. كان لوقا طبيباً سورياً ولم يعرف يسوع شخصياً. كان بولص معلمه وبعد موت هذا الأخير، كتب لوقا إنجيله.

- وكتب يوحنا: تلميذ يسوع، إنجيله بناء على طلب ملح من أساقفة آسيا، المجتمعين في العام ٩٠. هذا النص معارض بوضوح للأناجيل الأخرى، التي تنكر إلوهية المسيح. لا ينسب بعض الكتاب هذا الإنجيل إلى القديس يوحنا بل لأحد التلاميذ (حسب بيرت شنيدر) أو لأحد طلاب مدرسة الإسكندرية (حسب ستادلن والكاثوليكي هيرالد في العام ١٨٤٤ – ١٣٠١ هـ). يذكر كروتس عشرين فصلاً ينسبها للقديس يوحنا، وقد حررت الفصل الواحد والعشرين كنيسة ايفيس Ephese بعد موت يوحنا لتثبيت إلوهية المسيح.
يكتب ابن خلدون بخصوص الأناجيل: "بعد موت المسيح، تشتت الحواريون... آنئذ، كتبوا الإنجيل الذي نزل على المسيح، بأربع نسخ استناداً إلى تراثهم المتباين.
كتب متى إنجيله في القدس، بالعبرية. ترجمه إلى اللاتينية يوحنا، ابن زبيده، أحد الحواريين. وكتب لوقا إنجيله باللاتينية، لأحد أعيان الرومان. وكتب يوحنا إنجيله في روما. وكتب بطرس إنجيله باللاتينية ونسبه لمرقس، تلميذه. هذه النسخ الأربعة للإنجيل متباينة".
في كل حال، التباين واضح في هذه الأناجيل الأربعة، وكذلك بعض الإضافات الواردة في أحدها وأغفلت في الأخرى.
لم تعترف الكنيسة الكاثوليكية بإنجيل برنابا( )، أحد الحواريين الاثني عشر. تحدث هذا الإنجيل عن الختان كما كان يمارسها موسى، وحرّم تناول اللحم إلا لحم الضحية، والخمر، والزنى. وأعلن أيضاً عن مجيء نبي أسمه أحمد (أو محمد). وفي نهاية القرن الخامس، حرّم البابا جيلاس الأول تناول هذا الإنجيل. اكتشف هذا النص الذي كان موجوداً في مكتبة البابا سيكست – كينت، في نهاية القرن السادس عشر (العاشر الهجري)، الأسقفُ، فرا مارينو Fra Marino، وبعد أن اعتنق الإسلام.
٣ – أنزل القرآن على محمد (ص) في حوالي العام ٦١٠ بعد الميلاد.
كلمة قرآن أو قر،آن Qor an بالعربية، تعني قراءة، تلاوة، تعليم (جذور (ك.ر.أ)).
يقول فيليب حتّي، الكاتب المسيحي، العلاّمة في تاريخ العرب، في القرآن، "كتاب الله هو بالذات كلمة الله، أمليت على محمد بواسطة رئيس الملائكة جبرائيل". بالمقارنة مع نص التوراة، يقدم نص القرآن قليلاً من الريبة والغموض. النسخة الأولى الوحيدة والأخيرة، كتبت ولم تتغير، بعد موت محمد بتسعة عشر عاماً. عندما ندرك أن أولئك الذين حفظوا النص عن

ظهر قلب ذهبوا يبشرون به في ساح المعارك الدائمة التي قتلت أصدق المؤمنين. وبعد تدوين النص الرسمي، أتلف الباقي.
منذ أربعة عشر قرناً، بقي النص القرآني، الذي دون بأمر الخليفة عثمان، كما هو حسب الأصل، دون زيادة ولا نقصان. يعيش النص الأصلي حتى أيامنا. كتب بالعربية. لم يقبل المسلمون أي نسخة أو ترجمة أخرى.
في دراسة هذا الفصل، سنستخدم الكتب المقدسة بحيث لا تتعارض الوقائع والأحداث بين نص وآخر. نص القرآن، الأحداث بين الكتب الثلاثة، والذي لم يخضع لأي تحريف أو تبديل ("يقدم القرآن الأقل من الريبة") سيؤخذ بالاعتبار عند الشك أو المنازعة.
مثلاُ: يسمي العهد القديم إسحاق ابن إبراهيم للتضحية. والتوراة نفسها (سفر التكوين – ٢٢) وفي نفس الصفحة يلح ثلاث مرات على التضحية بالابن الوحيد. إسماعيل، بكر إبراهيم، كان في الرابعة عشرة من عمره لما أتى إسحاق إلى الدنيا. وكان الطفل وأمه هاجر يسكنان صحراء مكة (البقعة التي لم يتركوها) منذ أن كان إسماعيل رضيعاً. ويعلن القرآن (٣٧ – سورة ١٠١ – ١٠٧، بعد أن كانت التضحية بالكبش (عوضاً عن إسماعيل) في السورة ١١٢ عن الولادة القريبة للنبي إسحاق.
عدا عن ذلك، هذه التضحية الطقسية التي يسميها المسلمون عيد الأضحى يحتفى بها كل عام، في نفس اليوم (من السنة القمرية) وفي ذات المكان (مكة) لحدوث "الهولوكوست( )" الأصلية، بينما لم تذكر بين الأعياد أو التضحيات الطقسية في المذهب اليهودي.
وفيما يخص تأريخ الأحداث، لا تشير الكتب المقدسة إلى أي تاريخ. أحياناً، يذكر الملوك (بعض الفهارس)، وأخرى يصعب حصرها بزمنها). سنحيل بهذا الخصوص إلى تاريخ تسلسل الأحداث أو الحقب التاريخية وإلى كتابات كتّاب مختصين.

ب – الأنبياء – الرسل( ):

١ – النبي إبراهيم:

(يا أهل الكتاب لمَ تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون. ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) صدق الله العظيم٠ قرآن ٦٥/٦٧ – ١١١
منذ خلق آدم، كان الناس أما موحدين أو مشركين. حسب الكتب المنزلة بسبب وثنية الناس وفسادهم كان الطوفان، حسب أغلب الكتاب في حوالي الألفية الحادية عشرة قبل العصر المسيحي. فقط نوح وذووه، عبدة الله

الواحد، هربوا، وأبناؤه سام، حام ويافس يعمرون الأرض. كان عمر نوح ستمائة سنة عند حدوث الطوفان ومات عن عمر يناهز تسع مائة وخمسين عاماً. في الجيل العاشر (حسب العهد القديم) ولد إبراهيم، في أور Ur ( )، في كلده (ما بين النهرين) أي ثلاثمائة وتسعين سنة بعد الطوفان. عملياً، يجب أن لا نأخذ ما ورد في التوراة حرفياً، بخاصة في قضية إبراهيم، لأن الكتاب، بأغلبيتهم، متفقون على أن ولادة إبراهيم كانت بين العام ٢٠٠٠ و ١٧٠٠ ق.م. أي تسع آلاف سنة بعد الطوفان.

ذرية نوح وسام تطابق إقامته في مصر مدة حكم الهكسوس – الملوك الرعاة وفي كلامه عن الأنبياء، يعلن ابن خلدون في "خطاب في التاريخ العام": "اختار الله بعض الأفراد ليمجدوه، ووجه لهم الكلمة. خلقهم بشكل يمكنهم من معرفته. خلق وسطاء بينه وبين عبيده. يلتزم هؤلاء المختارون بإرشاد الناس إلى الخير وتحريضهم على سلوك الطريق الصحيح.

واجبهم أن يبعدوهم عن درب نار جهنم، وتوجيههم إلى درب السلامة. أعطاهم الله معرفة (فريدة) تظهر على شفاههم بأعاجيب، ما يدل أن ثمة أشياء تتجاوز الناس: لا يمكن أن تأتي إلا من الله، عبر مختاريه، ولا يستطيع هؤلاء أن يعرفوها إلا إن الله علمهم إياها... وهؤلاء الموحى إليهم الكبار معروفون، قبل التجلي، بالطيبة، البراءة والخلو من كل ما يشين، من كل خطأ.... وإشارة أخرى للأنبياء أنهم ينشرون الدين والعبادة بالصلاة والإحسان والطهر".

وفي مكان آخر، يضيف الكاتب "الأنبياء موهوبو النفس التي، بطبيعتها، قمينة بالتخلي عن الخواص البشرية، الفيزيائية والروحية حتى مستوى الملكوت الأسمى. هكذا تستطيع هذه النفس أن تصير ملاكاً، وقتياً، وترى الكائنات العليا في مجالها، وتسمع الكلمة النفسية والخطاب الإلهي. منح الله هؤلاء الأنبياء طاقة طبيعية (فطرة) نزعهم من بشريتهم، في أثناء الوحي. وحررهم من العجز البدني الملازم للشرط البشري. أولاهم موهبة العصمة والاستقامة والرغبة في عبادة الله. حيث تتضافر الرغبات. ويصل المختارون إلى حالة الملكوت، بترك شرطهم البشري بإرادتهم، بفضل وضعهم الطبيعي، دون عون أي طاقة مكتسبة أو أي تقنية.

يذهب الأنبياء في هذا الاتجاه يرمون بشريتهم وما أن يوجدوا بين اللفيف السامي (الملائكة)، حتى يتعلموا كل الممكن. يحولون بالتالي المعارف إلى المستوى الأعلى للأحاسيس، التي ينقلونها إلى الناس".

أبراهام، الشاب، يعارض أصنام بلاده "وطنه"( )، ما بين النهرين ويكرز بهم بترك الوثنية، إلى عبادة الله، الواحد الوحيد، كلي العلم وكلي القدرة. وأمام تهديدات الموت التي واجهه بها الكلدان، وإدانته بالحرق حياً (حسب القرآن، الله يطفئ لهب الحطب وينجيه من موت محتم)، هاجر أبراهام واتجه نحو الغرب، نحو بلاد الكنعانيين، ثم مصر.
ما يجب ذكره تشابه الشروط التي اعترضت النبيين (ابراهام ومحمد(ص))، من حيث الهجرة: الصراع الديني ضد الأوثان في مدينتهم، ومعارضة هؤلاء العنيفة لرسل الله. لجأ النبيان، مع "بيتيهما"، إلى بلد مضياف، وأكثر قبولاً لطرحهما التوحيدي ورسالتهما الإلهية (بلاد كنعان للأول، المدينة المنورة – يثرب للثاني). هناك بنى أبراهام نزلاً خالداً"( ) وبنى محمد مسجده الأول في المدينة.
كان والد أبراهام وثنياً (حسب التوراة) في إمبراطورية بابل، وزوجته سارا، كانت أيضاً وثنية، وابن أخيه، لوط (ابن حران، أخ أبراهام) آمن برسالة إبراهيم، وتبعه الاثنان في هجرته. بدأت رسالة أبراهام النبوية، عندما أمر، بالحلم، أين يضحي "بابنه الوحي" ( )( ) يعني إسماعيل، ابنه من زوجته الثانية، هاجر المصرية.
وبينما، بدأ أبراهام يستعد للتضحية بإسماعيل، تدخل رئيس الملائكة جبرائيل وقدم خروفاً للذبح عوضاً عن الابن. هذه هي التضحية بالخروف التي يحتفي بها كل عام المسلمون، في نفس منطقة "الذبح"، في مكة.
نذكر أن مكة كانت نقطة زلة هاجر ووليدها، بعد الخلاف بين زوجتي أبراهام (حسب التوراة). بعد أن اصطحب زوجته وولدهما في صحراء مكة، بدأ أبراهام يقسم حياته بين "بيتيه". أمر الله أبراهام "إمارة الاتحاد"، أن يختن، هو، ابنه وأقرباءه. كان أبراهام آنئذ في الـ ٩٩ من عمره، وابنه إسماعيل في الثالثة عشرة.
وختان الذكور، حسب الكتب المقدسة، إمارة جسدية ودموية على الاتحاد الأبدي القائم بين الله وآدم، في الأصل، ثم بين الله وإبراهيم، وكل ذريته، بعد الطوفان.
وفي الإنجيل حسب برنابا، تلقى آدم، بعد عصيان ربه، أمراً بواسطة رئيس الملائكة جبرائيل أن يختن نفسه. والمسيح، ذاته، كان قد ختن في اليوم الثامن من ولادته، وفقاً لشريعة موسى، بينما امتنع عنه المسيحيون( ).
علم أبراهام ولديه – إسماعيل واسحق – طاعة الله الواحد، لا شريك له، أي الدين الأول والأخير، الإسلام. سيمارس كل من هؤلاء في منطقته دين

التوحيد ويعلمه لسلالته، شفهياً وتقليدياً، دون الرجوع إلى الكتب المقدسة (التي لم تكن قد تجلت بعد، بل بدءاً من النبي موسى( ).

رأينا في الفصل الماضي، الحدود الجغرافية لشبه الجزيرة العربية، منذ آلاف السنين قبل العهد المسيحي، ورأينا أن، سكان فلسطين وما بين النهرين كانوا عرباً، اثنياً ولغة. وكان هؤلاء عبدة أوثان ومشركين، رغم ظهور بين هؤلاء الناس عدد من الأنبياء قبل ابرهة. يذكر القرآن الأنبياء إدريس (إنوش حسب التوراة)، نوح، هود وصالح (شيلاش حسب التوراة). "أرسل" هود ليكرز بكلمة الله إلى شعب عاد وهذا اسم قائدهم وجدهم. كان عاد حفيد آرام، ابن سام. يقول بعض الكتاب إن استخدام اللغة العربية بدأه عاد، حفيد نوح (الجيل الرابع)، ويربط آخرون استعمال هذه اللغة بيعرب حفيد نوح وجد قحطان (جوكثان حسب التوراة).

ويعلمنا بعض المختصين أن القبائل التي سكنت ما بين النهرين سموا عرباً لأنهم قطنوا في غرب الفرات: غربي = عربي إذا لم تلفظ غ ذات النقطة، ومن هؤلاء الآراميون( )عرب أ ر ب وعبري أ ب ر هي كلمات عربية كنعانية تعني بدواً أو رحلاً. يشير الدكتور الإسرائيلي وولنفسون أن الحد عبري ABR وعربي ARB هما شيء واحد، ثمة دس أو حشو بين المقطعين.

وأرسل صالح ليكرز بكلمة الله إلى شعب ثمود وهذا اسم قائدهم وجدهم. ولقد أبيد شعبا عاد وثمود لأنهما يعبدان الأوثان ويشركان ولم يطيعا أنبياءهما(كما يشير القرآن).

واحتل النبطيون، في القرن السادس قبل العهد المسيحي منطقة بنو – ثمود (البادية العربية (أي منطقة رعي)، كما تؤكد البقايا الآثارية، المنقوشة على الحجر. وكان النبي أبراهام، كما يشير القرآن (٦٧ – ٦٥ – ١١١) مسلماً (أي يخضع لله)، وصديق الله، وليس إسرائيلياً، لأن قبيلة بني – إسرائيل هي من سلالة يعقوب (إسرائيل)، حفيد أبراهام وابن إسحاق، أي جيلان بعد أبراهام. كان أبراهام عربياً من بين النهرين وسلالة مباشرة لشيلاح ونشور Schelach et Nachor. فضلاً عن هذا، تتكلم التوراة عن أبناء لوط (ابن حاران، الذي كان أخ أبراهام) وبناته، وكونهم آباء الموآبيين والأموريين – العموريين، الشعوب المعروفة كشعوب عربية. ولم يرد أبراهام كعبري في التوراة سوى مرة واحدة (سفر التكوين – ١٤١١٣) في كل العهد القديم.

عـلاوة علـى أن، هـذا حـديث بيزنطـي لأن كـل ذريـة أبراهـام، بعـد ولادة يعقوب وتشكلِ قبيلة بني إسرائيل، كانت عربية – بما فيها هذه القبيلة – ولم يظهر الدين الإسرائيلي إلا مع النبي موسى.

وينبهنـا فيليـب حتّـي فـي "الـوجيز فـي تـاريخ العـرب" أن "البـابليين، الآشـوريين، الكلـدانيين، الآراميـين والفينيقيـين كلهـم جـنس واحـد وكـان جـدودهم قـد أتـوا قـديماً مـن شـبه الجزيـرة العربيـة... ويبـدو أن جـدود كـل الشعوب السامية الأخرى أتوا من هنـا: البـابليون، الآشـوريون، الكلـدانيون، العموريون، الآراميون، الفينيقيـون، العبريـون، العرب والأثيوبيـون وهنـا، يبدو أنهم عاشوا في حقبة معينة ولم يشكلوا سوى شعب واحد".

ويعلمنـا التـوراة أيضـاً أن إسـحاق، ابـن أبراهـام، تـزوج رفقـة، "ابنـة بتويـل Bethuel الآرامــي"، حفيـد نـاحور، أخ إبـراهيم، "وهــي أخـت لابـان laban، الآرامـي" (سـفر التكـوين ٢٥/١٩) أي عـرب مـا بـين النهـرين. وأيضـاً، يعقـوب (إسـرائيل)، ابـن إسـحاق، تـزوج بنتـا لابـان، ليئـة ورحيـل (سفر التكوين – ٢٩). وعيسو (المسمى ايدوم Edom، أخ يعقوب، تـزوج بنـات هيثيـان Hethiens أي كنعانيـات (سـفر التكـوين – ٣٦). وجـاء فـي التـوراة أن إيسـو هـو أب الأيـدوميين، والحيـريين أي مـن أرهـاط معـروفين كعرب.

وبعد اختفائه مع يعقوب (بحق البكوريه)، رحـل عيسـو باتجـاه إسـماعيل"، وتزوج ابنة إسماعيل وأخت نيباجوث Nebajoth (سفر التكوين ٢٨/٩). فنرى أن أبناء أبراهام (إسماعيل وإسحاق) تزوجـا نسـاء مـن أثنيـة عربيـة، وأن أبنـاء إسـحاق (عيسـو وإسـرائيل تزوجـا مـن الأثنيـة ذاتهـا، وسـلالاتهما عرب (أبا وأماً).

أضف، أن كلمة إسرائيل إذن خادم الله( ). نجد هذا الحد الأدنـى فـي أسـماء العـرب، مثـل وائـل (حبيـب الله) أو خليـل (صـديق الله). وفـي نفـس السـياق يتداول العـرب بسـهولة أسـماء الأنبيـاء التوراتيـة، التـي هـي أسـماء عربيـة، لكنها "قلبت" في اللغات الأروبية لتتناغم معهـا، فكـان الاخـتلاف عـن اللفـظ العربـي. وهـذا اللفـظ الأخيـر عمليـاً هـو نفسـه فـي الآراميـة، والعبريـة، والمصرية.... ونوح عند الأروبيين Ibraham Noe إبراهيم أو إبـراهيم (دونمــا تغييــر) Ishak إســحاق، Ismael" إســماعيل، Mosse أو Moche موسـى، Issa عيسـى، يسـوع Jesus، Youssef يوسـف، Yoseph، Ayoub أيـوب ( ) Job، Dawud داوود David، Suleiman سليمان Solomam، يونس Yonos، Janas، هـارون

Haroun أو Haron، Aaron، الــخ... وأســـماء ســـلالات أبراهـــام الأخرى، مثل عيسو Issou الذي يصير Esau و Lawi لاوي Lewi.
وإسماعيل مع أبنائه الأثني عشر، هو أب بني إسماعيل، بينما يعقوب (إسرائيل) مع أبنائه الأثني عشر، هو أب بني إسرائيل.

٢ – النبي موسى (ع. س):

(وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)
صدق الله العظيم "قرآن ٨٤ – ١٥"

قصة يوسف، أحد أبناء يعقوب الأثني عشر، المطولة جداً في التوراة كما في القرآن: كيف تركه أخوته، يصل إلى مصر ويصير في حماية الفرعون. وبطلب من يوسف.، وزير ملك مصر، تهاجر أسرة بني إسرائيل برفقة يعقوب ورعيل من سبعين شخصاً، إلى مصر (سفر التكوين ٤٦ /٢٧ في حوالي العام ٦٠٠ قبل يسوع. كان كبيرهم يوسف آنئذ في العام ١٣٠ من عمره.

وبعد موت يوسف في مصر، يولد في بلاد فرعون موسى بن عمران ويعقوب، من بيت لاوي (ابن يعقوب – إسرائيل). ولد موسى في حكم رمسيس الثاني.

وفي حكم منفتاح، ابن رمسيس الثاني حدث الخروج، في حوالي العام ١٢٠٠ ق.م.

وبعد أن يقتل موسى أحد المصريين يهرب باتجاه بلاد ماديان Madian ويتزوج ابنة كبير كهنة البلاد. اسم الزوجة صغره (خروج – ٢. يكتب فيليب حتّي( ) "في ماديان، جنوب سيناء وفي بلاد تقع شمال – شرقها تم اللقاء أو الاتحاد Alliance. وهنا بالفعل، يتزوج موسى، رئيس وموجه هذه القبائل، امرأة عربية، ابنة كاهن مدياني (الخروج)".

وهنا يظهر عليه ملاك الخلد، في حوريب، فوق جبل الله، ليوضح له رسالته: تخليص بني إسرائيل من الاضطهاد المصري. فبعد خروج هؤلاء من مصر، أعطى الله الشعب في الصحراء، الشريعة والإرشادات (الخروج ٢٥/١٥). ثم على جبل سيناء، أعطى الله موسى لوحي الشهادة (خروج ١٨/٣١).

انطلاقاً من إقامة بني إسرائيل في صحراء سيناء بُعث الدين الموسوي، باسم نبيّهِ موسى (المسمى أيضاً الدين الإسرائيلي). هذا أول دين توحيدي يطبق تعليمات وإرشادات الكتاب المقدس (التوراة) الذي أنزل على موسى بالعبرية – الآرامية. خلال أربعين سنة بعد الخروج تطورت اللغة العبرية(

) وتحـددت، بممارسـة الشـرائع الإلهيـة ومفهومهـا وشـروحها علـى يـد الإسرائيليين.
وبنو – إسرائيل، الذين تكلموا اللغة العربية قبل إقامتهم في مصر، عاشوا قرونـاً فـي هـذا البلـد وتكلمـوا كلهـم اللغـة المصـرية، ليسـتطيعوا العـيش ومساكنة أبناء البلد. وفيما بينهم، على مر الأعوام، اضطرت اللغة العربية من دون ريب أن تتطور وتأخذ إلى هذا الحد أو ذاك قضايا هامة من لغة البلد المضيف، كما يفعل شعب يعيش في بلد غريب، حتى ولو مثلت اللغتـان فيمـا بينهمـا مجانسـات وتشـابهات. يلمس هذا على حدود البلدان المتجاورة التي لا تتكلم اللغة ذاتها (الاسبانية – البرتغالية مثلاً، أو في مستوطنات بشرية قائمة في بلدان بعيدة وترفّظ لغتها الأصلية بلغة البلد (فالكندية هي مزيج بين الفرنسية والانكليزية).
وبعد أن أقام أربعين سنة في الصحراء، عملياً في مجتمع مغلق، اضطر النبي موسى وكبار الإسرائيليين أن يلفظوا ويدققوا لغتهم الجديدة، لاسيما بعد نزول التوراة ما جعل اللغة العبرية رسمية.
كما تؤكد التقاليد الدينية، ينزل الله الكتب الدينية، الأوامر والإرشادات – الواجبـات بلغـة النبـي وشـعبه: "تلقـى" النبـي محمـد (ص) القـرآن باللغـة العربيـة المكيـة ورهطهـا (بنـي قـريش) اللغـة التـي لـم تكـن إلا ذات اللغـة العربيـة للقبائـل الأخـرى أو المـدن الأخـرى لشـبه الجزيـرة العربيـة، فـي الشـمال (بـين النهـرين)، فلسـطين، البيـداء الرعويـة)، أو الجنـوب (الـيمن، حضـرموت). وكـذلك نزلـت التـوراة علـى موسـى باللغـة التـي يتـداولها هـو ورهطهُ ويستطيع أن يفهمها أي العبرية.
قسم الـدين الموسـوي الشـعوب العربيـة إذن إلـى معسـكرين: إسـرائيليون، موحدون وخاضعون لله (قرآن ٨٤ – ١٠) أي مسلمون، وآخرون، وثنيون ومشركون. يتكلم التوراة بوضوح عن هذا التعارض الفتاك أحيانـاً، عندما تذكر الأذن الذي طلبه موسى للأمونيين والموآبيين، من سلالات مـاديـان، ابن ابراهان) ليجتازوا أراضيهم.
يكتب فيليب حتّي( ) أن "أصداء الأصل الصحراوي للعبريين واضحة في العهد القديم. والملوك الذين يتكلم عنهم النبي جيروم بلا شك هم شيوخ من شمال الجزيرة العربية وصحراء سوريا ويبدو أن سلاّمهLa Sulamite التـي خلد جمالها نشيد الإنشاد المنسوب لسليمان كانت أميرة عربية من قبيلة كيدار Kedar. وجوب Job أيوب، مؤلف أحلى القصائد وأبرعها، التي قرضها العالم السامي القديم، ما كان يهودياً بل عربياً كان.

و"حكماء الشرق" الذين تابعوا النجم، حتى القدس، يبدو أنهم كانوا بدواً من شمال الجزيرة العربية أصحّ من أن يكونوا سحرة أتوا من فارس".
رغم إيعازات الأنبياء، من نوح إلى أبراهام، يبقى الناس على الأرض عبدة أوثان مع، هنا وهناك، "حشود" بشرية أو أفراد ظلوا موحدين ويحترمون الإرشادات الإلهية. وبنوا إسرائيل (الذين لم يصيروا بعد إسرائيليين)، طيلة إقامتهم في مصر "فقدوا الرشد"، في أغلبهم، أي الإيمان بإله واحد، واختاروا وثنية مضيفيهم وبعد خلق موسى وتبليغ رسالته إلى عدد من رعيته، استمر بنو إسرائيل على وثنيتهم حتى بعد خروجهم من مصر وأعاجيب الله في تجفيف البحر الأحمر للعبور إلى الصحراء. وبقوا على عبادة العجل الذهبي، و"التململ" ضد موسى وضد الله، والكفر والوثنية في سهول موآب.
وبعد هذا كافأ الله أبناء بني إسرائيل، لصبرهم طيلة وجودهم في مصر على اضطهاد المصريين فأنقذهم من النير الفرعوني وخلصهم من الاستبداد (قرآن ٨٥ – ١٠ إلى ٩٠). وبالمقابل، لما تمرد بنو إسرائيل على الشرائع والإرشادات الإلهية بهزئهم من الدين الذي بشر به موسى، عاقبهم الله وقاصصهم. "وبعد موت جوزيه Josue (ابن نون) وألعازر ابن هارون، وشيوخ جيلهم، ترك أبناء إسرائيل يهوه إلى عبادة بعل وعشتار( )".
ومكان مملكة إسرائيل المظفرة التي قادها النبيان داوود وابنه سليمان، أتت المملكة التي انهارت بعد انشقاق قبيلتي (يهوذا Juda وبنيامين) ومن جديد، إلى عدم طاعة الله وعبادة الأوثان. وبالتالي احتلال مملكة إسرائيل من قبل الآشوريين في القرن الثامن قبل العصر المسيحي ومملكة يهوذا من قبل البابليين، في القرن السادس (طبعاً ق.م). وبعد قرنين، أي في القرن الرابع، أتى الاحتلال الإغريقي لكل فلسطين ثم الغزو الروماني في العام ٦٧ ق.م. وفي العام ٧٠ م. يدمر تيتوس معبد القدس ويحرق المدينة. ويوم ابتعد أفرام (من نحلة الآسينيين Esseniens) عن رهط اليهود، هو يوم توجه أعضاء من هذه المملكة نحو الشمال، إلى دمشق Damascene. بينما ارتد اليهود الذين بقوا في القدس (بما فيهم أفراد من الايسينيين، تعرضوا لنصل السيف، (عندما احتل بومبي Pompee المدينة). أي القدس، هرب أنصار النحله من القصاص ونجوا( )".
وعند ولادة يسوع، كانت ثلاثة أرهاط تشكل المجتمع الإسرائيلي:
- السادوسيان، المعتبرون "ليبراليين".

- الفريسيون أم الأرثوذكس.
- الايسينيون، أقلية متصوفة، تعارض الرهطين السابقين.

٣ – السيد المسيح:

(إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم. فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون). صدق الله العظيم – قرآن ١١١ – ١٥ / ٥٢

أحد الأنبياء الكثر الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل، منذ موسى، كان يسوع آخرهم. وفي القرآن، سمي يسوع أحياناً المسيح، وأخرى عيسى. يسميه المسيحيون يسوع، وليس كما في اليونانية Assu يسوع، من بني إبراهيم، لداوود. فبين داوود ويسوع، حسب إنجيل متى، ستة عشر جيلاً وواحد وأربعون حسب إنجيل لوقا.

مريم، أم يسوع، كانت بنت عمران، أحد علماء الدين من بني إسرائيل. بعد موت أبيها، تبناها زوج عمتها زكريا، والد يحيى أو يوحنا المعمدان. مريم شابة تقية وفاضلة، زارها رئيس الملائكة جبرائيل وأنبأها عن قرب مجيء نبي يولد من أحشائها، وسيسمى يسوع المسيح، ويتكلم في المهد، كشابٍّ راشد وسيوهب علم الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل) والحكمة. وستكون رسالته الكرز بالكلمة الطيبة في بني إسرائيل وتوجيههم إلى الدرب المستقيم، حسب الشرائع الإلهية.

ولد يسوع في بيت لحم، في فلسطين، في ظل شجرة بلح. ويوحنا المعمدان، العالم في الشريعة الموسوية، والذي يكرز بالكلمة الطيبة، ويعمد الناس بمياه نهر الأردن. يستقبل زيارة يسوع ويعمدهُ. وبعد موت يوحنا، يأخذ يسوع عظاته، يغادر الناصرة ويطوف في الجليل. كان آنئذ في الثلاثين من عمره.

وحسب إنجيل برنابه، في هذا العمر، يفتح له رئيس الملائكة جبريل عينيه ويدخل الإيمان والإنجيل إلى صدره ونفاذ البصيرة وهبة النبوة. تعلن التوراة (عيسو ٩/٤٠) الـ "نبأ الطيب" أي مجيء المسيح والإنجيل. ينزل الإنجيل على يسوع وهو ينقله إلى تلامذته، ولم تحفظ نسخته الأصلية. تضيع هذه النسخة وتستبدل بما يدونه الحواريون أو تلامذة الحواريين، لا بل قسي قلبهم وشوهوا شرائع ومواعظ موسى والأنبياء الآخرين وصاروا ماديين حسب ما ورد في أنجيلي متى وبرنابه.

يقول بعض الكتاب إن تاريخ الإسرائيليين لا يذكر وجود شخص اسمه يسوع وصُلِبَ. ويوسف، المؤرخ المعاصر ليسوع والذي كان ضابطاً

إسرائيلياً، يهاجر من فلسطين نحو الإسكندرية بعد تدمير هيكل القدس ويروي هذه الأحداث في "تاريخهِ" (باليونانية) ولا يتحدث أبداً عن يسوع( )يعلن إسرائيل وولفونسون Israel Wolfensin إن قتل يسوع مذكور في التلمود لكن الإسرائيليين شطبوا هذه الإشارة لأن لا يعكروا صفو المستوطنات الإسرائيلية في أروبا. والمسيح، هو الذي كان يعارض الاستعمار الروماني في فلسطين ووشى به الإسرائيليون، تحت ضغط السلطات الرومانية( ). وبعد موت يسوع، التف تلامذته حول بطرس، وأقاموا الكنيسة المسيحية.

يقول ابن خلدون: "رئيس الطائفة المسيحية ورئيس مؤسساتها"، "هو البطريرك (البابا). وهو رئيسهم الانجيلي وممثل يسوع على الأرض. ينقسم المسيحيون حسب عقائد ومواد الإيمان. عقدوا مجلساً مسكونياً في نيقيا، في حكم قسطنطين، لتحديد النظرية الحقيقية المسيحية. وافق ثلاثمائة وثمانون أسقفاً على كتابة "قانون" (الإيمان) أي أسس دينهم وأسانيده.

ومن جديد، اختلف المسيحيون حول دينهم وحول ما يجب أن يعتقدوه بخصوص يسوع. وخرجوا جماعات وشيعاً، يبحثون عن دعم أساقفة مسيحيين ضد بعضهم البعض. وكان لكل حقبة من الزمان، نحلتها. أخيراً، اجتمعوا في ثلاث فئات: الملكيون (روم كاثوليك)، اليعاقبة والنساطرة... وكان لكل نحلة بطريركها. اسم بطريرك روما الآن البابا. وهو ملكي (كاثوليك). تعود روما إلى (المسيحيين) الفرنجة ولهم فيها مملكتهم.

بطريرك مصر يعقوبي ويعيش بينهم. والأثيوبيون على ذات النحلة. حديثاً، أعطي بطريرك مصر لقب "البابا".

وبمجيء المسيحية، انقسم الإسرائيليون إلى ثلاث شيع رئيسة:

١ – الصدوقيون: لا يؤمنون بالدينونة الأخيرة، ولا بالقصاص الإلهي بعد الموت. يكافئ الله الأعمال الطيبة ويقاصص على السيئة على الأرض.

وسمي الصدوقيون أبناء صادق Sadok، وهو اسم الكاهن الذي مسح سليمان، ابن داوود، بالزيت المقدس. تعتبر هذه النحلة ليبرالية.

٢ – الفريسيون أو الأرثوذكس، الذين كانوا أتقياء وعملياً هم الزاهدون. يزهدون حياة الناس "المشتركة"، ويعيشون فقط بانتظار الدينونة الأخيرة. ثم صاروا ماديين، ويحتفون بمغريات الحياة الدنيوية.

يهتم الفروسيون بتبني قضاء أو حكم الشريعة المقبولة لدى الأمة كلها، وليس فقط لدى أعضاء الأخوية. يحاول المسيح إصلاحهم وجعلهم يعودون إلى "رسالة" موسى، واصلاً بهم حتى التوبيخ.

ويروي إنجيل متى النزاعات الدينية بين الصدوقيين والفريسيين من جهة (الذين يبغون نصب الشِرك له) وبين يسوع من جهة أخرى. يخاطبهم يسوع بوضوح: "أعيدوا مال قيصر لقيصر، ومال الله لله". ويذكر هذا الإنجيل الهجوم الموجه للفريسيين والكتبة من قبل يسوع، الذي يعتبرهم قتلة وأبناء "أفاعي" ويتنبأ لهم بعقاب إلهي لذاك الجيل نفسه( )، وفي العام ٧٠ م، دمّر تيتوس معبد القدس ودك المدينة.

٣ – الايسيون أو الايسينيون: نحلة صوفية، كما يقول السيد دوبون – سومّر( ) "هم الذين ولدوا وازدهروا طيلة القرنين اللذين سبقا احتلال القدس على يد تيتوس وتدمير المعبد الثاني (في العام ٧٠ م). فاعتبر رؤساء المجلس أو الكنيس اليهودي، أي آنئذ الفريسيين كشريحة غير مرغوب بها، ثم هراطقة ومحرومين.

ومن أجل أسباب أخرى، يضيف دوبون – سومّر، لم يعد لهم المؤرخون المسيحيون اعتبارهم، وتصرفوا هم بالمثل. تشبه هذه النحلة، كما هي معروفة الكنيسة الأولى في أشياء مدهشة: ذات المعتقدات، ذات الأفكار الصوفية والأخلاقية، ذات السمات المتفردة. وفي القرن الثامن عشر (الثاني عشر الهجري)، طرح النقد التاريخي بجرأة أن طائفة الأيسينيين تعود لأصل المسيحية ذاتها... بدت هذه النظرية من المدافعين عن الكنيسة كأداة حرب، كذريعة شيطانية موقوفة لهدم أصولية وسمو التجلي المسيحي".

حسب يوسف يلقن الأيسينيون أفضلية الرجوع إلى الله في كل شأن، ويرون أن الأرواح خالدة. وممارسة العدالة لديهم هي الأولى وكل ما في المجتمع من مال وخيرات مشتركة بين المجتمع، وأيضاً لا يأسرون النساء ولا يأخذون عبيداً. يفعلون ما يريد الله، يسلمون كل أمورهم لله، هي ذي لازمة روحانية الكومرانية.

يقول بلين لانسيان Pline lancien إن الايسينيين أقاموا قرب البحر الأحمر (في قمران)، في فلسطين. ويشير هذا الكاتب إلى الحماس الكلي لعبادة الشريعة. "يعملون بعناية خالصة للخلق، باستخدام وباستمرار الشرائع السلفية، تلك التي لا تستطيع النفس البشرية استيعابها من دون الوحي الإلهي" أي شريعة موسى.

حب الحقيقة عندهم، فضيلة أساسية. ويرى هؤلاء أن رهبانية الخونة هي الكنيس الرسمي للأمة اليهودية التي يحكمها كبير الكهنة. هذا، "إنسان

الكـذب" هـو هيركـان الثـاني Hyrcan11 (ابـن الكسـندر جـاني) الـذي اضطهد هذه الطائفة، قبل وبعد هدم المعبد.
إن الدراسة السريعة لهذه الطوائف الإسرائيلية تدلنا على العلاقة الداخلية القائمة بين الدين الموسمي والمسيحية الوليدة، والمعارضـة العنيفة أحيانـاً، بين أنصار هذين الدينين.
فاليهوديـة، القويـة بحـق بكورتهـا وموروثهـا الموسـوي، لا تريـد أن تتجـذر بواسـطة نظريـة أخـرى، "تـدعي" دعمهـا وإعادتهـا إلـى سـواء السـبيل. فترفض الكلمة الطيبة التي يكرز بها يسوع وتشي به لدى الرومان.
ويـوارى الصـدوقيون والفريسـيون خلافاتهمـا وتناحراتهمـا لتجابهـا هـذه الدعوة الجديدة "اليسوعية"، التي صارت ديناً جديداً، المسيحية.
والنحلة الثالثة – الإيسينيون – وهم لفيف ثالث، كما يقول بعض الكتـاب، حسب أرنست رينان إن يوحنا المعمدان، كما يبدو هو رائد المسيحية. ولـم يتخلف نقاد كبار عن الإشارة إلى "الموالفات التي تقدمها نظريات الكتابات الإسرائيلية القديمة في العهد القديم، ومثيلتها المسيحية في بداياتها( ).
يرى دوبون – سومّر أن الأسفار المنتحلة والمختلفة خارج العهد القديم لم تقبل فـي المجلس اليهودي الرسمي كتابات منزلـة، بل لعبت فـي الكنيسـة القديمة دوراً هاماً إلى هذا الحد أو ذاك". لقد كتبت هذه المخطوطات باللغة الآراميـة (المنتحـل علـى سـفر التكـوين، كتـاب دانيـال، كتـاب إينـوش Heniche، عهـد Testament ليفـي، عهـد الاثنـي عشـر بطريـرك، الخ...)، والباقي باللغة العبرية (كتاب طوبيا، السيراسيد Le Siracide، عهد نيفتالي، ربما البولصيون Jubiles Les، الخ....).
كان الإسرائيليون، قبل قرون من مجـيء المسيح، يتكلمـون مـن دون تمييز الآرامية والعبرية، اللغتين الجارتين والنابعتين من اللغة العربية.
وكانوا يكتبون أيضاً اليونانيـة (بعد الترجمـة) واللاتينيـة. ولقد أعطـى تعدد النصوص والترجمات إلى وجود ترجمات للترجمة المستندة إلـى الأصـل. ما أفضـى إلـى تفسيرات عديدة، وعبر الأجيال، أصابت هذه الانتحـالات، التوارة ذاتها والكتابات اليهودية القديمة. هذا ما جعل دوبون – سومّر يقول إن كل المجموعات القانونية الإسرائيلية القديمة تعرضت للترجمة المتعددة ما جعل النقد الحديث يميز شرائح تحرير متباينة، وإضافات وتنقيحات.
وطبق هذا الرأي على مجموعة التلمود وهـي كتلـة فريدة من القرارات أو الآراء القضـائية القانونيـة الحقوقيـة لعدة كتـاب لتلـك الحقبـة... فوجـد فيهـا

طبقات متتالية، وبعض الأوامر والترتيبات التي قدرت أن تعيدها إلى التداول كونها ملائمة لظروف جديدة"( ).
كما يقول القديس أوغستان: "لتكن كتاباتكم محصناتي المبهجة، لا أتوه فيها ولا أضع شيئاً خارج موضوعه( ).
يلح القرآن، في عدة مناسبات على رسالة السيد المسيح الذي يحث الإسرائيليين على إتباع سواء السبيل، وعبادة "ربي وربكم" كما يقول يسوع. وآنئذ يجيب الحواريون يسوع "نحن أنصار الله، نحن نؤمن بإله واحد، واشهد (أنت، يسوع) أمام الله أننا مسلمون" (قرآن ٥١/٥٢ – ١١١).

٤ - النبي محمد (ص):

((وإذا قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي في التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين)) صدق الله العظيم قرآن 06 – Lx1
محمد هو الرسول الأخير الذي أرسله الله إلى الأرض. أعلن التوراة والإنجيل عن مجيء نبي اسمه محمد لكن هذا الإعلان طوي في النسخة اليونانية من الكتابات اليهودية القديمة Septante والأناجيل الأربعة. يشير الإنجيل حسب برنابا إلى هذا المجيء لكن هذا الإنجيل لم تعترف به الكنيسة الرسمية. يذكر التوراة في (رسالة ٤٢/٠/١١) قرب قدوم النبي الذي سيحارب الأصنام وعبادتها (المقصود بهذا النبي محمد)، وترنيمة "النشيد الجديد" أي الدين الجديد مع عبادة الله الواحد( ). ويوجز أن "من قمة الجبال يتردد نداء الفرح". في أصل اللغة العبرية ورد اسم الجبل أي جبل سلع أحد الجبال التي تشرف على المدينة( ). أضف إلى أن القرآن، في عدة مناسبات (منها ١٥٧ – ٧١١) يؤكد إعلان مجيء النبي محمد حسب التوراة والإنجيل. وطبقاً لهذا الإعلان الجغرافي المحدد تشتت الإسرائيليون بعد تمردهم الثاني ضد الرومان في العام ١٣٢ – ١٣٥ م، وهاجروا باتجاه المدينة، ظناً منهم أن النبي القادم هو أحد أبناء قبيلتهم.
بهذا الخصوص، يعلن فيليب حتّي: "متحدثين أبداً عن مجيء المسيح المنتظر، أعدّ اليهود مواطنيهم في المدينة، العرب الوثنيين، لقبول من دون عقبات ظهور نبي من عرقهم" (تماماً قبل ولادة محمد (ص. – BSDSL NDLR). ويذكر التوراة أيضاً إعلان موسى لبني إسرائيل عن النبي الذي يخرج من أخوتهم (العرب NDLR) والذي سينقل رسائل الله، كما أعلن العديد من أنبياء إسرائيل (من دون إلى مالاشي Malachie، عبوراً بـ

Isaie، دانيـال، هابـاكوك Habacuc، آجـي وزا شـاري Agee et Zacharie ( ).
ويعلن يسوع أيضاً في إنجيله، عن رسـول الله المسمى أيضـاً Messie أو Paraclete (يعني هذا التعبير الأخير باليونانيـة من مدح بعظمـة وسمو loue grandement، كلمـة إن ترجمت إلـى العربيـة لأعطت أحمد أو محمد وهذا مؤكد في القرآن (Lx1 – 06):
ويؤكد يسوع إلى الإسرائيليين ما جاء فـي التـوراة ويعلـن، بهذا الصـدد عن مجيء، من بعده نبي اسمه أحمد.
ولد محمد في مكة في العام ٥٧٠ م. فـي قبيلـة بنـي قريش. كـان شيوخ هذه القبيلة يصـونون حـرم مكـة، الكعبـة، مركـز الحـج، كـان هذا الحـرم قد بنـي على يد إبراهيم وابنه إسماعيل، بناء على تعليمات رئيس الملائكة جبرائيل.
يعـود أصـل النبـي محمـد إلـى عـدنان، أحـد أبنـاء إسـماعيل (وهـو نفسـه ابـن إبراهيم البكر). بقي محمد راعياً حتى اليفاعة ثم، فـي العشـرين مـن عمـره، زاول التجارة بين سـوريا ومكـة. وفـي الأربعين ربيعـاً، بعد أن عـاش حيـاة مسـتقيمةٍ وأخلاقـاً مثاليـة، سمع فـي أثنـاء إحـدى تأملاتـه وتوحداتـه العديـدة، صـوتاً يقول له: "تكلم باسم سيدك، الـذي خلـق الـدنيا" (قـرآن 01 – Ive).
هي ذي بداية سلسلة من التجليات علـى آخـر نبـي. محمـد (BSDSL) مـن قبـل رئـيس الملائكـة جبرائيـل، ومجموعهـا سيشـكل القـرآن. نزلـت الآيـات المائة وأربع عشرة الأولـى في مكة، وما تبقى في المدينـة، بعد الهجـرة (أي بعد العـام ٦٢٢ م. – العـام الأول فـي التقويم الإسـلامي). يعلـن فيليـب حتّـي بصدد الكتـاب المقدس: "ليس القرآن قلب الدين فقط، الموجه المعصـوم عن الخطـأ نحـو مملكـة السـموات، بـل هـو أيضـاً خلاصـة العلـم، وثيقـة سياسـية تؤسس مجموعة قوانين لعالمنا الأرضـي".
كمـا جده إبـراهيم، كـان النبـي محمـد، فـي أثنـاء مواعظـه فـي مكـة، عرضـة لعداء مواطنيه وأسرتـه، ثم لمعارضتهم الشفوية بداية، والعنيفة فيما بعد( ).
فقرر بعد رؤيا، الهجرة إلى المدينة (وهذه هي بداية الهجرة) حيث استقبل، واعترف به أبناء يثرب نبياً. استمر هنـا، يكرز بالـدين الجديـد، حتـى عودتـه المظفرة إلـى مكـة بعد عـدة سنوات (العـام ٦٣٠ م. – الثـامن للهجـرة). فـي مسقط رأسه، حطم أصنام العـرب وأعـاد الكعبـة إلـى دينهـا الأصـيل، إسـلام إبراهيم والأنبياء.
وكمـا الكتـب المقدسـة التـي سـبقته، يـتكلم القـرآن عـن خلـق آدم، الطوفـان والأنبيـاء الـذين تتـابعوا مـذّ نـوح حتـى يسـوع، والأنبيـاء الآخـرين الـذين لـم

يذكروا في التوراة. يروي الخوارق التي تمت على يد موسى ويسوع، حكمة وعلم سليمان (ابن داود) ووقائع تاريخية
أخرى. "انشده شعراً مفخماً فصيحاً، فالكتاب، بالفعل صوت زاخر بالقوة والحياة، يجب أن يستوعب في نصه الأصلي لكي يقوّم كما يستحق. شطر كبير من عظمته ومستقبلهِ يستقى من فصاحته ومعانيه، من انسجامه وإيقاعه، الذي لا تستطيع أي ترجمة إيصال فكرته"( ).
في كلامه عن الكتاب المعظم، يعلن ابن خلدون أن "إمارة القرآن هي، في تجليّه على نبينا، المعجزة الأعظم، الأجمل، الأوضح بعامة، تتم الأعاجيب على يد نبي في عزلة، منفرداً، خارج التجلي الذي تلقاه. المعجزة هنا برهان. وهذا بدهي أيضاً. على هذا، القرآن في آن معاً، تجلي ومعجزة. وهذه بذاتها، برهانه. ليس بحاجة لشيء آخر، كما هي حال الخوارق الأخرى، المرتبطة بتجليات أخرى، وهي البرهان الأوضح الممكن، لأنها تصل، بذاتها، في آن واحد البرهان بما يجب إثباته".
ترجم القرآن إلى اللاتينية لأول مرة من قبل بطرس الجليل، كاهن كلوني، بغية دحض العقائد الإسلامية وزعزعة أساسها( )". وترجمه إلى الإنكليزية الكسندر روس، كاهن كاترلسبروك، في العام ١٦٤٩ (١٠٥٨ هـ) مع العنوان التالي "قرآن محمد، الوارد حديثاً إلى الكنيسة الانكليكانية لإرضاء كل الذين يرغبون في ترسيخ الهذر والهراء التركي( )".
يقول غ. ليبون: "الدين الإسلامي دين توحيدي "دون تورط" شامل، يعلم الإحسان، العدل، الصلاة، الخ.... بل يعلمها بكل بساطة ليفهمها الجميع". ويضيف: "يبدي محمد تسامحاً مفرطاً ونادراً لدى مؤسسي دين من أجل عبادات من سبقوا دينهُ، اليهودية ولاسيما المسيحية.... وقد راقب الذين أتوا بعده كل تعليماتهما بهذا الخصوص( )".
كما عارض بنو إسرائيل السيد المسيح ورسالته الإنجيلية، كذلك عارض العرب الذين تبنوا اليهودية النبي الجديد، الذي أعلنته التوراة، لأنه لم يكن من قبيلتهم، ثم لأن وضعه كقائد سياسي – ديني في المنطقة يثير الشبهة لدى هذه القبائل (رهط بني إسرائيل) "الذين كانوا يحفظون آنئذ مفاتيح الاقتصاد الإقليمي ويملكون أخصب الأرض( )". مع ذلك، كان ثمة إسرائيليون في المدينة المنورة (منهم علماء في الدين كبار، وأسرهم) اعتنقوا الإسلام وقاتلوا إلى جانب الرسول.

تحالف العرب الإسرائيليون وعرب المدينة الوثنيون، وكذلك عبدة الأوثان في مكة لإبطال تأثير النبي والقضاء على الإسلام لكن جهودهم كانت عبثاً ودحرهم محمد (ص) وجماعته.
توجب على المسلمين (عبدة الله) احترام مضامين القرآن، والسنة والحديث:
- القرآن كما رأينا، هو الكتاب المتجلي على النبي محمد (ص): هو كلمة وفعل الله.
- السنة هي العلم النابع من أعمال وطقوس النبي والتي يشكل مجملها التراث الإسلامي.
- والأحاديث تكوّن أقوال النبي المعروفة الشرعية، مع سلسلة المتحدثين (رفاق، زوجات الرسول، علماء الدين) المعترف بصحتها ولا تقبل الشك. تسمى سلسلة المتحدثين بالعربية إسناداً.
يؤمن المسلمون بالله الواحد، وملائكته، والكتابات المنزلة، والأنبياء، (نوح، أبراهام، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، أليصابات، يسوع، أيوب (جوب)، يونس، هارون، داود وسليمان) كما وردت في القرآن (IV – 163)، وكذلك موسى، والدينونة الأخيرة.
في الإسلام طائفتان أساسيتان:
١- السنة أو الأرثوذكس، تمثلهم جماهير المسلمين.
٢- الشيعة، يمثلهم أنصار الخليفة علي، ابن عم شقيق وصهر الرسول (كان زوج ابنة الرسول، فاطمة - الزهراء). ظهر الشيعة في معركة أبي سفيان العام (٦٥٧ – ٣٧ هـ)، كأنصار لعلي ضد معاوية (مؤسس الأسرة الأموية).
يعيش أغلب الشيعة في إيران والعراق، والباقي يعيشون في اليمن ولبنان.
يمثل الإسلام ثورة دينية، سياسية، اقتصادية واجتماعية، ليس فقط عند العرب بل أيضاً في البلدان المجاورة وفي العالم. أفسح الإسلام في المجال لوحدة العرب الدينية، الذين كانوا في أغلبهم إما عبدة أصنام أو موحدين (جماعة كتاب" أي التوراة والإنجيل).
ترك العرب إشراكهم، وبمجيء الإسلام صاروا مسلمين. قلة قليلة بقيت مسيحية (أقباط، موارنة، يعاقبة...) أو إسرائيليين (وهم بنو - إسرائيل).
هيأ الإسلام الجو لاتحاد سياسي للعرب، الذين كانوا القبائل البدوية الراحلة وكذلك سكان المدن الوثنيين من جهة، والذين، من جهة أخرى، كانوا يشكلون ممالك العرب في الشمال والجنوب من شبه الجزيرة العربية (من الغساسنة، المناذرة، الحميريين...) مستقلين أو أتباع الإقطاع البيزنطي

والفارسي، أو أبناء شمال أفريقيا وأسبانيا المستعمرين لدى الرومان البيزنطيين.
"بعيداً عن فرض نفسه بالقوة، انتشر القرآن فقط بالإقناع. فمن البدهي أن القناعة فقط كانت تشد الشعوب التي انتصرت على العرب مؤخراً، كالترك والمنغول، للإيمان به( )".

٥ ـ ملخص:

حسب القرآن، ليس ثمة تبدل (أو تغير) في كلمة الله (34 – VI). ولن يكون الأمر خلاف ذلك، لأن الله، الذي يرسل رسلهُ إلى الأمم، لا يمكن أن ينزل كتباً مقدسة متعاكسة بخطوطها الكبرى، طبعاً. نزلت الكتابات بالتتالي على الأنبياء في حقبة محددة واستندت إلى قرائن تاريخية، سياسية واجتماعية لتلك الحقبة.
إنما إذا تبدل الشكل، تبقى البنية مطابقة. والفوارق العميقة التي يمكن أن نصادفها بين التوراة والقرآن لا يمكن أن تكون سوى تعديلات أتى بها قلم الإنسان، وتفسير إرادي بغية "إسناد" للتوراة أو الإنجيل "سياسة" معينة، يوصي بها المجلس اليهودي أو الكنيسة، أو من دون هدف حينما تكون هذه الكتابات قد حررت عشرات المرات، أو بعد قرون من نزولها.
وقد رأينا في هذا الإطار شهادات لكتاب معروفين مثل دوبون – سومّر، فيما يخص العهد القديم. ورأينا أيضاً عشرات النسخ للإنجيل، منها أربع تبنتها الكنيسة الرسمية، وتقدم بعض النصوص عدة تشويهات أو تحريفات.
واستناداً إلى ايتيان دينيت: "لم تنقح الأناجيل تنقيحاً لائقاً: فقد ترك كتابها، المتواضعون نفسياً، كلمات مقبولة من فم نبي تصير مؤذية جداً على لسان ابن الله".
فضلاً عن هذا، الإعلان عن مجيء نبي اسمه أحمد استبطنته التوراة (نسخة السبعين) وكذلك فعل الإنجيل الرسمي (لم تعتمد الكنيسة الإنجيل حسب برنابا الذي أشار إلى مجيء النبي). وأيضاً، لم تذكر التوراة أن أبراهام، إسحاق ويعقوب عرب وهذا عن عمد.
ولقد حددت نسخة القرآن الأصلية فقط بعد موت النبي محمد (ص) بتسعة عشر عاماً، معترف بها حتى اليوم، ومع سلسلة من الناقلين المعروفين والجديرين بالثقة، كلهم رفاق النبي وقد حفظوا القرآن عن ظهر قلب، في حياة رسول الله. يعترف بهذا الكتاب المسيحيون الذين ذكرنا شهادتهم، مثل فيليب حتّي وغيره. وقد جاء في "الكتاب العزيز" أن الله نفسه يحمي

شرعية كتابه (22 – XVC)، إضافة إلى هذا، يذكر القرآن الكتب المقدسة التي سبقته (كالتوراة والإنجيل) وأنبياء نبي إسرائيل المذكورة في التوراة. ورأينا أيضاً العديد من الطوائف الإسرائيلية التي كانت تعارض بعضها، فيما يخص التراث والعقائد الموسوية( )
وحتى تفسير التوراة وشرحها، بخاصة من قبل الايسينيين، يثير التناقض بين الطوائف، كما ظهرت خلافات في طوائف مسيحية وفي قلب الطائفة الواحدة (إنجيل الكاثوليك يدين النسخة اللوثرية للتوراة، وذات الطائفة تعارض الكنيسة الأرثوذكسية). جرت هذه الخلافات في الإطار العقائدي، انطلاقاً من القرن الرابع، وخلقت كنائس (سّماها الكاثوليك منشقة) مثل: الدونالست، أريانست، القبطية، الخ.... وحتى الكنيسة البروتستانتية أو اللوثرية، في القرن السادس عشر (العاشر الهجري). كان خلق هذه الكنيسة سبباً لنشوب حروب دينية في أوربا. يعني أن الخلافات العقائدية لم تعالج بالحوار، والعودة إلى الكتابات الشرعية أو الإقناع، إنما بالقوة، بالحروب ولغة السلاح. فهل كانت هذه الكنائس، الراغبة في صون الرسالة اليسوعية" بأصالتها، نزاهتها وكمالها، هي المنشقة، أم هي الكنيسة الكاثوليكية نفسها، - بتطورها المستمر – هي منشقة؟
تمر الأمور كما لو كان ثمة ناس يريدون تغيير يسوع الأسيوي، يسوع الفلسطيني بلغته، عاداته وتراثه العربي، بيسوع روماني، يسوع أوربي!.
إن ما يخص الإسلام، والطوائف الإسلامية تعترف بالقرآن في تمامه وفي نسخته الأصلية الوحيدة، أي بلغته العربية. حسب القرآن، منذ إبراهيم، كل الأنبياء الذين تتابعوا حتى محمد، أخرهم، كانوا يكرزون بالإسلام (أي عبادة الله) وكانوا مسلمين. "وكان إبراهيم أول المسلمين" (قرآن – VI 163).
هذا الاستمرار النبوي طبيعي كونهم جميعاً أرسلهم الله، الواحد الوحيد، وقد أرسل النبي محمد ليتم وينهي التجلي الإلهي، بعد النبيين موسى وعيسى، في رسالاتهم الشرعية.
وحسب القرآن (١١١ – ١٩) "الدين عند الله، هو الإسلام" صدق الله العظيم

الفصل الثالث

الأوروبيون والعرب

"لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى"(□) حديث الشريف

أ - قبل الإسلام:

أخيراً، بعد قرون من اللجلجة والتلعثم، ظهر الأروبيون في المسرح "الدولي". أساساً احتل اسكندر الكبير (في النصف الأول من القرن الرابع قبل العصر المسيحي)، فارس، بين النهرين، سوريا ومصر، ثم دخل الرومان المضمار واحتلوا بالتدريج مكان اليونان في مصر وسوريا، واقتسموا بين النهرين مع الفرس. لهؤلاء منطقة بين النهرين (دجلة والفرات) وللرومان مناطق الهلال الخصيب، ثم، احتل الرومان فلسطين، إسبانيا وأفريقيا الشمالية (من قرطاجة حتى موريتانيا).

وفي القرن العاشر الميلادي، ترك الرومان مكانهم للبيزنطيين في مصر، إسبانيا، شمال أفريقيا واليمن (مع خلفائهم عباسيي هذا البلد الأخير). وخلال الحقبة التي دامت ألف سنة تقريباً، ستقصم الإمبراطوريتان: اليونانية (وورثتها البيزنطيون) والرومانية (مع فاصل قصير للغاندال وشركائهم) شيئاً فشيئاً الدولة العربية، المسماة، البابلية، المصرية، الفينيقية – القرطاجية، واليمنية.

ما هي الأسباب؟

١ - الاقتصادية:

كان العرب يحتكرون تجارة السلع رفيعة القيمة لدى الأروبيين (الحرير، البخور، العطور، التوابل)، والمنتوجات الغذائية (حبوب: كان شمال أفريقيا وسوريا منتجين كباراً) والمعادن (حديد، نحاس، رصاص،.... وذهب).

كانت الأرض العربية، بخاصة في آسيا، ملتقى بين الهند، الصين، فارس من جهة، وأروبا من جهة ألأخرى. كانت الطرق التجارية البرية والبحرية بين يدي العرب، وعلى كل تجارة، وكل العلاقات مع البلدان الأخرى أن تمر بالضرورة في المواقع العربية.

٢ - جغرافية – إستراتيجية:

كانت الأقطار العربية تشكل حاجزاً بين القوتين الأعظم في تلك الحقبة: الفرس واليونان/ الرومان. كانت هاتان الأخيرتان متناحرتين ومتعاديتين،

أبداً. فمن يملك المنطقة – الحاجز يمد إمبراطوريته ويهدد مباشرة البلد العدو، فضلاً عن نهب الثروات البشرية والمادية لهذه المناطق وليهيمن عليها ويخنق مواجهتها. هذا هو ما أدركهُ اسكندر الكبير المقدوني. حينما احتل بابل، سقطت فارس كثمرة ناضجة. ولما غزا سوريا، ولج بسهولة مصر، التي يحكمها الفرس.

٣ ـ حضارية:

عندما تصاعدت قوة اليونان، عاملوا الرومان كبرابرة. فحاول الرومان المعقدون ثقافياً من اليونان تقليد الثقافة الهلّينيه بكل شيء. وحاولوا هم أنفسهم معاملة الغير كبرابرة. إنما أمام المصريين، مثلاً، "والمثقفين" الآخرين فيما بين النهرين وفارس، لم يتطاوس اليونان. بل سلكوا بتواضع وخفر. فتبنوا العقل والشجاعة والتعلم من المصريين، ودرسوا علومهم، دياناتهم، كتاباتهم وفلسفاتهم...

نعد من العلماء اليونان "المكوّنين" في مصر، حسب ج.ل. برنارد( ):

- تالس دي ميليت، درس الهندسة في ممفيس وتعلم من مهندسي عمارتها قيمة (3.1416 pi)، رمز يمثل نسبة محيط دائرة إلى قطرها.
- فيثاغورث، درس فلسفة الأعداد، الرياضيات المصرية، اهتدى إلى دين آمون، قطن اثنين وعشرين عاماً في طيبة ثم علّم باليونانية رمز الأعداد.
- هيروفيل وهيراسيسترال، درسا الطب.
- تيمارك، أرستيد، هيبارك، درسوا الفلك.
- أوكليد، ديوفانت، درسا الهندسة.
- ايراتوستين، استرابون، درسا الجغرافيا.
- ديموقريط، تردد طيلة خمس سنين على المعابد المصرية ليدرس فيها الأرصاد الجوية.
- أفلاطون ورفيقه أودوكس، عاشا ثلاث عشرة سنة في هليوبولس مع الكهنة.
- اودوكس، تابع دروس الكهنة في ممفيس وترجم إلى اليونانية أطروحات مصرية في الهندسة والفلك حول "دورة الكواكب الخمسة".
- وثمة علماء آخرون لم نستطع تدوينهم هنا.

كان عدد كبير من هؤلاء العلماء "أساتذة مشهورين في الإسكندرية". وقد أخذت الحضارة الإغريقية وتعلمت الكثير من الحضارة المصرية (بخاصة). ولدى التماس والتعايش مع حضارتي بين النهرين ومصر، تكونت الحضارة الإغريقية وتطورت، وغفلت بالتالي المقام الأول في

أروبا. وخَلَفَهم الرومان وتحولت الحضـارة اليونانيـة إلـى حضـارة هلسـتينية – رومانية. وأمست هذه مرجعاً لكل أروبا ودام هذا، حتى هذه الأيام. ليس فـي طبيعـة الإنسـان الـذي يريـد أن يبـرز إلـى جانـب الآخـرين أن يتبـاهى بمعرفتـه وذكائـه، أن يـذكر مصـادر معرفتـه، أسـاتذته، لاسيما إذا لـم يكـن هؤلاء أصـلاً مـن ذات البـلاد ولا يتكلمـون ذات اللغـة وهكذا اسكت اليونـان وأهملوا أساتذتهم البابليين أو المصريين، وحجموا دور هؤلاء وعلمهم مـا أمكنهم ذلـك. بـل، بـالعكس، وضـخموا حجـم معـارفهم هـم وبسـطوا فسـحة أبحــاثهم. ولــم يكتــف الــبعض بإنكــار دور المصــريين والعلــوم والثقافــة المصـرية علـى اليونـان إنمـا ادعـوا أن اليونـان، لـدى اسـتعمارهم مصـر، حملوا إليها معرفتهم، فلسفتهم، رياضياتهم، الخ...

لـم "يكتشـف" اليونـان الحضـارة المصـرية مـن الإسـكندر الكبيـر فـي العـام ٣٣٣ ق.م. بل قبل هذا. يتكلم هيرودوت، في القرن الخـامس، عـن الماضـي الرائع لمصر. وكانت العلاقات مع كريت، في ماض أبعد، معروفـة: كانـت الأساطير المصرية موجودة باستمرار في كريت القديمة. وقد تحـدث كتـاب الزمن البعيد عن التقارب بين الحضارتين: المصرية والهندية. هذا مـا أكـده فيما بعد الكتّاب الذين رافقوا الإسكندر المقدوني في حملته نحو الهند. وفيمـا يخص قدماء اليونان، كانت مصر منهلاً للتاريخ والعلم.

لقـد بلغـت الحضــارة اليونانيــة، بــالفنون، العلـوم، الأدب...... ذروتـهـا فــي حـوالي القـرن الخـامس ق.م.: وهـي حقبـة بنـاء الأوابـد الكلاسـيكية اليونانيـة (البـــارتيون، الثيزيـــون، معبـــد أبولـــون، معبـــد زيـــوس....) وتزيينهـــا بـالمقرنصــات والتماثيـل. وكانـت العلـوم والآداب اليونانيـة شـهيرة وكـان أدباؤها كثيرو الإنتـاج، حتـى قدوم العهد المسيحي. وادركـت اليونـان ذروة الحضارة تقريباً مع انحطاط الحضارة المصرية وغزوة الفرس لمصـر فـي العـام ٥٢٥ ق.م. وقـد مكـنّ مجـيء الإسـكندر الكبيـر اليونـان مـن أن يحلـوا رسمياً محل الحضارة المصرية بقيادة أسرة بتوليميه Ptolemee. أسس هؤلاء مدرسة الإسكندرية التي سيدخلها صفوة اليونان. وربمـا كانـت مدينـة الإسكندرية، كعاصـمة للفنـون والعلـوم اليونانيـة، سـبباً لـولادة التمـازج بـين اليونـان، مـوزعي المعرفـة والعلـوم، والمصـريين، تلاميـذهم.... بينمـا كـان هؤلاء قبل اليونان بقرابة خمسة قرون في قمة التألق الثقافي والعلمي.

أجيال من الطلاب، شباب من التلاميذ الأروبيين (وغيـر الأروبيين) تربـوا في هذا الدرب "صوت" الحضـارة الإغريقيـة – الرومانيـة "طليعـة وأم كـل الحضارات".

قبيل هذا،(ومنذ زمن قريب) بدأ كتّاب أروبيون، يزدادون باستمرار، إثر أبحاث ودروس أعمق، أقل انحيازاً، وأكثر دقة، يصححون الموقف ويعترفون ببعض الوقائع... في هذا الإطار، يقدم غ. ليبون( ) شهادته: "حتى العصر الحديث أي قبل ان تعرف أصول الحضارة اليونانية نهائياً، يؤكد البعض أنها غير مدينة بشيء لأي شعب. لكن علماً أحدث، برهن أن الفن الإغريقي استقى جذوره من الآشوريين والمصريين".

ويعلن ابن خلدون، في مقدمته، بهذا الصدد: "إن المعارف العلمية التي ضاعت أكثر من تلك التي وصلتنا. أين هي معارف الفرس، التي دمرت بأمر من عمر Umar، في أثناء الغزو؟ أين معارف الكدانيين، الآشوريين، البابليين؟ أين وثائقهم ونتائجها؟ أين وثائق المصريين، ومن سبقهم؟ لم يصلنا سوى النصوص العلمية اليونانية بفضل الاهتمام الذي قدمه الخليفة المأمون وأمر بترجمتها (إلى العربية) بتكاليف ضخمة وأخصائيين معروفين. ومن الشعوب الأخرى، لم يصلنا شيء".

فاليونان، الذين كانوا أساتذة الجدلية والمنطق( )، وبعدهم الرومان، تلامذتهم، تصوروا إذن أن يكتبوا التاريخ حسب أهوائهم. أي يجب فصل شعب، وحضارات من نفس الأصل الأثني، ونفس اللغة (العربية) إلى شعوب أخرى، واعطائها عدة أسماء. هكذا لم يخلقوا شعوباً إقليمية تأخذ اسمها من مكان إقامتها، إنما أثنيات تختلف الواحدة عن الأخرى: الفينيقيين، الكلدانيين، المصريين، الآشوريين، العرب، البربر، الخ.... فالاستعمار الأروبي حسب رواية في القرن التاسع عشر والعشرين ب.م. (الخامس عشر والرابع عشر الهجري)، لم يخترع شيئاً.

كان الرومان، وقبلهم اليونان، أول المستعمرين في العصر الحديث. فمنذ دخولهم إسبانيا، جزر المتوسط، شمال أفريقيا، مصر، شمال الجزيرة العربية (أي كل حوض المتوسط)، استثمر الرومان خيرات هذه البلدان، وزعوا منتوجاتها وأرزاقها في روما. صارت الإمبراطورية الرومانية أعتى وأكثر طمعاً. وفي في العام ١٤٦ ق.م. كانت الإمبراطورية في ذروتها، بالاستيلاء على قرطاجة وباحتلال اليونان: تخطى التلميذُ أستاذه!.

مع ذلك، ورغم استغلال المستعمرات واستعباد الشعوب المنكوبة بالاستعمار، تعترف روما بالمنحى السياسي، والعظمة الثقافية لبعض السكان الأصليين الذين صاروا مواطنين رومان. فصار الكثير من شمال أفريقيا، إسبانيا، أعضاء في مجلس الشيوخ، نواب عامون، ولاة، جنرالات... وأباطرة روما. والأسبان مثل تراجان، وهادريان( ). كان

مـارك أوريـل وابنـه كومـود أبـاطرة رومـا مـن العـام ٩٨ – ١٩٢م (عـدا عشرون عاماً للإمبراطور أنطونين. وعرب شمال أفريقيا، مع أسرة سيفير (سبتيم وأبنـاؤه الأربعـة) Septime et ses quatre fils ومـاكران (هذا من أصل سيزاريه – شرشيل) حكموا روما من ١٩٣ – ٢٣٥ م. أي أن أبـاطرة "برابـرة" أداروا الإمبراطوريـة الرومانيـة قرابـة أكثـر مـن قـرن وعملياً دون انقطاع.

وبعد موت اسكندر سيفير، صـارت الإمبراطوريـة ممالـك، فعمـت الفوضـى فـي الإمبراطورية ودامت حتى العام ٢٨٤ أي خمسين سنة. فقد حكم حوالي عشرين إمبراطوراً من العام ٢٣٥ – ٢٨٥. ومـن العـام ٢٤٤ – ٢٤٩ حكـم الإمبراطور فيليب العربي. وهذه أول مرة تصادف كلمة "عرب" أمـام أسـم إمبراطور روماني. كان فيليب العربـي مواطنـاً رومانيـاً، مـن مملكـة تـدمر. كانـت هـذه المملكـة مسـتعمرة رومانيـة منـذ العـام ١٠٦ م، ولـم تكـن تـدمر عاصـمة المملكـة التدمريـة إلا فـي العـام ٢٥٠ م، أي فـي أثنـاء فوضـى الإمبراطورية الرومانية.

إن نفوذ أسرة سيفير ماثل أبداً، حتى بعد موت الإمبراطور إسكندر سيفير، فـي أعلـى مراحـل السياسـة الرومانيـة. وفـي العـام ٣٠٥، بعـد استسـلام ديوكلتيـان (الـذي قسم الإمبراطوريـة الرومانيـة إلـى شطرين: إمبراطوريـة الشـرق وإمبراطوريـة الغـرب)، اضـطلع بـدور أوغسـطس واحـد مـن أبنـاء سيفير، الذي ذبحهُ خصومه في العام ٣٠٧ م.

٤ - دينية:

في العـام ٣٨١ م، تبنـت الإمبراطوريـة الرومانيـة المسيحية دينـاً للدولـة. لـمَ كـان هـذا التحـول الفظ بعـد صـلب يسـوع فـي فلسـطين بحضـور بـيلاطس النبطي، ثم صلب بطرس وحواريون آخرون في روما في العام ٦٤ م؟.

فمن نيرون حتى ديوكليتيان( )، أي خلال أكثر من ٢٥٠ سنة، كانـت تقطـع رؤوس المسيحيين، ويصـلبون، يحرقـون، ويقتلـون فـي الحلبـات، وفـي كـل بقاع الإمبراطورية.

وفـي العـام ٣١٣، يصـدر منشـور الإمبراطـور قسـطنطين يعطـي الحريـة للعبادة المسيحية بعد أن ظفر هذا الإمبراطور على ماكسانس، منافسهِ.

وفي العام ٣٢٥، يعيد قسطنطين وحدة الإمبراطوريـة بعد أن انتصـر علـى كـل أعدائـه. وفـي ذات العـام اسـتدعى قنصـل نيقيـا، الـذي اعتـرف بأوليـة الكنيسة الرومانية، (الذي صـار أسقف رومـا بعد قتل بطـرس). فبعـد أن بلـغ

قمة الأمجاد المدنية والعسكرية، صار الإمبراطور قسطنطين بحاجة لتولي الحق الإلهي، لكي يتسنى له أن يؤسس أسرة قوية، دائمة، خارج المساءلة.
ويلاحظ الرومان المعتادون على إفساد الحياة السياسية، والمرتزقة الذين لا يحاربون من دون رواتب (حتى للدفاع عن بلدهم)، والحياة الناعمة والماجنة التي يعيشونها (بعكس الحياة التي يحياها عبيدهم ومعتقوهم)، يلاحظون اللامبالاة المادية لدى المسيحيين، وشجاعتهم، وصلابتهم، وإيمانهم ويلمسون تزايد عدد مواطنيهم وكذلك "البربر" الذين اعتنقوا الدين الجديد. لكن ذكاء قسطنطين ومنحاه السياسي فتحا عينيه على الخطر.
المميت للإمبراطورية الرومانية، باستمرار إبعاد ومحاربة الذين انضووا تحت مظلة الدين الجديد. كان لهؤلاء تأثير حتى في روما، لكنهم كانوا أكثر وأقوى في المستعمرات (شمال أفريقيا، إسبانيا، بلاد الغول، الفرنجة وجزر المتوسط. لذا راح قسطنطين يتقرب بالتدريج من المسيحيين، وفي العام ٣٢٥، ظهر في قنصلية نيقيا، كرئيس للكنيسة المسيحية، بحكم منصبه كإمبراطور( ) فجمع في يديه السلطتين الزمنية والروحية. وفي أيام حكمه صارت الإمبراطورية مملكة للحق الإلهي. ثم أسس عاصمة أخرى، حملت أسمه، في بيزنطة (القسطنطينية). أخذت هذه المدينة، كمركز رئيسي للدين أهمية بطريركية الإسكندرية وحقق قسطنطين مشروعهُ.
وفي العام ٣٩٥، يموت الإمبراطور تيودسيس الذي قسم الإمبراطورية بين ولديه: أركاديوس يحكم إمبراطورية الشرق (البيزنطية) وهونوريس لإمبراطورية الغرب (الإمبراطورية الرومانية). وعبر الزمن والأسر المالكة، ستتزاحم الإمبراطوريتان المتعاديتان في المجال الديني والسياسي.
وفي العام ٤٥١، تنشطر الكنيسة إلى شطرين في قنصلية شلسدوان: الكنيسة الرومانية، باللغة اللاتينية وكنيسة الإسكندرية، بطقس مشترك ولغة قبطية وآنئذ من هذه القنصلية، انبعثت بطريركية القسطنطينية.
وفي مطلع القرن السابع عشر الميلادي، عشية بعث الإسلام، كان البيزنطيون والرومان سادة البحر المتوسط، إسبانيا، شمال أفريقيا ومصر. قُبل الدين المسيحي لدى جمهرة من هذه الشعوب، المتبدلة الأهمية حسب البلد والإقليم. وانتشرت المسيحية في شمال الجزيرة العربية (فلسطين وسوريا) ولا ننس أن (يسوع وحوارييه فلسطينيون) وفي الجنوب (اليمن). وفي الوسط، تواجدت جزيرة صغيرة مسيحية، لكن أغلب الناس بقوا عبدة أوثان.

لكـن مختلـف الطوائـف المسـيحية، انعكـاس التعـدد الأثنـي، الاجتمـاعي والحضاري بين الرومان والبيزنطيين من جهة والعرب من جهة أخرى، ستحرك أو تكشف عن نزاعات مستترة بين الدولـة المحتلـة وبين المنـاطق العربية المستعمرة.

ب - بعد الإسلام:

١ - انتشار الإسلام:

كـان وضـع العـالم العربـي، من إسبانيا إلـى اليمن، فـي العـام ٥٧٠ م (عـام ولادة محمد) هو وضع كل البلدان التي يحتل جزءاً منها البيزنطيون ويحتل الفرس الجزء الآخر.

وعند موت النبي (ص)، في العام ٦٣٢ م، (١٠ هـ) في المدينـة (التـي هـي ومكة لم تحتلا أبداً وظلتا مدينتين حرتين)، صار فتح العالم العربي على يد العـرب الـذين اسـلموا صـاعقاً. فضـلاً عـن هـذا، غـزا المسـلمون فـارس واحتلوهـا، وانهـارت إمبراطوريـة الساسـانيين، وأخضـعت جيـوش الخلفـاء القوقـاز، ووصـلوا حتـى الهنـد وتركسـتان، فـي الشـرق ووصـلوا إلـى تخـوم الصـين. وفـي الغـرب، اسـترجع العـرب بعـد إسـلامهم مصـر، المغـرب وإسبانيا، واخترقوا الغول (فرنسا الحالية) حتى الرون والشـاطيء الأزرق. لم يتوقف الفتح العربـي وغزو أراض جديدة غيـر عربيـة (الغـول، فـارس، الهنـد، القوقـاز، آسيا الوسطى) سوى قرن واحد بعد موت النبـي، أي من العام ٦٣٢ – ٧٣٢ (من ١٠ – ١١٣ هـ)، وعادت كل جزر المتوسط - عدا جزر بحر إيجـه المحتلـة من قبـل البيـزنطيين – إلـى الفلك العربـي (باليـار، كورسكا، سردينيا، سيسيليا، مالطـه، قبـرص) وصـار بحـر الرومـان بحـراً عربياً.

كيـف تمكـن المحـاربون العـرب – رهـط مـن النـاس فـي البدايـة، مـن دحـر إمبراطورتين ضخمتين الفارسية والبيزنطية؟ ما الأسباب؟.

١,١ - سياسية:

بعد أن احتلت الإمبراطوريـة البيزنطيـة الأرض العربيـة فـي منطقـة الهـلال الخصيب صارت لها حدود مشتركة مع فارس، محتلة بين النهرين، لم تبق دولـة – تفصـل بـين هـاتين الإمبراطـورتين. فانخرطتـا فـي صـراع مسـتمر ومهلـك. مـن حيـث امتـداد بلادهـم ومسـتعمراتهم، مـن حيـث الاسـتثمار المتوحش لهذه المستعمرات والوضع غير المريح للمستعمرين ومن حيث النزاعات الدينية، لم تعد الإمبراطوريتـان محترمتين. فليس لهمـا أن تراقبـا العـرب وتكبحـاهم.

١,٢ - اقتصادية:
أدت الصراعات الطاحنة والتوسعية بين الإمبراطوريتين، بيزنطة وفارس، إلى خوا الشعوب، ومن دون استقرار سياسي، يقلّ إنتاج الفلاحين ولم تعد سوريا اهراء للقمح كما عرفت واشتهرت. فمد الجوع خطمهُ، في بعض الأقطار: تراجعت المبادلات التجارية، وارتفعت أسعار المواد الغذائية. فكان لا بد من تمويل الحرب، زيادة الضرائب التي يفرضها موظفو الإمبراطوريتين (الفارسية والبيزنطية على حد سواء)، على المواطنين وغير المواطنين، ما أغضب الناس ونشر الفوضى.
١,٣ - حضارية:
لم يقبل أبناء بين النهرين، والسوريون، والمصريون، والشمال – إفريقيون، وغيرهم، في كل الأقاليم المحتلة الاستعمار الأجنبي. رومانياً، يونانياً، بيزنطياً كان أم فارسياً. وعندما وصل المسلمون إلى شمال الجزيرة العربية (سوريا، بين النهرين)، وجدوا عرباً – بعضهم مسيحيون، وبعضهم وثنيون – استقبلوهم كمحررين وأخوة.
لكن الإسلام لم يستقبل بالإجماع في كل المناطق.
- ففي العام ٦٣٣ م (١١ هـ)، تصدى المناذرة في بين النهرين للمسلمين ثم، بعد هزيمتهم، اعتنقوا الإسلام.
وفي العام ٦٣٤ م (١٣ هـ)، في موقعة اليرموك (في سوريا)، اتحد الغساسنة مع البيزنطيين ضد المسلمين، ثم اهتدوا إلى الإسلام.
ودخل المصريون، المغاربة، الأسبان وعرب الأقاليم الأخرى الإسلام جماعة وجمهرة، بداية بسبب التقارب اللغوي، الثقافي والاجتماعي، ثم لأن القادمين المسلمين الجدد لم يتصرفوا كغزاة أو سادة، بل عاملوا الكل بمساواة وعدالة، أكانوا مسلمين، مسيحيين أو وثنيين.
١,٤ - دينية:
اتبع المسلمون، عند فتح الأراضي العربية وغير العربية، التسامح والعدل مع من لم يعتنق الإسلام، احترموا الأعراف والعادات، وأمنوا للناس حماية شخصية ومادية، تركت الحرية لغير المسلمين بمزاولة عبادتهم، خولهم الحكام بناء كنائس جديدة وأحياناً خصصت أموال عامة لهذا الشأن. كسب الإسلام رضى الناس بالقناعة ومساواة كل المواطنين – مسلمين أو غير مسلمين – أمام القانون، وليس بالقوة.

كان رأس الإمبراطورية المسلمة مثال هذه البساطة والرزانة. لم يعط أي حاكم أي صفة مميزة، كان يعيش كما يعيش أبسط مواطن ويعيد الحق لمن يتظلم، وكان زهد أوائل الخلفاء مضرب المثل.
هكذا، يحس المسلم الجديد بالراحة في المجتمع الإسلامي وبحضور أرفع الشخصيات. وكانت الشريعة القرآنية متلائمة مع الحياة اليومية.

٢ – الحروب الصليبية:

٢,١ – قبل العام ١٤٩٢ م. (٨٩٦ هـ)

في القرن الحادي عشر ميلادي (الخامس الهجري)، كان العالم المسلم في أوجهِ. البابا، في روما، يدفع الجزية للإمبراطورية الإسلامية ليتقي أي تصادم معها. فيبدو الأمر وكأن ثمة اتفاقاً بين الكنيسة الرومانية( )والإمبراطورية المسلمة: تحافظ هذه على أوضاعها في آسيا، أفريقيا وأروبا (شبه الجزيرة الإيبيرية وجزر المتوسط) وتعد بأن لا تقلق البلدان غير – المسلمة في أروبا، الباقية تحت السيطرة الفعلية للكنيسة الرومانية، وأن لا تهاجم أراضي بيزنطية في آسيا. وتدفع، هذه الأخيرة، كما روما، الضريبة للمسلمين. ثم، في حوالي منتصف هذا القرن، يتسارع التاريخ:
ففي العام ١٠٥٤ (٤٤٥ هـ)، تظهر الطائفة الثانية في الكنيسة المسيحية: تكون الكنيسة البيزنطية (بطقس ارثوذكسي ولغة يونانية)، هذا هو التناحر المباشر بين البابا، في روما وبطريرك القسطنطينية.
وفي العام ١٠٧١ (٤٦٣ هـ)، يحتل السلاجقة (تركمان مسلمون) القدس ويحلون محل العباسيين. وجعلوا يقلقون بيزنطة بقضم أراضيها قطعة بعد قطعة. وفي نفس العام في معركة مانزكارت، يندحر البيزنطيون ويتخلون للمسلمين عن شطر شاسع من آسيا الصغرى.
وفي العام ١٠٨٠ (٤٧٢ هـ)، تسقط بطريركية أنطاكيا الهامة. وفي ذات الحقبة يتسعّر الخلاف السياسي بين البابوية والإمبراطورية الرومانية – الجرمانية: يعترف هنري الرابع، في العام ١٠٧٧ (٤٦٩ هـ) بتفوق الكنيسة والبابا، غريغورا السابع. ويلتزم كل ملوك وأمراء أروبا بالخضوع لعظمة البابا، تحت طائلة السقوط والحرمان.
ولتوطيد وترسيخ سلطة الكنيسة، أراد البابا أوربان الثاني في العام (١٠٨٨ – ١٠٩٩ /٤٨٠ – ٤٩٢ هـ)، بهدف سياسي – بعد طلب المساعدة المقدم من الإمبراطور البيزنطي، أليكي كومنين – أن يصطاد بحجر واحد عصفورين: بسط نفوذ الكنيسة الرومانية على القسطنطينية، وتعزيز وضعه السياسي والمعنوي في أروبا. وهكذا، يبدو كقوة أخرى عالمية –

زمنياً وروحياً – إلى جانب الإمبراطورية الإسلامية. الذريعة الرسمية قائمة: تحرير المقامات المقدسة المسيحية من هيمنة غير المؤمنين. وهذه هي حقبة الحروب الصليبية( ).
يدون الكتّاب الأروبيون ثمانية حروب صليبية: تبدأ الأولى في سوريا في العام ١٠٩٨ (٤٩١ هـ)، بدأ انطلاق الصليبيين من أروبا في العام ١٠٩٥ (٤٨٨ هـ)، وانتهت الغزوة الثامنة في العام ١٢٩١ (٦٩٠ هـ)، أي قرنين.
تقسم هذه الحروب كما يلي:
- أربعة حروب في سوريا (الأولى، الثانية، الثالثة والسادسة).
- حربان في مصر (الخامسة والسابعة).
- واحدة في القسطنطينية (الرابعة) التي نسميها "الصليبية الصليبية".
- واحدة في شمال أفريقيا (الثامنة).
بالفعل، إن بدأت الحروب الصليبية حقاً بصورة رسمية ومنظمة في العام ١٠٩٥ (٤٨٨ هـ)، فقد كانت معدة قبل هذا في فكر الأروبيين ولعدة أسباب:
- كانت الظروف الاقتصادية في أروبا لاسيما، عشية الصليبية الأولى مدمرة، لاسيما في فرنسا حيث قسى الجوع بصورة مستمرة.
- الصراعات الخفية بين الإمارات الإقطاعية، التي عممت اللا - أمن، واختناق التجارة، ودمار الإنتاج الزراعي.
- استثمار جماهير الشعوب الأروبية (المكونة من فلاحين من دون أراضي، أقنان، عبيد) من قبل الأكليرس والعسكر أصحاب الألقاب النبيلة.
- قصص الحجاج الأروبيين لدى عودتهم من الأماكن المقدسة في فلسطين (سوريا) من حيث الثروة، البحبوحة، الحياة المزدهرة والسعيدة في البلدان العربية.
ألهبت هذه القصص خيال وحسد الشعوب البائسة والمدمرة في أروبا.
- مصدر الخيرات للجمهوريات والمدن المتاجرة في أروبا (فينيسيا، بيز، جنوا، مرسيليا) وتوسع اقتصادها.
- تمليك الأراضي للنبلاء الفقراء، وإمكانية خلق الكونتيات وإمارات في الأراضي العربية.
حسب شهادات عينية لكتاب أروبيين (روبرت دي موان، جاك دي فيتري – أسقف عكا، غليوم صور، وغيرهم) لم يكن القسم الأعظم من الحروب الصليبية يهدف "تحرير" الأمكنة المقدسة إنما السرقة، القتل، والتجاوزات البربرية! لم يمارس الذبح على المسلمين فقط بل على الموحدين

والأرثوذكس). والصليبية الرابعة، التي ربما وصفت بحرب الصليبي على الصليبي، لم تقصد بلداً مسلماً، سوريا، بل القسطنطينية، عاصمة إمبراطورية مسيحية (في العام ١٢٠٢ – ١٢٠٤ / ٥٩٧ – ٥٩٩ هـ). كان النهب والدمار هما القاعدة. حسب غ. ليبون( ) "كانت القسطنطينية تحوي كنوز الفن والأدب الذي تركه قدماء اليونان واللاتين... إن قصر مدة بقاء المحاربين المسيحيين في القسطنطينية ليس سوى نتيجة ضياع أثمن الكنوز القديمة الغريكو – لاتين".

بعد قرنين من الحروب الصليبية، بقي الوضع السياسي كما هو: لم يجنِ الأروبيون أي نصر دائم. لكن هذا اللقاء الشرس والدموي (طيلة قرنين) بين الأروبيين والحضارة العربية الإسلامية كان مصدر تطور اقتصادي ويقظة ثقافية لأروبا، وتحول هائل في المجتمعات الأروبية. يؤكد غ. ليبون بهذا الصدد( ) أن "الشرقيين هم الذين عملوا على إخراج الغرب من البربرية، وتهيئة هذه الحركة الفكرية وبتأثير العلم والأدب لدى العرب، الذي نقلته الجامعات إلى أروبا، ويتطور بسرعة ومنه سيكون البعث أو عصر النهضة".

كان أول وأهم قاهر للحروب الصليبية دون أي ريب هو الكنيسة الرومانية: إذ ازدادت قوة وهيمنة البابا بشكل لا سابق له، تكدست وطالت ثروات الإكليرس (بالمال والأرض)، تراجعت السلطة الإقطاعية (افتقار السادة بأداء نفقات الحروب)، وصار ملوك وأمراء أروبا أكثر ارتباطاً بالبابا وخضوعاً له.

والقاهر الثاني لهذه الحروب هو من دون نقاش روح عدم التسامح الديني لدى الكاثوليك. قبل الحروب الصليبية، يقول غ. ليبون( ) (كان عدم التسامح كبيراً، لكنه نادراً ما وصل حتى الفظاظة. وفي أثناء الحرب الصليبية بلغ درجة من الجنوح الرهيب المستمر حتى هذه الأيام.

فبعد أن اعتادوا على سفك الدماء، مارس الانكليرس حالاً الدعاية للإيمان وإخماد هرطقات طرق الإبادة المطبقة أولاً على غير المؤمنين... كان ذبح اليهود، والألبغوا( ) Albigeois ومختلف صور الهرطقة، محاكم التفتيش. حروب الدين وكل هذه الصراعات الوحشية التي أدمت أروبا زمناً مديداً، كانت حصيلة روح التعصب البائس الذي طورته الحروب الصليبية.

في نهاية القرن الحادي عشر المسيحي (الخامس الهجري)، تشظت الإمبراطورية العربية في أروبا (شبه جزيرة إيبريا) إلى عدة ممالك

وإمـارات متنازعـة مـا سـمح لمسـيحيي أروبـا تـزيين خططهـم للحـروب الصـليبية وتكـريس كـل قـواهم فـي إعـداد الجيـوش الصـليبية، رغـم قيـام إمبراطوريـة المرابطينAlmoraBide ( ) التـي ضـمت المغـرب وجـزءاً من اسبانيا في العام ١٠٩٠ (٤٨٣ هـ). وأمام ضعف رد فعل الاسبانيين – الـذين تحللـوا خـلال قـرون مـن الجمـوح والبـذخ – علـى اسـتيلاء الجيـوش الصـليبية علـى القـدس فـي العـام ١٠٩٩ (٤٩٢ هـ)، تجـرأ خلفـاء أوربـان الثاني الذي مات في العام (١٠٩٩ – ٤٩٢ هـ) وبدأوا يختبرون، بمناوشات عديدة، قدرة المرابطين، ثم الموحدين، علـى القتـال، وقضـم أراضـيهم فـي شبه الجزيرة.

وفي العام ١٢١٢ (٦٠٨ هـ). كانت معركة لاس نافاس دي تولـوزاس التـي رأت هزيمة الأسبان. تخلى هؤلاء عن شطر هام من شمال اسبانيا وانثنـوا إلـى الأنـدلس. بهـذا النصـر الكبيـر فـي الغـرب، افتـدى البابـا اينوسـان Innocent الثالث، بعض التجاوزات التي ارتكبها الصليبيون، في الشرق ضد القسطنطينية في العام ١٢٠٤ (٥٩٩ هـ).

وبعد الحروب الصـليبية فـي آسيا، التـي لـم تعط أي مكسب أرضـي، التفت المسـيحيون نحـو أروبـا المسـلمة، وأسـقطوا ممالـك الأنـدلس الواحـدة بعـد الأخرى، وفي العام ١٤٩٢ (٨٩٦ هـ)، يستسلم آخر معلم، سقوط غرناطة.

٢,٢ – بعد العام ١٤٩٢ (٨٩٦ هـ):

بعد سقوط غرناطة وأروبا المسلمة، قويت الكنيسـة الكاثوليكيـة جداً، لكنهـا بقيـت مـع ذلـك حـذرة. علمهـا التـاريخ أن الأسـبان لـم يقبلـوا أبـداً الاسـتعمار الرومـاني. بـل اسـتقبلوا العـرب المسـلمين كمحـررين وبسـرعة ارتضـوا الإسلام ديناً، فهو أقرب إلى المسيحية الآرية بخلاف ما كانت عليه مسيحية المستعمر الروماني. وسيتصرف البابا اسكندر السادس فـي إسبانيا بطريقـة منهجيـة ليـدحر الإسـلام والمسـلمين مـن شـبه الجزيـرة الإيبريـة. إذ ألـزم الاكليـروس كـل الشـعب باعتنـاق مـذهب الكنيسـة الكاثوليكيـة، تحـت طائلـة الموت أو الطرد( ).

تنفيذاً لهذه الأعمـال، سيطارد المسيحيون المسلمين حتـى المغـرب، حيـث لجـأوا. خشـي الأولـون مـن عـودة القـوة لخصـومهم ابنـاء ديـنهم لاسـترجاع اسبانيا. وهكذا انتقلت الصليبية من أروبا إلى شمال أفريقيا.

في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، رغم توسع الانتصارات المسـيحية فـي اسـبانيا، تتابعـت العلاقـات الاقتصـادية بـين المغـرب ومملكـة أرغون، رغم خسارة جزر البليار، التي احتلها المسيحيون.

وبين العام ١٣٠٨ و ١٣٣١ (٧٠٦ و ٧٣٠ هـ)، اتجه واحد وأربعون مركباً تجارياً أرغوانياً إلى الجزائر( ). وفي العام ١٣٢٣ (٧٢٢ هـ). صدق الحفصيون في تونس والأرغونيون المعاهدة التجارية الموقعة في العام ١٣١٤ (٧١٢ هـ). حول الحقوق الجمركية والتخزين في المرافئ المغربية.

رأت مرحلة إبعاد الأسبان المسلمين إلى شمال أفريقا، بعد العام ١٤٩٢ (٨٩٦ هـ). ولادة مراكب القرصنة المغربية، المكلفة بحماية وإخلاء الأخوة الأسبان إلى المغرب. ولتدارك استعادة اسبانيا من قبل المسلمين وطلب سكان اشبيليا وغرناطة الذين ظلوا مسلمين عون المغرب والباب العالي، في ١٥٠١ (٩٠٦ هـ)، وللتصدي للخطر الذي يمثله القرصان المغاربة في البحر، سيرسل المسيحيون أسطولهم إلى الساحل الأفريقي. وفي العام ١٥٠٥ (٩١٠ هـ)، احتل هؤلاء مرافئ اوران وبوجي، وحيّدوا مرافئ ديللي، شرشل ومستغانم. ستدفع المرافئ الأخيرة، مع الجزائر، الضريبة لفردناند الكاثوليكي. وبنى بترو نافارو مرفأ الجزائر (pennon) الذي سيحمي المدينة بمدافعه. وفي العام ١٥١١ (٩١٦ هـ) احتل المسيحيون طرابلس (ليبيا).

قدم حفصيو تونس العون والمساعدة إلى المرافئ المحتلة وأرسلوا نحو الغرب الأخوان بربروس، أشهر القراصنة الترك، الذين وصلوا إلى مدينة الجزائر في العام ١٥١٦ (٩٢١ هـ). وشكل هؤلاء بمؤازرة القرصان المغاربة، أسطولاً ضارباً، واستولوا على مرفأ الجزائر من المسيحيين في العام ١٥٣٠ (٩٣٥ هـ). وفي العام ١٥٣٨ (٩٤٥ هـ). هزم البربروس أسطول شارل كينيت – ملك اسبانيا وإمبراطور ألمانيا في العام (١٥٠٠-١٥٥٨ / ٩٠٥-٩٦٥ هـ). وحلفائه في بريفيزا Prevesa. وفي العام ١٥٤١ (٩٤٧ هـ). هلك الشطر الأعظم من أسطول شارل كينت بعاصفة ربانية في خليج الجزائر.

خلال ثلاثة قرون، ستكون بحرية الدولة الجزائرية (أساساً) دركي الغرب في حوض المتوسط، فارضة حمايتها ورسومها على السفن الأروبية.

وفي العام ١٧٩١ (١٢٠٥ هـ). سقط آخر حصن مسيحي في المغرب، أوران – إذا استثنيا سيتا، ميلالي وجزر الكناري التي احتلها الأسبان المسيحيون في القرن الخامس عشر (التاسع الهجري). وقد فشلت الدول الأروبية (فرنسا، انكلترا، اسبانيا المسيحية، هولندا) رغم عدة محاولات بحرية لاستيلاء على مرفأ الجزائر أو تدميره، فشلاً ذريعاً.

كانت البلدان الأروبية، الولايات المتحدة الأمريكية، روسيا وغيرها، تدفع ضريبة للجزائر. وكانت هذه تقلق المراكب المسيحية حتى في المحيط الأطلسي. وكان الأروبيون يشعرون المذلة والضآلة أمام الجبروت البحري الجزائري. قاد أكسموس، قائد الأسطول الانكليزي آخر حملة صليبية بحربة ضد الجزائر – غداة مؤتمري فيينا وباريس – (في العام ١٨١٥ – ١٢٣٠ هـ). التي ضمت كل الدول الأروبية، والتي هدفت هزيمة الإمبراطورية العثمانية وتحييد البلدان المسلمة – قائد الأسطول الانكليزي، إيكسموث. وفي العام ١٨١٦ (١٢٣١ هـ) خضع باي الجزائر للشروط الانكليزية وقبل احترام توصيات مؤتمري فيينا وباريس.
وفي العام ١٨٢٧ (١٢٤٢ هـ)، تحطم الأسطول التركي في نافاران على يد الأساطيل المتحدة لروسيا، انكلترا وفرنسا. ودمر أيضاً الأسطولان المصري والجزائري. القادمان لمديد العون للأتراك.
وفي العام ١٨٣٠ (١٢٤٥ هـ).، أبحر الأسطول الفرنسي إلى سيدي – فريدج، قرب الجزائر العاصمة وبدأ استعمار الجزائر، وأخضعت أول دولة مسلمة في لائحة البلدان المسلمة. سنذكر هذه البلدان باختصار:
١ – مراكش: بعد احتلال سيتا، ميليلا، وجزر الكنار، تمت الحماية الفرنسية، في العام ١٩١٢ (١٣٣٠ هـ) بينما احتل الشمال (منطقة الريف) من قبل الأسبان المسيحيين (لتنفيذ الاتفاق الفرنسي – الاسباني في ١٩٠٤ / ١٣٢٢ هـ) وبعد ضمان الانكليز والألمان.
٢ – تونس: في العام ١٨٧٨ (١٢٩٥ هـ)، في مؤتمر برلين، أخلت انكلترا لفرنسا الحقل حراً في تونس مقابل اعترافها باستئجار قبرص. وفي العام ١٨٨٣ (١٣٠٠ هـ)، تم الانتداب الفرنسي.
٣ – ليبيا: في العام ١٩١٢ (١٣٣٠ هـ)، بعد الحرب الايطالية التركية، أضحت ليبيا مستعمرة ايطالية.
٤ – موريتانيا: في العام ١٨٩٨ (١٣١٧ هـ)، صار البلد مستعمرة فرنسية.
٥ – سينغال: في العام ١٨٩٨ (١٣١٧ هـ)، أنجز احتلال البلد على يد الفرنسيين.
٦ – مصر: بعد الاحتلال القصير البونابرتي (في العام ١٧٩٨ – ١٨٠١ / ١٢١٢ – ١٢١٥ هـ)، وقع الانتداب الانكليزي في العام ١٩١٤ (١٣٣٢ هـ).
٧ – السودان: بعد الاحتلال المشترك الانكلو – مصري في العام ١٨٩٩ (١٣١٧ هـ)، صار البلد مستعمرة بريطانية في العام ١٩١٤ (١٣٣٢ هـ).

٨ – أريتريا: في العام ١٨٩٠ (١٣٠٧ هـ)، مستعمرة بريطانية.
٩ – أثيوبيا: في العام ١٩٣٥ (١٣٥٣ هـ)، مستعمرة إيطالية.
١٠ – الصومال: في العام ١٨٨٤ (١٣٠١ هـ)، صار قسم من البلاد مستعمرة بريطانية، ثم في العام ١٨٩٩ (١٣١٧ هـ)، صار القسم الآخر مستعمرة إيطالية.
١١ – جيبوتي: في العام ١٨٨٨ (١٣٠٦ هـ)، احتل من قبل فرنسا، ثم في العام ١٨٩٢ (١٣٠٩ هـ)، تشكل الساحل الفرنسي الصومال.
١٢ – اليمن الجنوبي: عدن (وحاضراتها) تصير مستعمرة بريطانية في العام ١٨٣٩ (١٢٥٥ هـ)، وينتقل ما تبقى من البلد إلى الانتداب الانكليزي.
١٣ – الإمارات العربية المتحدة: في العام ١٨٩٢ (١٣٠٩ هـ)، صارت محمية بريطانية.
١٤ – إيران: في العام ١٩٠٧ (١٣٢٥ هـ) يقسم الاتفاق الانكليزي الروسي البلاد إلى شطري نفوذ (انكليزي، روسي).
١٥ – العراق: في العام ١٩١٤ – ١٩١٨ (١٣٣٢ – ١٣٣٦ هـ)، يقع الاحتلال البريطاني.
١٦ – سوريا: في العام ١٨٦٠ (١٢٧٦ هـ)، بعد انهدام الإمبراطورية العثمانية، أخذت فرنسا سوريا ولبنان بشكل انتداب.
١٧ – فلسطين: في العام ١٩١٧ – ١٩١٨ (١٣٣٥-١٣٣٦ هـ)، ثمّ تدخل انكليزي في فلسطين بعد وعد بلفور( ) يعد بإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين.
١٨ – لبنان: أعلنت دولة لبنان الكبير، تحت الانتداب الفرنسي في العام ١٩١٨ (١٣٣٦ هـ).
١٩ – الأردن: انفصل عن فلسطين في العام ١٩٢٠ (١٣٣٨ هـ)، وانتقل إلى الانتداب البريطاني.
٢٠ – تركيا: في العام ١٨٦٠ (١٢٧٦ هـ)، انهيار الإمبراطورية العثمانية.
٢١ – أهم الأراضي المسلمة في آسيا وأروبا (القوقاز) احتلتها روسيا:
- في أروبا: أذربيجان، احتل في العام ١٨٢٨ (١٢٤٣ هـ).
الشيشان، احتل في العام ١٨٥٠ (١٢٦٦ هـ).
- في أسيا: تركمانيا، احتلت في العام ١٨٥٠ (١٢٦٦ هـ).
أوزبكستان، احتلت في العام ١٨٦٨ (١٢٨٥ هـ).
قرغيزيا، احتلت في العام ١٨٧٠ (١٢٨٧ هـ).

٢٢ – أفغانستان: وفي العام ١٨٧٨ – ١٨٨٠ (١٢٩٥ – ١٢٩٧ هـ)، قام الانتداب الانكليزي.
٢٣ – الهند: في العام ١٨٥٨ (١٢٧٣ هـ)، قام احتلال انكليزي لكل البلاد وتصير الهند مستعمرة انكليزية.
٢٤ – سري – لانكا: في العام ١٨١٥ (١٢٣٠ هـ)، صارت مستعمرة بريطانية.
٢٥ – ماليزيا: (سنغافورة): في العام ١٨١٩ (١٢٣٤ هـ)، صارت مستعمرة بريطانية.
٢٦ – اندونيسيا: في العام ١٩٠٨ (١٣٢٦ هـ)، تم احتلال كامل الأرخبيل من قلب الهولانديين.
٢٧ – الفيليبين: بعد أن كانت مستعمرة أسبانية منذ القرن السادس عشر م. (العاشر الهجري)، تركت البلاد للولايات المتحدة الأمريكية. بمعاهدة باريس في العام ١٨٩٨ (١٣١٥ هـ).
٢٨ – البوسنة: في العام ١٨٧٨ (١٢٩٥ هـ)، تم احتلالها من قبل الجيش النمساوي.
٢٩ – كوسوفو: (حاضرة صربية يعمرها الألبان): في العام ١٨٣٠ (١٢٤٥هـ)، تستقل صربيا.
٣٠ – ألبانيا: في العام ١٩١٦ (١٣٣٤ هـ)، احتلت إيطاليا جزءاً من ألبانيا.
توصلت الدول الأروبية المسيحية، خلال أقل من قرن، إلى تحقيق ما لم تستطع الحروب الصليبية تحقيقه خلال قرنين، أي تحييد أو الاستيلاء على كل أراضي دار الإسلام، بما فيها المقامات المقدسة في فلسطين.
إن التآلف بين مختلف الأمم الأروبية، وتطورها الاقتصادي، الصناعي، والعسكري، وتوزيع الأدوار على كل منها. أفضت بوضوح إلى تحقيق هذا الهدف. والجدير ذكره أيضاً الافتراق، بل التنازع، بين الدول الإسلامية وتراخيهم السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي.
ولقد أعاد مؤتمر فيينا وباريس في العام ١٨١٥ (١٢٣٠ هـ)، بعد سقوط نابليون الأول، رسم الخريطة الجغرافية للعالم، وبالتناوب، يتلقى الفرنسيون، الانكليز، الأسبان المسيحيون، الايطاليون، النمساويون، الهولنديون، الروس مناطق "نفوذهم". فبعد تشتت الإمبراطورية العثمانية في العام ١٨٦٠ (١٢٧٦ هـ)، والحرب الروسية – التركية في العام ١٨٧٧ (١٢٩٤ هـ)، عقد مؤتمر آخر، مؤتمر برلين، الذي ناقش "المسألة

الشرقية" أي ما تبقى من البلدان المسلمة في أفريقيا وآسيا التي لم تستعمر بعد.
وقد أخذت أروبا المسيحية على عاتقها خطط غزو روما الوثنية، ثم الكنيسة الرومانية والكنيسة البيزنطية. أي أدخلت في تبعية الكنيسة الكاثوليكية و(بشكل رئيسي) كل الشعوب التي اعتنقت الإسلام أو التي لن تتأخر في اعتناقه.
هذه هي إعادة نشر المسيحية بالقوة على الأسبان، بدءاً من العام ١٤٩٢ (٨٩٦ هـ)، وهي إعادة نشر استثمار الأراضي "البربرية" بوحشية من قبل الرومان ثم البيزنطيين في العالم العربي.
جـ – لم يخاف الأروبيون العرب؟
الخوف، حسب القاموس لاروس هو شعور بالقلق الناجم عن وجود الخطر أو التفكير به. مرادف الخوف، الخشية، التوجس، الفزع، القلق، الذعر، الرعب،. والرعب خوف شديد ناتج عن تصور الأذى الفعلي أو الظاهري. والخشية خوف غامض، غير محدد. والقلق اضطراب أو زعزعة الفكر والروح.
يفسر القديس أوغستان الخوف: "ليس الخوف جوهراً بل فساد الإرادة التي تتحول عن قيادة الجوهر لترتمي في لجة أشياء منحطة، وتقذف أحشاءها".
بالمقابل، سلام الفكر والروح هو غياب النزاع الداخلي أو الخارجي. هذه هي الحالة التي نتسق في أثنائها مع كل ما يحيط بنا. في آسيا، يقول المعلمون للتلاميذ: "لا تخافوا، فليس ثمة ما يدعو للخوف سوى الريبة".
فالخوف يدمر كل الطاقات ويطلق التصور السلبي. والأمر المشترك بين علماء النفس القول إن الصراع بين الإرادة والتصور، التصور هو الذي يربح دائماً وإذا حاولنا أن ننصر التصور بإرادة غاشمة، نثير عصاباً.
يتعطش كل مخلوق حي (إنسان، حيوان، نبات) لتوفير الطاقة. تتعلق النبتة بالشجرة وتصعد حتى الذروة لتصل إلى ضوء الشمس، دون مبالاة بالشجرة التي قد تخنقها. ويسعى الإنسان القوي للسيطرة على الناس الآخرين، الأضعف أو هكذا يتصورهم. ويظن أنه بالهيمنة عليهم لا يبقى شيء يخافه.

١ – قبل الإسلام:

قبل العهد المسيحي بقرون، رأى المثقفون والعلماء اليونان، بداية بواسطة جزيرة كريت، ثم عبر أسفارهم الدراسية إلى مصر، أنهم اكتشفوا مدى

وسعة الحضارة المصرية. تكلمهم وثائق "دور المحفوظات" – الأرشيفات - والشواهد الشفوية والأوابد المنحوتة عن الأصل العربي (بلاد البونت) للمصريين. وفي علاقاتهم السلمية أو الحربية ضد الفرس، يتعرف اليونان إلى الحضارات الدفينة والباهرة لما بين النهرين والهلال الخصيب، ويلحظون بقايا هذه الحضارات (الحقبة الآشورية والكلدانية)، يدرسونها ويكتشفون هنا أيضاً، أن العرب هم الذين أبدعوا هذه الحضارات . وقد أكد اسكندر المقدوني، عبر حروبه المظفرة ضد الفرس في آسيا الصغرى هذه الشواهد بواسطة المدحورين. ويقرر أن يرى عن كثب مصر الخرافية بل الرائعة هذه، لاسيما أن خصومه، يحتلونها. وفي العام ٣٣٣ ق.م. يغزو مصر ويصير وارث البلاد التي رأت ولادة حضارتي بين النهرين ومصر.
أقام الكتاب اليونان (علماء، فلاسفة، ومثقفون) سنين مديدة في مصر، حيث درسوا العلوم، الفلسفة، الأديان المصرية وجمعوا آخر آثار الحضارة المصرية الدفينة. مع ذلك، اكتشفوا أن مصر المحتضرة، التي ليست الآن سوى شبح مصر – هي منارة الكون، إن هي إلا شطراً من العالم العربي، الماثلة أبداً التي، بعد كل هزيمة أو خمول، تستيقظ وتنبعث من الرماد، يدب فيها الشباب وتخلق حضارات جديدة. إن اليونان لدى دخولهم إلى مكتبة الإسكندرية الشهيرة، درسوا الحضارات العربية لما بين النهرين، في فينيقيا، في اليمن، وفي مصر ذاتها. يعرفون أن كل هذه الشعوب، المشتتة ظاهرياً، ترتبط بنفس الأرومة، ونفس اللغة والمصير المشترك. ولدى عودتهم إلى اليونان، ساهموا بهذه الدراسات، سلموا خلاصاتهم إلى الحكام: نجحت إمبراطورية اليونانية القوية من ضعف العالم العربي، واستعباده.
استخدمت كل السبل والوسائل لقص أجنحة الصقر العربي: العسكرية، الاقتصادية، السياسية والثقافية. استعملت السبل الثلاثة الأولى لصالح الأحداث. أما السبل الثقافية، تتم بشق – اصطناعياً – وتدمير كل مكونات العالم العربي وتضارب بعضها بعضاً، بمضاعفة التناحرات الإقليمية والشخصية، والاتحاد مع جزء لإضعاف الأجزاء الأخرى، الخ... بكلمة، تزوير وتهميش تاريخ هذه المناطق لتقسيمها، تضاربها ثم تطويعها.
يبدأ اليونان بتطبيق خططهم بسلاح لا يعرفه العرب- أو أسواء استخدامه – هو سلاح الدعاية. وبصبر وأناة، راح الكتاب اليونان يكتبون التاريخ مجدداً، بداية بتر كل ما سبق تاريخ اليونان الخاص – أو تحجيم ما سبق – وتربية عدة أجيال – يونان و "برابرة" بهذا التوجه. ثم "إعادة ابتكار" كل العلوم المصرية وبين النهرين بوصفها هللينية، وتمزيق كل الوثائق،

والمخطوطات، والآثار القادرة أن تشهد على العكس. كان الدخول إلى مسرح الإسكندر الظافر هو، من هذه الزاوية جيد ويساعدهم في مخططهم، مع غزو شطر هام من العالم العربي، من النيل إلى الفرات( ).
سهل امتلاك هذه الأرض خطتهم وسرّع تنفيذها. صارت الإسكندرية آنئذ الموقع العام لليونان و "حصان طروادة" لهم. وبعد قرن، يسقط الجزء الثاني من العالم العربي، في الغرب، بيد الرومان، بداية في اسبانيا، ثم في شمال أفريقيا.
وبولادة يسوع، كان كل العالم العربي مستعمراً تقريباً من قبل الرومان (الذين زرعوا اليونان في الشرق)، عدا بعض الممالك في شمال وجنوب الجزيرة العربية وبعض المدن مثل مكة – والمدينة. وكما فعل اليونان، رومن الرومان أسماء الأُسر والمدن المستعمرة بغية محو من الذاكرة الجماعية البصمةَ العربيةَ (كما فعلوا في إسبانيا وشمال أفريقيا).
واستضروا أيضاً على الشواهد المكتوبة. حرق أورليان، بعد انتصاره على زنوبيا، ملكة تدمر (بالمير) مكتبة الإسكندرية، ليعاقب المصريين الذين عززوا الملكة زنوبيا، ضد روما، وأنجز تيودوس، إمبراطور روما ورأس المسيحية الأوربية، تدمير كل الكتب "الوثنية" في مكتبة الإسكندرية.
وبعد صلب الحواري بطرس، أول أسقف في روما، واضطهاد المسيحيين طيلة قرنين، سمحت الإمبراطورية الرومانية في العام ٣١٣ م. بممارسة العبادات المسيحية. وفي العام ٣٢٥ م، يعترف قنصل نيقيا، بأمرٍ من الإمبراطور جوستنيان أسبقية الكنيسة الرومانية.
رغم جبروت روما وركضها وراء إمبراطورية شاملة، لم ينس الإمبراطور جوستنيان دروس التاريخ. فالعرب المدحورون بالتناوب، أمام اليونان مرة، وأمام الرومان مرة أخرى، وأمام الفرس مرة ثالثة (من أسبانيا إلى بين النهرين، من المتوسط إلى المحيط الهندي)، يرفعون دائماً رأسهم، بعد عبور العاصفة، ويبدون أبداً قوة يجب أن يحسب حسابها. يتذكر جوستنيان الحروب الفينيقية، والجنرال هانيبال الذي طرق أبواب روما، ولم ينس فشل يوليس غالوس في الصحراء العربية، ولا ملكة تدمر، زنوبيا، التي دفعتها قوتها إلى تحدي روما.... فيقرر مراقبة عن قرب هذا العالم العربي – الشاسع الأبعاد، الذي لا يختزل وغير المرئي – يعمل على مراقبة اسبانيا، شمال أفريقيا والجزر الغربية من المتوسط، ويوكل بيزنطة بالعناية بإدارة آسيا الصغرى، وشبه الجزيرة العربية ومصر.

ويجدر بالإمبراطور قسطنطين أن يذكر أن أصل يسوع فلسطيني إذن عربي، كذلك المسيحية. فقد علمه التاريخ أن الشعوب العربية، في أفريقيا وآسيا، اعتنقت الدين الجديد بقناعة إيديولوجية، بصلابة أثنية بعكس إمبراطوريةٍ تضطهد في وقت واحد المسيحيين والمستعمرين( ).
يعلن كداش، المؤرخ الجزائري بهذا الصدد: "اهتدى البرابرة إلى دين العراة البؤساء والمعذبين المضطهدين الذي يعلي شأن العدالة والمساواة الاجتماعية. كانت المسيحية عند البرابرة، تعبيراً عن معارضتهم للهيمنة الرومانية. وانفصلوا عن ديانتهم يوم مثلت روما الكنيسة الرسمية".
وفي شمال أفريقيا، منذ القرن الثاني الميلادي، صار الناس مسيحيين، مع تسمية مائة أسقف. وفي حوالي العام ٢٤٨، ينظم سيبريان، أسقف قرطاجة، كنيسة أفريقيا.
وفي مصر، حسب التراث القبطي، يرسل الحواري بطرس إلى الإسكندرية تلميذه مرقص، بين العام ٤٠ و ٤٩. وفي نهاية القرن الثاني. يشكل كليمنت الاسكندراني الكنيسة الكبرى. وفيما بين النهرين وفي بلدان الهلال الخصيب، يصير النبطيون، التدمريون، الغسانيون في شمال الجزيرة العربية، مسيحيين بدءاً من القرن الثالث.
بعد مختلف أشكال اضطهاد المسيحيين من قبل الأباطرة الرومان، الذين توالوا حتى قسطنطين، يحاول هذا كبح جماهير المعارضين، المتواجدين في محيطه. ويبدل التكتيك لكي يصون وحدة الإمبراطورية الرومانية: يصادر الدين الجديد، باعتلاء رأس الكنيسة الرومانية.
وبأدوارهما السياسية والعسكرية، خنقت روما وبيزنطة، في كل مجالاتهما، القسم الأكبر من المناطق العربية. بغي قسطنطين السيطرة على هذه المناطق بصورة دائمة وناجزة، بإلحاق الدور الديني. فتصير الأراضي العربية التي اعتنقت المسيحية، أو في طريقها إلى هذا، أكثر طواعية تجاه روما وبيزنطة، والأساقفة الذين تلوا يسوع. وبالنسبة لقسطنطين والرومان، كانت الدعاية الدينية أفضل من حرب، باهظة الثمن بشرياً ومادياً.
على ذلك، خانت الوقائع حسابات قسطنطين، والذهنية الاستقلالية لدى الشعوب المستعمرة التي، وقد بقيت مسيحية، غيرت التناول العقائدي والإجتماعي – الإقتصادي عما لدى الرومان.
وهكذا ولدت الكنائس المنشقة: في شمال أفريقيا مع حركة الأسقف دونات من العام ٣١٣ – ٣٩٥ (اتحدت الكنيسة الرومانية مع الإمبراطورية الرومانية لسحق كنيسة دونات والإمازيغ)، وفي مصر واسبانيا، مع ظهور

المذهب الأرياني (من القرن الرابع – القرن السابع)( )، وفي دولة النيل، ومع ظهور المذهب المقدوني والنسطوري، واليعقوبي، الخ...
ويستخدم الإمبراطور تيودوس، متابعاً الطريق الذي رسمه قبله قسطنطين، السبل الدينية ليوطد هيمنته على الأراضي المحتلة وسكانها، وعلى الكنائس الأخرى. حوّل الكنيسة الرومانية إلى أداة لتقواه وتأدية فروضه الدينية: كانت هذه هي حقبة "إفلاس" الإمبراطورية الرومانية، في المجال السياسي وفي المجال الديني. خلاصة: الإمبراطورية الرومانية تتصدع، ويحتل الويزيغوث( ) – المسيحيون الأريانيون المنشقون – روما وممتلكاتها (اسبانيا، شمال أفريقيا) في بداية القرن الخامس.
إن لم يكن العرب، قبل العصر المسيحي، جيران أقوى الإمبراطوريات اليونانية ثم الرومانية، من جهة، والفارسية من جهة أخرى، يمثلون إمبراطورية موحدة، في الأقل كانت قوة واقعية، غير محددة ومتحركة كرمل الصحراء.
فقط بوجودهم الجسدي والأرضي، كان العرب يفرضون نفسهم – دون أن يريدوا – حكماً في النزاع الدهري بين الفرس من جهة واليونان / الرومان من جهة. وكان اليونان، ثم الرومان يعانون إحساساً بالقلق تجاه العرب، إحساساً مدنياً للإشراق الحضاري والاقتصادي للعرب وتعدد مراكز قرارهم.
إن جهل أخلاق العرب وعاداتهم، وكيف وصل العرب إلى احتكار التجارة العالمية، أدى إلى خوف اليونان (والرومان)، خوفاً غامضاً، غير محدد. فانغلاقية الصحراء العربية، واستحالة وصول اليونان (والرومان) إلى قلب الجزيرة العربية – من أجل "سلامة" المسافرين، وبالأولى من أجل القوى الحربية – أضيف كشف الأسرار، إلى هذا ليضخم الإحساس المرعوب والمتوجس.
لم يقبل العرب، بعد احتلال الاسكندر الكبير جزءاً من مناطق شرق العالم العربي، وبعد احتلال الرومان بعض أقاليم الغرب (إسبانيا، شمال أفريقيا)، وبموجب ملكة حب الاستقلال التي تميزهم، لم يقبلوا النير الأجنبي. فأطلقوا سلسلة من التمردات والعصيانات، وعارضوا الاستعمار بمختلف الأشكال (الاقتصادية، الدينية، الاجتماعية، الخ...) في بلادهم.
وبعد مجيء المسيحية اعتنق العرب، بداية في فلسطين، مصر ثم شمال أفريقا الدين الجديد لأنه نابع من بلادهم، ويتكلم لغتهم. فالسيد المسيح ابن فلسطين ورسالته في العدالة والأخوة لاقت صدى مشعاً لدى هذه الشعوب

المستعمرة، المستثمرة والمستعبدة. وقد أصبحت هذه الشعوب، بتنصرها، خطراً على الإمبراطورية الرومانية، بداية لأنها كانت تمثل الأغلبية العددية في الإمبراطورية، ثم لأنها وريثة هذا العالم العربي الذي يكره التصالح مع الرومان.
وروما، كي تحافظ على تفوقها السياسي والعسكري، بدلت خطتها وجعلت الدين الجديد دين الدولة – بعد كل تلك العذابات والأهوال الذي ذاقها أنصاره. وقد رأينا أعلاه أن قبول المسيحية كدين رسمي لروما كان إستراتيجية سياسية عارية من أي روح أو إيمان ديني. فسبحت مع هذا التيار الديناميكي الواعد، المسيحية الأصلية، لأن لا تجرفها حركة التاريخ( ). ويجب أيضاً العمل على تطور الكنيسة الرومانية تعبيراً عن وقائع سياسات الإمبراطورية. ومثل روما الطامعة في أن تكون إمبراطورية شاملة، رغبت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أن تكون كنيسة جامعة (كاثوليك يعني جامع أو شامل باليونانية). لكن المسيحيين الشرعيين، بخاصة في المستعمرات، لم يقبلوا متابعة روما في ترجماتها العقائدية الهامة، وهكذا شكل الإمازيغ في أفريقيا الشمالية، في القرن الرابع برئاسة دونات، أسقف قرطاجة، الكنيسة الدوناتية، المعارضة للكنيسة الرومانية.
وفي القرن الرابع أيضاً، أسس الأريانيون (برئاسة المصري أريوس) الذين أنكروا موضوعة الأقانيم الثلاثة وإلوهية يسوع، كنيسة لهم. وهؤلاء هم الأريانيون (القوط والجرمان الآخرون) الذين غزوا روما.
وفي العام ٤٥١ م.، في القنصلية الكلدانية Chaleedaine، انفصل العرب المسيحيون الموحدون (في سوريا ومصر واليعاقبة) عن الكنيسة الرومانية. ونادوا بطبيعة واحدة ليسوع لأن الطبيعة الإلهية امتصت الطبيعة البشرية. وستنتشر المسيحية في مصر لمدة طويلة اليونانية، أي بشكل رئيسي في المدن التي يحتلها اليونان.وفي نهاية القرن الثاني، يؤسس المسيحيون الكنيسة الكبرى، مع كليمونت الاسكندراني، تلميذ بانتين Pantene ( ).
وفي العام ٢٠٢، يضطهد سبتيم سيفير، إمبراطور روما، المسيحيين، واقتدى به خلفاؤه. على أثر هذه الاضطهادات، تقبل الكنيسة القبطية اللغة القبطية كلغة طقسية.
وكما فعل العرب الوثنيون ق. م. قاوم العرب المسيحيون الإمبراطورية الرومانية، ليس فقط عسكرياً، بل دينياً أيضاً( ).

وكما رأينا أعلاه، في فصل "الدين الموحد" فقد فهم المسيحيون الأوروبيون بدراستهم الكتب المقدسة التوراتية)، قدوم نبي عربي، محمد (ص) الذي، مع رسالته "كنشيد جديد" أضيف إلى الخوف الذي يعاني منه الأوروبيون، العرب الوثنيين. ومن جهة أخرى، سينير هذا النبي الجديد والأخير حتماً وسيعزز رسائل سابقيه موسى وعيسى، ويحطم كل الجهود المضنية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية في أن تكون الكنيسة "الشاملة" ويقدم إلى مريديه ديناً قابلاً للحياة وصادقاً.
خشيت روما وأوروبا من أن تبعد هذه الرسالة الجديدة، التي ألمحت إليها الكتابات المقدسة عن الكنيسة الكاثوليكية، شرائح واسعة من المؤمنين (فضلاً عما فعلت الكنائس المنشقة) وتنضم إلى الدين الجديد، الأكثر شرعية وأقل التباس حول المشترك بين البشر.
الرسالة الإسلامية، واضحة ولا لبس فيها، إله واحد يعبد وحدهُ، عملت المساواة بين كل المسلمين على أن يعتنق عرب الإمبراطورية الرومانية (في أكثرهم) الدين الجديد. يعلن غ. ليبون بهذا الخصوص: "الشعوب التي كانت مسيحية منذ زمن، كالمصريين في أيام أباطرة القسطنطينية، يعتنقون عقائد النبي ما أن يعرفوها، بينما لم يعرف أي شعب محمدي، منتصراً كان أم مندحراً، صار مسيحياً( )".
وسيطبق الحكام الأوروبيون الحكمة الشهيرة "الحكم، هو التوقع". قبل قدوم الإسلام، احتل شمال الجزيرة العربية (فلسطين والهلال الخصيب ومصر) من قبل روما وبيزنطة، ومن جنوب شبه الجزيرة إلى اليمن، من قبل الـ Abyssins الأثيوبيين( )، وبرعاية بيزنطة.

٢ – بعد الإسلام:

٢,١ – الحروب الصليبية العسكرية والدينية:

بعد قرن من مجيء الإسلام، فتح العرب كل العالم العربي، من اسبانيا إلى اليمن، من نهر السنغال إلى نهر الفرات. وتمتد الإمبراطورية الإسلامية في القرن الحادي عشر (الخامس الهجري) من آسيا الوسطى، حتى الصين. وفي العام ١٤٥٣ (٨٥٦ هـ)، تصير القسطنطينية عاصمة الإسلام العثمانيين( ).
لم تستطع صلبيات القرن الحادي عشر والثالث عشر ميلادي (الخامس والسادس الهجري) أن تخرق الكتلة العربية – الإسلامية، سوى في شمال إسبانيا.

فالصليبيون، خلال حملاتهم العديدة على سوريا ومصر، حسب غ. ليبون( ) "اقترفوا مع كل السكان المسلمين والمسيحيين أعمالاً وحشية تدل وحدها إلى ضراوتهم. فاستناداً إلى قصة حنة دي كومين، ابنة إمبراطور القسطنطينية المسيحي، كان واحدة من تسلياتهم المفضلة كانوا يقتلون الذين يصادفوهم، ويقطعونهم ويشوهونهم"... ويضيف الكاتب "لا يمكن مقارنة سلوك الصليبيين في كل حملة إلا بحملة من الحملات الأشد وحشية وفي نفس الوقت الأكثر رعونة وهمجية.... وتضم كل قصص المؤرخين المسيحيين القدماء في كل صفحة أمثلة على حماقاتهم الوحشية".

أكان هذا فعل مسيحيين، يحترمون الروح والحرف، تعاليم المسيح، أو هو فعل "المنخلعين الذين يقتلون أبناء نحلتهم في بلاد يعيش فيها الإسلام والمسيحيون بهدوء ووئام؟

حسب بعض الكتاب الأروبيين، عامل المسلمون المسيحيين معاملة سيئة. لكن هذا لا ينسجم مع الوقائع والتسامح الذي يجله الإسلام. فثمة شهادة أسقف القدس، تيودوس، في رسالته الموجهة إلى أسقف القسطنطينية، إينياس في العام ٨٦٩ (٢٦٠ هـ) على تسامح المسلمين مع المسيحيين، والإذن المعطى لهؤلاء لبناء كنائسهم وأديرتهم، أضف إلى عدم التدخل في شؤونهم الدينية. لقد عامل المسلمون المسيحيين الذين يعيشون في أرضهم خيراً مما عاملت بيزنطة البيظنطيين الذين يعيشون في الإمبراطورية البيزنطية.

بالمقابل، كان الإمبراطور قسطنطين الأول يكره غير المسيحيين في الإمبراطورية على اعتناق المسيحية. وشارلمان، الإمبراطور المسيحي الغربي، سلك ذات السلوك مع الساكسون والبافاريين. وأجبر الخيالة التوتون في القرن الثالث عشر والرابع عشر (السابع والثامن الهجري)، البروسيين، البلطيق والشعوب السلافية الأخرى في شمال أروبا على دخول المسيحية. و"أوصى" رئيس الكنيسة الرومانية الصليبيين أساساً بتوسيع ودعم الإمبراطورية البابوية، وتفضيل الكنيسة الرومانية على الكنيسة الأرثوذكسية وأن تبتلع الأولى الثانية، بذريعة "معركة الصليب ضد الهلال".

وصار هذا التعبير "الصليب ضد الهلال"، مردداً بالقوة، مقبولاً ومستخدماً من قبل كل كتاب أروبا تقريباً تعبيراً عن المعركة، التناحر بين الكنيسة الكاثوليكية والإسلام بينما يتبنى الدينان الموحدان الرسائل ذاتها في الإخاء والاحترام المتبادل، والمبادئ الأخلاقية نفسها. يشهر الصليب رمز تعذيب

السيد المسيح. في هذا الرمز، الأروبيون مختلفون حول إدراكهم العقلي: الصليب اليوناني، الصليب اللاتيني، الصليب المعقوف، صليب لورين، صليب مالطة، صليب القديس أندريه، الخ... والهلال هو وحده حسب لاروس "رمز المسلمين لاسيما الترك". ولا يتردد بعض الكتاب من استخدام هذا التعبير، الذي صار عاماً. حتى الكاتب المطلع البصير فيليب حتّي، يكتب في كتابه "الوجيز في تاريخ العرب" فصلاً كاملاً بعنوان "الصليب سيحل محل الهلال". وأيضاً، عبارة الحروب الصليبية، مشتقة من كلمة صليب وتستخدم لإعلاء شأن نضال المسيحيين ضد المسلمين، باعتبار هؤلاء الأخيرين غير مؤمنين، غير مؤمنين بالأنبياء، برسالاتهم الإلهية، أم غير المؤمنين بالكنيسة الكاثوليكية؟

في القرن الثامن عشر ميلادي (الثاني عشر الهجري)، سعّرت إمبراطورية الغرب المسيحية ضغطها على القسطنطينية وفي العام ٧٩٤ (١٧٧ هـ)، ألهب شارلمان جدالاً حول تعديل قانون الإيمان. رفضت كنيسة الشرق هذا التعديل لأنه ينقض توصيات قناصل القسطنطينية (في العام ٣٨١) وأفسس (في العام ٤٣١).

في ١٠٥٤ (٤٤٥ هـ)، ظهر انشقاق آخر في الشرق مع تكوين الكنيسة البيزنطية (الطائفة الأرثوذكسية واللغة اليونانية)، ومعارض للكنيسة الرومانية (الطائفة الكاثوليكية واللغة اللاتينية). لم تعترف الكنيسة الشرقية بعصمة البابا. وفي العام ١٢٠٨ (٦٠٣ هـ)، أبيد الورثة الروحيون للأريانست، للألبيجوا أو الكتار cathares اللاجئين في جنوب فرنسا ولمبارديا في حرب صليبية، بقيادة البابا إنوسان Innocent( ) الثالث.

وفي القرن السادس عشر (العاشر الهجري)، اختلس، الانشقاق الجديد الديني (بقيادة مارتن لوثر) من سلطة البابا جزءاً من أروبا (انكلترا، البلاد السكاندنافية، ألمانيا، هولندا، سويسرا، شطراً من فرنسا...) وخلق الكنيسة البروتستانتية.

يقارن غ. ليبون( ) بين المجتمعات الأروبية والعربية الإسلامية لتلك الحقبة ويكتب: "الاستقرار في مؤسسات الشرقيين، إذعانهم للأحداث الواقعية أو التي لا يستطيعون الحيلولة دون الوقوع بها، وهذه الأخوة القائمة بين كل الفئات، تشكل تعارضاً مدهشاً مع الثورات الدائمة، العيش المضطرب والمحموم، والخصومات الاجتماعية بين شعوب أروبا". ففي أروبا، رغم الاتحاد الوهمي والمصطنع بين البلدان الأروبية الوليدة، من أجل احتلال الأمكنة المقدسة (أيام الحروب الصليبية)، دامت المكائد، التمردات،

الحروب الأهلية، الحروب الدينية، الحروب بين الأخوة، الخ... وهي تدخل في ابتذالية هذه المجتمعات.
ونظرة سريعة على أهم الأحداث التي وقعت في أروبا من القرن الثاني عشر حتى التاسع عشر الميلادي (السادس إلى الثالث عشر الهجري) هي من هذه الزاوية، ذات معنى:
- في العام ١١٥٩- ١٢٠٩ (٥٥٤ – ٦٩٧ هـ): حرب المائة عام (الانكليز ضد الفرنسيين).
- في العام ١٢٠٩ – ١٢٢٩ (٦٠٤ – ٦٢٥ هـ): صليبية ضد الألبيجوا (فرنسيون ضد فرنسيون).
- في العام ١٤١١ (٨١٣ هـ) حروب أهلية بين الأرمانياك والبورغويين (فرنسا).
- في العام ١٤٤٠، ١٤٦٥ (٨٤٣ - ٨٦٩ هـ): حروب أهلية في فرنسا (تمردات بين النبلاء).
- في العام ١٤٧٠ (٨٧٤ هـ): حرب أهلية في انكلترا.
- في العام ١٣٢٧ – ١٤٥٣ (٧٣٦ – ٨٥٦ هـ): حرب أخرى لمائة عام (انكليز ضد فرنسسيين).
- في العام ١٤٨٥ – ١٤٨٨ (٨٨٩ – ٨٩٢ هـ): حرب مجنونة ضد وصاية حنّه دي بوجو Anna de beaujeu .
- في العام ١٤٩٤ – ١٥٥٩ (٨٩٨ – ٩٦٦ هـ). حروب إيطاليا، بين الفرنسيين من جهة، والانكليز، والطليان، والأسبان من جهة أخرى، وفي العام ١٥٤٣ (٩٤٩ هـ) اتحاد بين فرنسا (المملكة المسيحية) ودولة مسلمة (الإمبراطورية العثمانية) – فرنسوا الأول وسليمان ضد شارلمان – كينت.

- في العام ١٥٦٠- ١٥٩٨ (٩٦٧ – ١٠٠٦): حروب دينية (كاثوليك ضد بروتستانت).
- في العام: ١٦٠٠ – ١٦٠١ (١٠٠٨ – ١٠٠٩ هـ): حرب فرانكو – سافوايارد.
- في العام – ١٦٢٧ – ١٦٢٩ (١٠٣٦ – ١٠٣٨ هـ): حرب ضد الهوغونوت (البروتستانت).
- في العام ١٦٢٨ – ١٦٤٨ (١٠٣٦ – ١٠٥٧ هـ): حروب دينية لثلاثين سنة (فرنسيون ضد ألمان، سويديين، هولنديين...).

- في العام ١٦٤٨ – ١٦٥٣ (١٠٥٧ – ١٠٦٢ هـ): الفروند، ضد المملكة الفرنسية.
- في العام ١٦٥٥ – ١٦٥٩ (١٠٦٤ – ١٠٦٨): حرب فرنسية – اسبانية.
- في العام ١٦٧٢ – ١٦٧٨ (١٠٨٢ – ١٠٨٨ هـ): حرب هولندية.
حرب الاتحاد الرباعي، حروب تركة بولونيا، حروب تركة النمسا، حرب السبعة أعوام (فرنسية- انكليزية).
حروب الثورة الفرنسية، حروب أهلية في فرنسا، حروب التحالف ضد نابليون بونابرت الخ...
كان لا بد للشعوب الأروبية بأوسع جماهيرها، وحكامها، أمام هذا الوضع السياسي الاجتماعي الفوضوي، حتى الجزء الأول من القرن التاسع عشر (الثالث عشر الهجري)، إلا أن يحسدوا بل يغاروا من المجتمع العربي الإسلامي المعاصر، المنضبط، المتسامح والمتحضر.
يكتب غ. ليبون( ) الذي لا يمكن أن يتهم بالتحيز، بهذا الخصوص: "إن حديثنا عن العرب في مختلف المناطق التي يعمرونها ويحكمونها دل أن الخواص الأخلاقية والتسامح المشاهد الآن كانت أيضاً عامة في أيام حضارتهم القديمة. لقد تحدثنا عن عاداتهم الفروسية الأبية ودللنا أن أروبا البربرية اقترضت هذا منهم". ويضيف: "التهذيب والاحترام، التي لا ترى أبداً في أروبا إلا في الطبقات الفوقية، هي عامة في الشرق. كل المسافرون متفقون بهذا الشأن".
فالقلق الذي يعبر عنه الأروبيون تجاه العرب، الوثنيين والمسيحيين قبل الإسلام تعاظم بمجيء آخر دين توحيدي. إن كل الخطط التي رسمتها الإمبراطورية الرومانية، البيزنطية ثم الإمبراطوريات المسيحية في الغرب والشرق لجعل العرب المسيحيين يعودون إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية باءت بالفشل. بداية من قبل الطوائف المنفصلة المعارضة للكنيسة الرومانية، ثم الجماهير التي تكاد تكون كاملة لدى الشعوب العربية. كانت هذه الشعوب، بكل الأديان، متضامنة ومتحدة ضد الصليبيين – الذين ليس لهم من المسيحية سوى الاسم – ومن ثم كانوا ضد الاستعمار الأروبي.

٢,٢ – الصليبيات الثقافية:

إن التأثير الأخلاقي، الأدبي والعلمي للعرب على أروبا المسيحية أمر لا جدال فيه. بدأت بصمته تنطلق منذ القرن التاسع (الثالث الهجري) عن طريق اسبانيا، وجنوب فرنسا وسيسيليا، بشكل رئيسي. فيوم كانت

الحضارة العربية – الإسلامية تتألق بكل مناحيها، كانت أوروبا غير المسلمة تعيش في الظلمات. يكتب غ. ليبون( ) بهذا الخصوص: "إذا تحدثنا عن القرن التاسع والعاشر يوم كانت الحضارة العربية تعكس كل أنوارها من أسبانيا كنّا نرى المراكز المسكونة من باقي الغرب دياجير يسكنها سادة شبه وحوش، يفخرون أنهم لا يعرفون القراءة. والأشخاص الأكثر معرفة من المسيحيين كانوا كهنة فقراء مساكين جاهلين... كانت بربرية أوروبا خلال حقبة طويلة أوسع وأعمق من أن تدرك بربريتها.... إذا ما حاول البعض الذين أصابوا بعض النور الإحساس بضرورة تمزيق كفن الجهل الثقيل المقيت الذي يبهظ صدورهم، فإلى العرب، الأساتذة الوحيدين كانوا آنئذ يتوجهون. وانطلاقاً من القرن الثاني عشر (السادس الهجري) بدأ الأوروبيون، الذين استقوا من ينابيع المعرفة والعلم العربي في إسبانيا، قراءة ترجمات باللاتينية لكتابات كتاب عرب ويونان (وهذه الأخيرة ترجمها العرب إلى العربية) وبدأوا بالدراسة والتعلم". ويؤكد غ. ليبون( ) أن "حتى القرن الخامس عشر، لم يذكر أي كاتب أو كتابة إلا ما يَرد من العرب... مثل ترجمة الكتب الغربية، لاسيما تلك التي تدرس العلوم، والتي ستكون قاعدة وحدها للتدريس في جامعات أوروبا، في أثناء خمسمائة أو ستمائة سنة".

وبطرد المسلمين من أسبانيا، والغطاء الثقيل والمتعصب لمحاكم التفتيش، يطور الأوروبيون كرد فعل عقدةً من الانحطاط – بوعي أم بغير وعي – ويحاولون تقليص أهمية التأثير الحضاري العربي - الإسلامي في أوروبا، ناسبين كل شيء مما "يتلألأ" إلى الحضارة الإغريقية الرومانية، كمرجع وحيد وشامل.

لمَ هذه الحالة من الروح السلبية؟

يجيب غ. ليبون على هذا السؤال معلناً: "يتساءل القارئ اليوم عن سبب تجاهل التأثير العربي لدى بعض العلماء الذين يبدو أنهم وضعوا استقلالهم الفكري فوق كل حكم مسبق ديني. هذا السؤال طرحته أنا أيضاً، وأعتقد أن ليس ثمة سوى جواب واحد يجب الإدلاء به: الواقع أن استقلال آرائنا ظاهري أكثر بكثير مما هو واقعي، وأننا لسنا أحراراً أبداً في تفكيرنا، كما نرى، في بعض الموضوعات.

إذن، كان صحابة محمد عبر قرون أرهب الأعداء الذين عرفتهم أوروبا. حينما لا يتركوننا نرتجف من بريق أسلحتهم، كما في زمن شارل مارتل، وفي عهد الصليبيات، أو بعد الاستيلاء على القسطنطينية، كانوا يهددون

أروبا، وقد أذلنا المسلمون بتفوق حضارتهم الساحق، وليس سوى البارحة انشققنا عن نفوذهم".
ويضيف الكاتب نفسه: "إن الأحكام المسبقة الموروثة التي ننشرها ضد الإسلام ورواده، تكدست طيلة قرون لكي لا تكون جزءاً من تنظيمنا. وهذه الأحكام المسبقة عادية ومتأصلة كما الكراهية – الخفية أحياناً، العميقة أبداً، يهود ضد مسيحيين. وإذا أضفنا إلى أحكامنا المسبقة الموروثة ضد المحمديين هذا الحكم المسبق الآخر الموروث أيضاً، يتضخم في كل جيل، على يد تربيتنا الكلاسيكية الكريهة، القائلة أن كل علوم وأدب الماضي يأتي فقط من اليونان واللاتين، سنفهم ببساطة، أن تأثير العرب الواسع، في تاريخ الحضارة الأروبية مجهول بشكل عام. وسيبدو مخجلاً أيضاً أن يفكر بعض الناس أن أروبا المسيحية مدينة لهؤلاء الكفار بخروجها من البربرية، إن شيئاً مخزياً إلى هذه الدرجة من الوضوح لن يقبل إلا بصعوبة".
يستخدم السيد ليبون تلطيفاً محبباًً في الحديث عن "تجاهل" التأثير العربي.
فيرى أن هذا إغماض بسيط وبريء. لكن غ. ليبون في فصل العلوم الجغرافية في الكتاب عينه)، يكتب: "إن الرأي الوارد أعلاه يكفي للتدليل على أهمية ("الجغرافيين العرب") ومن دون تضمين خاص للأحكام المسبقة الموروثة السائدة أيضاً ضد الأسلمة، ومن الصعب جداً أن نعلل كيف يستطيع مثقفون معروفون مثل السيد فيفيان دي سان – مارتان أن يتجاهلوا" (الجغرافيا العربية).
وفي فصل هندسة العمارة عند العرب، يشير غ. ليبون إلى هذا الطمس ويعلن: "إن علم الآثار الحديث قليل الاهتمام بالأوابد التي تركها العرب. إنها بعيدة ومشتتة ومدفونة أحياناً ودراستها ليست سهلة دوماً. عدا ثلاث أو أربع دراسات معمقة هامة ومكرسة تقريباً فقط لقصر الحمراء وجوا مع القاهرة والقدس، والكتب صامتة حولها. ويكتب باتيسيه Batissier، كاتب من أفضل كتاب "تاريخ هندسة العمارة المسلمة" التي نمتلكها، في الطبعة الأخيرة لـ "تاريخ فن الآثار الذي كتبه" تحمل تاريخ ١٨٨٠ ( )، إن "تاريخ هندسة العمارة المسلمة من أدهش آثار العالم". ويأسف لأنه عالج هذا الموضوع بشكل غير كامل. ويرتكب هذا العالم الكاتب بالفعل عدة أخطاء.

لم يأت بأي صورة من الصور الواردة في كتابه الهام، لأي أثر مسلم من سوريا، وفارس أو الهند، والجامع المصري الذي يقدمه كنموذج يمثل بالتأكيد، ببابه ونوافذه المستطيلة، وقبته البصلية، أسوأ نموذج يمكن اختياره من العمارة العربية في مصر"( ).

وفي فصل تجارة العرب مع باقي الشعوب، في كتاب "الحضارة العربية"، يعرض غ. ليبون: "يوم كان الشرق الأقصى مطرح شك في أروبا، وكانت أفريقيا مجهولة عدا بعض الشواطئ، كان العرب في اتصالات تجارية مع الهند، الصين، وداخل أفريقيا، والأقطار الأقل استغلالاً من قبل أروبا مثل روسيا، السويد والدانمرك. وقصة كشوفهم تقدم حتى الآن بصورة ناقصة". ومع ذلك لا يشير العالم الخبير سيد يللو، لا يذكر شيئاً يخص العرب في علاقاتهم حتى مع شمال أروبا".

وفيما يخص الكاتب الفرنسي أرنست رينان في العام (١٨٢٣ – ١٨٩٢ / ١٢٣٨ – ١٣٠٩ هـ) يندهش غ. ليبون( ) من مواقفه المتبدلة: "لما تصادف الآراء المسبقة التراثية والتربوية عند أحد العلماء الأكثر تبحراً وثقافة لأن لا يعكس عمق الأشياء كالتناحر الداخلي بين الإنسان القديم الذي كوّنهُ الماضي، والإنسان الحديث الذي كونته الملاحظة الشخصية، نقرأ آراء متناقضة وشديدة الغرابة.

سيجد القارىء مثلاً ملحوظة عن هذه التناقضات، في المؤتمر الهام الذي عقد في السوربون حول الأسلمة، بإدارة كاتب كبير مثل السيد الدكتور رينان. يريد الكاتب أن يثبت عدم كفاءة العرب، لكن كلاً من مزاعمه وادعاءاته مردودة من قبله في الصفحة التالية... يبدو الكاتب الماجد متضايقاً أحياناً من الطريقة المغلوطة التي تناول بها العرب.

إن الصراع بين الإنسان القديم والإنسان المعاصر يفضي إلى هذه الحصيلة غير المتوقعة كلياً، إذ يأسفَ أنه ما كان تلميذاً للرسول: "لم أدخل مسجداً يوماً، يقول الدكتور رينان، دون أن يهزني انفعال حي، ودون بعض الأسف لأني لست مسلماً". استشهاد وارد في (الصفحة ٤٥٣).

يذكر أن أرنست رينان تحول من دعوته الأكليركية لينصرف ويكرس ذاته لتاريخ اللغات والأديان. وفي مختلف كتبه، يشرح كيف أضاع الإيمان المسيحي، وخلاصة مؤتمره، بهذا الخصوص، مؤثرة: في نفس النسق من الأفكار، يكتب الرسام والكاتب الفرنسي ايتيان دينيت، الذي اعتنق الإسلام: "كان المسيحيون القادمون في هذه الأيام إلى الإسلام كلهم تقريباً من صفوة

المجتمعات الأروبية أو الأمريكية. وصدق هدايتهم نبع من عدم ارتباطه بأي مكسب مادي"( )
إن هذه الاستشهادات وغيرها، الواردة في مؤلف "حضارة العرب" لـ غ. ليبون، يمكن مضاعفتها إلى ما لانهاية، في الدراسات العلمية، في أعمال التعميم والتبسيط، في مؤلفات التاريخ، وفي الموسوعات والمعاجم الأروبية. وتدل هذه الأمثلة بوضوح إلى محاولات (تنجح أحياناً) تسطيح التاريخ، وحجب وقائع وطمسها، الخ... يلجأ إليها بعض كتاب أروبا تجاه العرب.
كان على الأروبيين، حسب "أحكامهم المسبقة الموروثة"، كما يرون، دحر العرب لتحييدهم. فالمعركة، العسكرية والدينية بداية، في أيام الحروب الصليبية، سريعاً ما تحولت إلى معركة ثقافية وحضارية. ولقد تجند المؤرخون، ورجال الأدب والعلماء الأروبيون، الخ.... كرجل واحد للدفاع عن الصليبيات الثقافية التي، حتى اليوم، تستمر في قمع الكتاب العرب والكيد لهم أحياناً بشكل متعمد.
طالت هذه الاعتداءات بداية اللغة العربية (لغة القرآن) التي كانت قد وصفت باللغة الأدبية والدينية. وعورضت باللهجات العربية الإقليمية، الخاصة بكل بلد: يعتمد المفترون على الحديث عن لغة: عربي، مصري، مغربي، عراقي، الخ... كما فعل هذا، قبل الأربيين المسيحيين، الكتابُ اليونان والرومان الذين قالوا مصريين، برابرة، من بين النهرين، آشوريين وفينيقيين آخرين لطمس الأرومة العربية.
لكي يجحدوا أقدمية الأدب العربي الواسعة على الأدب اللاتيني واليوناني، استخدم الأروبيون كتاباً عرباً، لاسيما أصحاب الشهرة المستقرة (لدى من ؟)، حاول هؤلاء الأخيرون، بالكثير من المستندات والطروحات المعقدة محو خاصية القدم للأدب العربي. مثلاً، نسبوا القصائد الشهيرة "المعلقات" إلى أيام النبي محمد (ص)، رغم أنها قبل مجيء الإسلام بعدة قرون.
يعلن غ. ليبون أن "اللغة العربية"، قبل النبي بقرن في الأقل، وصلت إلى درجة الكمال الراهنة... كان تمجيد وتبجيل الشعر متطوراً جداً عند العرب، بل أقاموا، قبل قرون من محمد، مؤتمرات أدبية، لنشره في كل بقاع الجزيرة العربية (مثل سوق عكاظ للشعر، قرب الطائف). وكان ألمع الأعمال يكتب بحروف من ذهب على أنسجة ثمينة، وتعلق في كعبة مكة، لكي تتحول إلى الأجيال القادمة. ويضيف غ. ليبون: "تملك اللغة العربية بالتأكيد العديد من اللهجات، كتلك التي في سوريا، الجزيرة العربية، مصر

والجزائر، إنما لا فرق بينها سوى بعض التنويعات الخفيفة. وبينما لا يفهم سكان أي قرية في شمال فرنسا أي كلمة مما يقوله سكان أي قرية في جنوب فرنسا، فإن ساكن مراكش يفهم بسهولة ما يقوله مصري أو ابن الجزيرة العربية".

وحجب تأثير اللغة العربية على اللغات الأروبية استنكره أيضاً الكتاب الأروبيون: يلاحظ سدلوت Sedillot بحق أن اللهجات الإقليمية في الأوفرن واللموزن "مليئة بالكلام العربي وأسماء العلم فيها تتخذ بكل خطوة شكلاً عربياً. وفي هذا الإطار، يكتب غ. ليبون( ) أن مؤلِّف معجم جديد اشتقاقي باللغة الفرنسية يؤكد أن إقامة العرب في جنوب فرنسا لم يترك أي أثر لا على اللهجات ولا على اللغة. يمكن الحكم بناء على ما تقدم، ضآلة قيمة مثل هذه الآراء. والمدهش أن رجالاً مثقفين ربما رددوها".

ثمة اكتشافات علمية قدمها العرب، ضبطها الأروبيون ونسبوها زوراً لأنفسهم لن نذكر سوى بعضها:

- في الرياضيات: استناداً إلى شاسل Chasles، في دراسته التاريخية لطرق في الهندسة، "دخلت المماسات (هكذا وردت في القاموس) في علم المثلثات على يد العرب، ولم يمارسها المعاصرون إلا بعد خمسمائة سنة، ونسب هذا العمل زوراً إلى رجيومونتانوس.... "( ).

- في علم الفلك: كشف مخطوط هام عربي على يد سدلوت منذ عدة سنوات( )، يثبت أن أبولوفا، المتوفى في بغداد في سنة ٩٩٨ م. (٣٨٨ هـ)، عرف التفاضل القمري، المعروف الآن باسم التباين. "والمعروف أن هذا الاكتشاف تم في القرن السادس عشر. على يد تيكو براهي، في العام ١٦٠١ م. (١٠٠٩ هـ)، أمر هام". ومن دراسة مؤلفات علم الفلك لدى الملك الفونس العاشر من سيسيليا، ووثائق أخرى مماثلة، يستخلص سدلوت أن "العرب سبقوا كبلر وكوبرنيك في كشف الحركة الإهليليجية للكواكب ونظرية حركة الأرض. وجداول ألفونس العاشر الفلكية، المسمات (الجداول الألفونسية)، كلها مأخوذة عن العرب( ).

- في الفيزياء: البحث البصري D'Alhazin الخازن – أحد أندر الأبحاث في فيزياء العرب "ترجم إلى اللاتينية والإيطالية، وقد لجأ إليه كبلر كثيراً في عمله في البصريات( ).

وهكذا يمكن مضاعفة أمثلة "البصمات العربية" إلى ما لا نهاية.

وكـذلك "اخـتلاس" الأعمـال الفنيـة، الأثريـة مـن مصـر، بـين النهـرين، المغـرب، الـيمن، الـخ... نشـرت اليوميـة الجزائريـة الشـهاب فـي ٢٦ آب ١٩٩٧ (٢٢-٤-١٤١٨ هـ) مقالة حول تهريب اللقيات الأثرية من اليمن: "هذه البقايا التاريخية القديمة اليمنية تسربت من الأرض بحقيبة دبلوماسية غربية. والسلطات اليمنية ترتاب الآن بنتائج الحفريات الأثرية التي ينفذها الأروبيون. إن هؤلاء، في ظل مهمتهم الرسمية يتعاونون مع الدبلوماسيين المهمين في اليمن لاختلاس هذه الآثار. وأحياناً، في أثناء المعارض في الغرب، تبدل القطع الأصلية بقطع مزيفة، كما حدث مع الآثار المصرية، التي أرسلت إلى أروبا من أجل التجصيص أو الإصلاح في العام ١٩٦٠ والعام ١٩٧٠ (١٣٨٠ و ١٣٩٠ هـ)". إلى جانب الربح الآتي من بيع هذه القطع إلى المتحف.

إن كل هذا وسيلة لحجب التاريخ القديم لهذه البلدان، مع "اختفاء" شواهد تتحدث عن هذا التاريخ.

على هذا، يعاني التعصب - هذا عنصر هام في روح الصليبيات الثقافية – لدى الأروبيين المسيحيين ضد الحضارة العربية الإسلامية من بعض الاستثناءات. فكل المسيحيين تعصبوا ضد الإسلام والعرب. بينما عرفت بعض الأوقات، وفي بعض البقاع، التعايش الإسلامي المسيحي المفرح والجدير بالذكر: لاسيما في سيسيليا، مع الملك النورماندي روجر الثاني.

يكتب فيليب حتّي( ) بهذا الخصوص: "خلال قرن واحد، ستقدم سيسيليا المشهد المتفرد في تاريخ المملكة المسيحية يوم احتل المسلمون بعض أرفع المواقع... وقد بلغ الخط الغريب والساحر الذي أسسه روجر الأول أوجهُ في حكم ابنه وخليفتهِ روجر الثاني. في العام (١١٣٠-١١٥٤)( ) ثم في أيام فريدريك الثاني. كان روجر الثاني يرتدي ثوباً على الزي العربي ويناديه ثالبوه "الملك نصف – الوثني". وكان قفطانهُ موشى بتخريمات عربية. ورؤيت النساء المسيحيات في قرطاجة Palerme بالزي المسلم".

وبعدئذ، يضيف المؤلف نفسه: "كان حفيد روجر الثاني، السلطان المعمد في سيسيليا، فريدريك الثاني يحكم في وقت معاً سيسيليا وجرمانيا. كان يحمل منذ العام ١٢٢٣ ( ) لقب إمبراطور للإمبراطورية المقدسة الرومانية الجرمانية، وصار في العام ١٢٢٥ ( ) ملك القدس بسبب زواجه. بهذا، صار الإمبراطور فريدريك أعلى سلطة مدنية في العالم المسيحي. وفي عاداته الشخصية، كما في حياته الرسمية، كان فريدريك الثاني الذي

يتعهد ويصون الحريم ودار الحريم أكثر من نصف – شرقي. وفي بلاطه تمتع الفلاسفة بلحى طويلة وأثواب فضفاضة آتية من سورية أو بغداد".
وكان أروبيو العصر الوسيط كإمارة على التسامح والتعاضد، "يستخدمون كثيراً من مهندسي العمارة الأجانب، بخاصة العرب. وقد أتى شارلمان بكثير منهم من الشرق. ودالو Dalaure، في "تاريخ باريس"، يقول إن مهندسي العمارة العرب ساهموا في بناء نوتردام دي باري"( ). "ويلاحظ السيد لنورمانت أن الشخصية العربية وجدت في فرنسا في عدة كنائس، مثل كنيسة ماغلون (العام ١١٧٨)( ) التي تقيم علاقات مستمرة مع الشرق، وكنيسة كانديه (مين ولوار)، وكنيسة غاماش (سوم) الخ...( ).

٣ ـ ملخص

ثمة واقع جدير بالذكر: العالم العربي، في القرن العشرين ميلادي (الخامس عشر الهجري)، في حدوده الراهنة هو بالضبط كما كان في القرن العاشر ق.م. ومنذ ثلاثة آلاف عام (إن لم نعد إلى أقدم)، لم يتغير العالم العربي جغرافياً – فضائياً، باستثناء شبه جزيرة إيبيريا. يعني هذا أن قاطني كل هذه الأقاليم، من الأطلسي إلى الفرات، من المتوسط إلى المحيط الهندي، كانوا هم أنفسهم أبداً، أي عرب، بمواصفات جسدية وأخلاق عربية.
ومن الملاحظ أن كل هذه البلدان تكلمت لغات عربية قبل وبعد إسلامها، رغم انصرام قرون على الاستعمار اليوناني أو الرومان – البيزنطي (قبل الإسلام) والأروبي بأشكاله وتنوعه (بعد الإسلام). بالعكس، لم يتكلم الفرس والترك، أو أذربيجان مثلاً، الأقرب (جغرافياً) إلى الجزيرة العربية من شمال أفريقيا، إلا لغتهم الخاصة، في هذه البلدان، استخدمت اللغة العربية وحدها في المجالات الدينية والعلمية). ورغم وجود أقليات عربية، أيضاً بخاصة في إيران، والإسلام، القادم إلى البلدان العربية المحتلة، وجد شعوباً تتكلم لغات عربية ولم يفعل سوى تأكيد لغة القرآن وجعلها رسمية. ما لم يحدث، نردد هذا، مع لغات المسلمين غير العربية.
أضيفت هذه العودة إلى المصادر إلى تشويش وقلق الأروبيين رغم وضعهم في العالم الحديث وقدراتهم وجبروتهم الاقتصادي والحربي. يتكلم ايتيان ناصر الدين دينيت، في مؤتمره المنعقد في باريس في العالم ١٩٢٤ (١٣٤٢ هـ) عن منشور بعنوان "الإسلام تحت النير" حيث يشي أوجين جونغ، نائب – الرئيس السابق في تونكين والكاثوليكي الهمام، بجرأة، بصليبية جديدة، بنفاق إنما بلا كلال ولا ملال مستمر من قبل الكرسي

الرسولي، بهدف إبادة الإسلام. ونحن نشهد الآن يقول، بوادر هائلة لحرب دينية".
إضافة إلى هذا العنصر باطن أرض هذه البلدان باحتياطات واسعة من الهيدروكربون كانت نقطة.... البترول هي التي جممت الكأس. والطاقة الصناعية والعسكرية لأروبا القائمة على الذهب الأسود، ترجع إلى الوضع "المزري" للعلاقة مع العالم العربي والمسلم، الذي يملك مضخات البترول.
من جديد، كان هذا الخوف غير المبرر، لأن العرب، المعتادين على التجارة الدولية منذ آلاف السنين، لم يحجزوا البضائع أو الخيرات الاستهلاكية. فالتاجر شخص يشتري ويبيع، آخذاً حصته من الأرباح، وكان النفط، كالمتبلات، العطور، الحرير، الخ...، سلعة تجارية. إنما الأشخاص المهووسون بإشعال الحرائق والمستفيدون صرخوا "إلى السلاح" وعبأوا القادة والشعوب الأروبية، وصبوا هم أنفسهم "البترول على النار"، إذا جاز لنا استعمال هذه الصورة.
القديس اوغستان، أسقف عنابه الامازيغي المشهور، يكتب في "اعترافاته"، بصدد البحث عن سبب الشر: "لكن لمَ نخاف من أمر غير قائم؟ لمَ نحمي أنفسنا منه؟ وأن كان هذا الخوف عبثاً، هنا الخوف هو بالتأكيد الشر أو الأذى الذي يصهر ويوجع القلب بلا علّة. يتضخم الشر عندما نخشى من دون مبرر".
إن الأروبيين والعرب، المسيحيين والمسلمين قطعاً، ينشرون ديناً واحداً، ديناً موحداً، يؤمن بإله واحد وبأنبيائه، موسى، داود، سليمان، يسوع ومحمد (ص) هكذا، هم أخوة ومختلفون وبمعنى الكلمة يستطيعون أن يعيشوا أخوة، ولدوا من أب واحد، إبراهيم.
- خلاصة:
لقد سمي العرب تسميات مختلفة عبر العصور من قبل الكتاب الأروبيين، السابقين والمحدثين. كنعانيين، فينيقيين، عموريين، حورانيين، آراميين، كلدانيين، آشوريين، فلسطينيين، مصريين، حثيين، بربار أو بربير، ليبيين، موريين، نوميد، أماليسيت، موآبيين، الخ.... لم يستخدم هؤلاء الكتاب المصطلح الوراثي للعرب لمعرفة هؤلاء القوم. ولقد رأينا أسباب هذا الإغفال والتفريط الإرادي عبر هذا المؤلَّف.
وانطلاقاً من القرن الثامن عشر المسيحي (الثاني عشر الهجري)، مع تطور البحث العلمي، والدراسات الجغرافية، الآثارية، والمكتبية، استخدم الأروبيون مصطلحاً جديداً – سامي – ليحل محل عربي، لأن هذا الأخير

يملـك دلالات ضـمنية وحضـارية بدهيـة، ويرجـع إلـى ذكريـات "مجهـد وواضـح". وجعل الكتـاب الأروبيون المعاصـرون بدايـة التـاريخ قبل ألـف سنة فقط من مجيء المسيح (وما سبق هذا العهد يرجع إلى ما قبل التـاريخ) أي أن التاريخ، بالنسبة لهم، يتسق مع ولادة الحضارة اليونانية ثم اللاتينيـة، ويبدأ التاريخ إذن، حسب هؤلاء الكتاب، في أروبا ويطمس كل الحضـارات السابقة (الصينية، الهندية، بين الرافدين، الأمريكية، الخ....).

وعند الكلام عن الأقوام العربية وحضاراتهم، نجد مصطلحاً جديداً – سامي – نسبـة إلـى أسم أحـد أبنـاء نـوح، سـام، أي يجـب العـودة إلـى الطوفـان، أي قرابة أحد عشر ألف عام قبل الميلاد! بينما هذه الشعوب عربية، من أرومة أو عرق ولغة عربيين وهذا هو أصلهم. وكلما تكلـم هؤلاء الكتّـاب وبالتقليد الأعمـى بعض الكتّـاب العرب عن اللغـات أو الأقـوام العربيـة، يستخدمون مصـطلح سـامي.. وشـيئاً فشـيئاً يهمـل الكتـاب الأروبيـون، الأكثـر إطلاعـاً، والأقل تابعيـة بـآرائهم المسبقة، الموروثـة، هـذا التعبيـر الغـامض والمبـهم، سامي( )، ليعودوا إلـى الواقـع التـاريخي ومصـطلح العـرب، الـذي مـا يـزال يوتر بعض الآذان الحصينة ويثير إحساساً منغصاً.

وكمـا اسـتخدام الكتـاب الأروبيـون مصـطلح سـاميين، اسـتخدموا مصـطلح شاميين أو حاميين (رجوعاً إلى شام أو حام، ابن نـوح أخ سـام)، ليـدلوا إلـى الشعوب العربية في مصر، شمال أفريقيـا. هذا، ليقسموا الشـعوب العربيـة، وهـي ذريـة شـعب واحـد ومنطقـة واحـدة، الجزيـرة العربيـة، وتكلمـوا اللغـة ذاتها، العربية وهذا ليؤكدوا كتابات التوراة (سفر التكوين) الذي، نذكر بـه)، لم يبدأ بـأن يحـدد ويعين إلا بعد العهد المسيحي الـذي تـم فـي القـرن الثـامن الميلادي (القرن الثاني الهجري).

لكـن الأحكـام المسـبقة – المـوروث يلـزم – هـي ضـمنية وأولئـك الـذين افترضوا منوري الرأي العام يشوهونه بربط الكلمـات بـ اللاحقة "isme" كلما تكلموا عن العرب: islamisme – رجوعاً إلى اللغات الأروبية- .

- الأسلمة، بينما يعني هذا المصطلح الدين الإسلامي فقط (بصفته نظريـة دينية) كما يستخدم مصطلح التنصر، التهود، التبوذ – بوذا، الخ....

- الأصولية: لموسى بن مأمون المسمى Maimonide ( ).

- الأصـوليون هم أولئك الـذين ينكبـون علـى الجـذور أو النظريـات الجذريـة في الدين، هذه الجـذور هـي التـي تشكل موضـوع الكلمـة أو الخطـاب. بينمـا الفـروع، أي كـل مـا هـو ثـانوي، لاسيما الممارسـات، هـي مجـال القضـاء –

الفقه – نذكر أن الكلمة تعني أيضاً العلم، وممارسوه المتكلون (العقائديون أو المنظرون الجذريون).
- Inte'grisme: حسب معجم لاروس، هذا المصطلح هو "الوضع الروحي لبعض الكاثوليك الذين، بإدعائهم الحفاظ على إتمام النظرية، ينفرون من التلاؤم مع شروط المجتمع المعاصر".
إن الوضع الروحي المعادي للـ "المتممين" الكاثوليك كان كما رأينا، مصدر تفجر الكنيسة المسيحية، وتكوين المنشقين وكنائس مع نتائجها: حروب إبادة الأخوة بين بروتستانت وكاثوليك، صليبية ضد البيجوا Albigeois، صليبيه ضد القسطنطينية، محاكم التفتيش... كل هذا باسم يسوع!.
أيمكن أن نعتب على مسلم أو مسيحي إذا حاول ممارسة روح القرآن بالنسبة للأول أو الإنجيل للثاني، بذريعة أن المجتمع المعاصر يفرض شروطه الخاصة؟.
هذه الشروط – التي نعرف – هي بخاصة من النسق المادي ولا تلامس حرية الفكر ولا حرية العبادة، حتى في البلدان المسماة لا - دينية laics.
إن كل مؤرخي الحروب الصليبية، وكل (تقريباً الكل) الكتاب المعاصرين الأوروبيين متفقون على القول والكتابة أن الإسلام والمسلمين كانوا أكثر تسامحاً وموضع ثقة مع المسيحيين الأوروبيين ما لم يكنْهُ هؤلاء مع المسلمين.
الواقع أن بعض الدول (أساساً من الأوروبيين) تبغي فرض قبول خطها في السلوك الاقتصادي والاجتماعي على الدول الأخرى (أساساً غير – أوروبية). يرنو الأولون تصدير أفكارهم في الحياة، وحاجاتهم إلى الآخرين، بالقوة إن توفرت.... رأينا هؤلاء الأوروبيين يصفون الهنود، المصريين، البانتو( )، الخ.... بـ فقراء، بؤساء، تعساء والصفات المبالغة الأخرى. نعم هؤلاء فقراء مادياً. إنما بثقافتهم، بماضيهم، بعاداتهم، بأخلاقهم، ليسوا فقراء ولا بؤساء. فلا يكفي أن نرى حياة فلاح في النيل، حمّال في الهند، أو حياة راع أو قروي أفريقي، في تعايش مع الطبيعة، في تفاهم وصلح مع ذاته، يغني ويرقص بعد يوم من الحرث الشاق. الواقع أن الوضعين غير متشابهين ولا يمكن إذن المقارنة بينهما: الحاجات متباينة، فلسفة الحياة ليست ذاتها، ولا تعريف السعادة.
هذا يعني أهمية الأخلاق لدى الشعوب: وزن الشرف والتسامح في ميزان الحضارات، الثقة والاحترام المتبادل في العلاقات الدولية. حسب التراث،

اتى جلبير (أو جيربير)، الذي كان بابا في سنة ٩٩٩م (٣٨٩ هـ)، تحت اسم سلفستر الثاني، ليتعلم على الأرض العربية في اسبانيا. ولما أراد أن ينشر علمه في أروبا المسيحية، ظهر هذا العلم عظيماً، حتى اتهم أنه باع نفسه للشيطان.
ترجم السيد دوزي قصة هذا اللا هوتي العربي "الذي مثل بغداد وحضر العديد من المؤتمرات الفلسفية وناقش أبناء كل معتقد: يهوداً، كفاراً، مجوساً، مسلمين، مسيحيين، الخ... كان يُصغي إلى كل منهم باحترام ولم يطلب منه سوى تقديم مستندات نابعة من العقل وليس من مطاوي كتاب ديني أياً كان( )".
وفي الجزائر، في السبعينيات من القرن العشرين (١٣٩٠هـ) جمع الراحل مولود قاسم، وزير الخارجية، الاكليركيين المهتمين بالفكر الإسلامي، وعلماء من كل الأديان، ومختلف القارات، إلى جانب كتاب اشتراكيين، شيوعيين الخ... في مواضيع دينية وعلمية، ولم يكن الفكر الحر مسموحاً به فقط، بل مطلوباً( ).
وصل النور إلى أروبا من آسيا وأفريقيا. أيرفض النور لأنه قادم من بلاد "أجنبي"، من قارة أخرى؟ أيرفض التنوير لأنه ينبع من أرض أنبياء، في آسيا؟ أيقبل البقاء في العتمة، في البربرية، لأن هؤلاء الذين يأتون لينيروا دربنا، ونسميهم "برابرة" لأن المرايا مشوهة؟ "إنه لمدهش" يقول القديس – أوغستان( )، بربري آخر، "أن عيوناً شوهاء تكره النور، وتعمي عيوناً سليمة".
أم نريد امتلاك النار (ورمز النور والطاقة لدى الإنسان الأول في أيام الكهوف) باستبعاد حائزيها جسدياً (كما في العصر الحجري و/ أو تاريخياً كما (في عصر الجديد)؟.
الآن، في نهاية القرن العشرين الميلادي (بداية الخامس عشر الهجري)، عثر العالم العربي بعد الحصول على استقلاله السياسي، وطرد الاستعمار خارج حدوده، على تخومه الطبيعية: المحيط الأطلسي في الغرب، الفرات والمحيط الهندي في الشرق، وهي ذاتها التي كانت فيما قبل ـ الإسكندر، ماعدا إسبانيا وجزر في البحر المتوسط. وكذلك كانت اللغة العربية، في كل هذه البلدان هي اللغة الرسمية والشعبية.
لكن هذه العالم العربي (الجزء من العالم المسلم الأوسع كثيراً)، المسالم والمتسامح، يتطلع إلى سعادة أقوامه والعيش في انسجام مع جيرانه (ومنهم أروبا). يخلط الأروبيون بتداعي الأفكار – وعكس نموذج بافلوف – في

التواصل الدلالي، بين العرب والمسلمين: ربما لأن اللغة العربية هي الحامل "الشعبي" للقرآن ومقياس اللغة الدينية لكل المسلمين، بلا ريب لأن ذات الحضارة، الحضارة العربية – الإسلامية تضمهم. تطال "الأفكار المسبقة الموروثة" بنفس الطريقة الأتراك، الألبان، الإيرانيين، السنغال.... من جهة، العرب (المسيحيين والمسلمين)، من جهة أخرى. الفئات المسيحية في العالم العربي هم عرب كلهم و، هكذا، يوحدهم نفس المصير والمستقبل. إن كل الأديان الموحدة – وحتى الملحدة، الشيوعية، والمذدكية، الخ.... تعيش هنا بصورة متآخية.

في هذه البلدان، يصل المسيحيون، الإسرائيليون، كما المسلمون بديناميتهم إلى أعلى المناصب من المسؤولية: في العراق، في الجزائر، في مصر (وغيرها) كان المسيحيون أوهم الآن وزراء: في لبنان، المسيحيون هم في رئاسة الجمهورية، في مراكش، الإسرائيليون وزراء.

وبعد أن أجتاز الأروبيون أزمة اليفاعة، الملازمة لكل مجتمع في طريق التطور أو النمو، يشكلون الآن دولاً قوية سياسياً، اقتصادياً وعسكرياً. "أفليس عليهم بعد هذا أن يحسوا أنهم كانوا أذلاء أمام العرب وتفوقهم الحضاري الكاسح". أن يشعروا بالعداء، بالقلق تجاه العرب أو الخوف منهم. إنما على تطورها العلمي والاقتصادي أن يمشي بالتوازي مع السمو الخلقي والروحي، الذي يستقي من كل أديان الإنسان. وليس على العرب أن يوسموا باللا – أمانة لأن كل الرسل، موسى، يسوع ومحمد (ص) هم سلالات من نفس الأرض، ويلقنون الناس ذات الرسالة من الأخوة والمحبة.

شعبان ١٤١٨

ديسمبر ١٩٩٧

المصادر العربية

عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء دار الكتب العلمية (بيروت)

عبد العزيز سليم تاريخ الدولة العربية دار النهضة العربية (بيروت)

ابن بطوطه رحلة دار صادر (بيروت)

سعيد عبد الفتاح عاشوتاريخ العلاقات بين الشرق دار النهضة العربية (بيروت)

والغرب في العصور الوسطى

حسن صالح شهاب فن الملاحة عند العرب دار العودة (بيروت)

حسن حده تاريخ المغتربين العرب العربي ودار دمشق (دمشق)

في العالم
محمد عبد الله بن أحمد أخبار مكة المشرفة
الأزرقي
فيليب حتّي تاريخ العرب دار غندور (بيروت)
مولود قاسم هوية وأصالة مطبعة البعث (قسطنطينة)
محمد عزت دروزه تاريخ موجات الجنس المكتبة العصرية (بيروت)
العربي في وادي النيل

المصادر الأجنبية

Ed. Flammarion Confessions Saint– Augustin
Poyat le cine'ma B.Balazs
Durand ReflecTions sur la Musique J.Barraud
Histoire secrete de l,Egypte J.L.Bernard
Albin
Les ecrits esseriens ADupont – Sommer
decouverts
Poyot Pres de la mer Marte
L'apocalypsie n'aura pas lieu M.Fayache
Tescto
Poyot Precis d'Histoire des Arabes Ph. Hitti
Souvenirs d'un voyage dans le R.E.Huc
Le livre de poche Thibet
chretien
Histoire de l' Afrique de Nord Ch.A.Julien
Poyot
SNED L'Algerie dans l'Antiquite M.Kaddache
Discours sur L'Histoire Iben Khaldun
Universelle Traduction de
Sindbad V.Monteil
SNED La civilisation Des Arabes G.Lebon
Le guide des égares (traduit M. ben Maimoun
de

Maisonneuve et L'original arabe par Munk)
larose
Stenke La Sagesse des Anciens L.Rampa
L'Algerie au temps des Corsaines W.Spencer
SNED
Dictionnaire Nouveau Petit La Larousse
Larousse 1967 rousse
Ste des Encyclopedie Quid Quid
Gallimard Ethnologie generale

الفهرس